ما قبل البدايه

سلمي هيثم عزمي

ما قبل البدايه
سلمي هيثم عزمي
تدقيق لغوي : عبدالله أبو الوفا
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 2018/2861
ترقيم دولي: 978-977-6594-36-4

دار فصلة للنشر والتوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla,pub@gmail,com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الاولي يناير ٢٠١٨

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

ما قبل البدايه

سلمي هيثم عزمي

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى جدتي التي رحلت و تركت ملامحها في وجهي لأراها كل ليلة في المرآة، كم افتقدتك .

إلى أسرتي الصغيرة وعائلتي الكبيرة،

إلى كل من ساندني وآمن بي منذ البداية،

إلى هذا الإيمان بداخلي الذي يخبرني بأنني يومًا ما سأصل،

إلى أكواب قهوتي التي دومًا ما تجعل كل شيء أفضل،

لولاكم ما كنت وبدونكم لن أكون، دمتم شعاع ضوء ينير حياتي .

إلى هؤلاء الذين يقفون على أرض الواقع ويرفضون الذهاب لغيرها، اذهبوا للخيال قليلًا ففي الخيال واقع أفضل من واقعكم .

وأخيرًا لك أنت يا من تقرأ، ها أنا أكتب لك من الواقع الموجود في خيالي، فحين يجتمع الواقع بالخيال هنا يكمن الشغف .

لا تخبرني أن هذا ليس منطقيًا،
فأين المنطق في كل ما نحياه؟

اهجر أرض الواقع واعبر من بوابة الخيال،
لولا الخيال لما تحملنا سخافات الواقع .

(لكل حدث أفعال كثيرة تسبقه، لا يهم مكانها ولا نعلم زمانها، لكنها حدثت)
طُوي النهار وخفت حرارته، خفي ضياءه وذهبت شمسه، لكن شمس أخرى قد أضاءت، بعد فترة لا بأس بها من الاستعدادات جاء اليوم الموعود وأضاءت قاعة الأفراح أنوارها اللامعة محتفلة بيوم زفاف جديد، اعتادت القاعة على أن تشهد يومًيا هذه الاحتفالات كأنها فيلم سينمائي يتكرر عرضه كل ليلة، فلم تعد القاعة أو كل من يعملون بها يعبؤون بالفردين الذين قدر الزمان أن يجمعهما معًا، لا يعبؤون هل أحب كل منهما الآخر أم زواج تقليدي أم أن الطرفين مغصوبان على دخول هذه الحياة الجديدة تحت ضغط الأهل أم خوفًا من ألا يلحقا بآخر عربة في قطار الزواج .
أما عروسا اليوم فمن الواضح أن كل منهما يحب الآخر حقًا، كل منهما بحث في من حوله حتى وجد الإبرة المختبئة في كوم القش وأقسم أن لا يفرط فيها ما حيي .
دُقت الطبول وأطلقت المزامير أصواتها لتكشف عن فرحة كل من يشهد على هذه الزيجة الجديدة .
بدأت الأغاني وبدأ معها تراقص الضباب والفتيات بالطريقة المتعارف عليها الآن، لا تفرق بين المستويات الاجتماعية فالجميع يتراقص ويشارك العروسين فرحتهما أما هي، فكانت في أبهى صورها، متزينة بفستانها الأبيض الواسع وحجابها الذي أضاف لها نوع من الجمال، تجلس بجانب زوجها الذي أصبح اليوم يشبه الأمراء أو الملوك، بقدر سعادتهما كان كل منهما ممتلئ بالتوتر، فهذا اليوم هو نقطة فاصلة، خط يفصل بين حياة قديمة تركاها بإرادتهما وبين حياة جديدة لا يعلمان ملامحها .
بضع ساعات أخرى وتعطلت عقارب الساعة ووقف الزمان هنا .
أكانت هذه البداية أم النهاية أم نقطة في المنتصف؟ لا أحد يعلم ولا يهم، فهذا

يوم مر من بين آلاف الأيام التي قد يصبح لها أثر فيما بعد أو قد تمر مرور الكرام، على كل حال يمكنك أن لا تتذكر هذا فهو لا يهم .
على الأقل الآن .

****

أغمض عينيك واذهب معي، حيث الأرض التي لن تراها والزمان الذي لن تحياه،
حيث يتحول كل ما هو خارج عن المنطق إلى شيءٍ جائز .
ولا تتعجب، فالقادم دومًا سيكون أغرب .

لكل فعل رد فعل، وكل قوة لها قوة أخرى مضادة لها، كل منا له نقيض، فعلى ناحيةٍ أخرى من العالم أو جهة أخرى من الزمان يوجد نقيض لكل ما هو بيننا . فإذا كان في قوانين الفيزياء أقطاب المغناطيس المختلفة تتجاذب ففي قانون البشر القوى المختلفة تتصارع .

ويبقى الصراع بين النقيضين، يبقى الصراع ومن ينتصر!

السكوت يخيم على المكان، سكوت لا يدل على ما يتبعه، سكوت يسبق العاصفة، ثم جاءت الفوضى لتقضي على السكوت، عصور من الفوضى تأتي بعدها أعوام من الهدوء، فترات من النور ثم فترات من الظلام، هذه الأرض لم تشهد البقاء على حال أبدًا، سلام وحرب متتابعان منذ أن خلقها الله . لكن فجأة اهتز كل شيء، الظلام يزحف نحو الأرض، اليابس يطغى على الأخضر، الزرع يُحرق والحيوانات تموت، الزوجات تُرمل والأطفال تُيتم، فوضى تدل على اقتراب النهاية وانهيار كل شيء، دماء تنتشر وصرخات تعلو، وفجأة انطفأ كل شيء .

فزعت المرأة لما رأته ولم تستطع أن تغلق عينيها التي اتسعت، هبت من مكانها وصرخت .

- "عدنان، يا عدنان جهز لي الحصان بتاعي" .

هرول إليها الفتى وأشار لها بيده أن (لماذا؟) .

أجابته وهي تبحث عن ملابسها في عجلة:

- "لازم أتحرك حالًا، لازم أروح لأهل الشمال والجنوب" .

أشار لها عدنان نحو السماء فتفهمت ما يريده وقالت:

- "مينفعش استنى للصبح، الخراب اللي هيحصل دا محدش هيعرف يقف قصاده" .

لم يفهم الفتى ما تقصده ولم يسأل، فقد سُلبت منه نعمة الكلام ورُزق نعمة الصمت التي لا يعلم قيمتها إلا سيدته، فما يعجبها في عدنان صمته الدائم .

جهز الفتى حصان سيدته وحصانه أيضًا، ارتدت عباءتها السوداء التي تغطي من أعلى رأسها حتى قدميها انطلقت من كهفها ومعها غلامها يسيران في الصحراء . لا تعلم إلى أين تذهب بالتحديد لكن ما رأته لا يحتمل التأخير، فقد اعتادت كل فترة أن ترى ماضي الأرض في كرتها السحرية، اعتادت أن تعرض لها الكرة صراعات هذه الأرض حتى ينتهي ما تراه عند الفترة التي قرر فيها أهالي أرض الشمال وأهالي أرض الجنوب عقد المقاطعة فلا هو سلام ولا هو حرب ودمار، لكن هذه المرة لم يتوقف ما تعرضه الكرة .

انقطعت أفكارها حين وصلت لمفترق الطرق الذي يؤدي لأرض الشمال أو الجنوب .

توقفت وأخرجت من حزام عباءتها رسالتين وأعطتهما للغلام وقالت:

- "تطلع على أرض الشمال وعلى أرض الجنوب تدخل لزعيم كل أرض تسلمه الرسالة في إيده، يستلمها بنفسه يا عدنان" .

نصب عدنان الخيمة لسيدته وانطلق نحو الأرضين ليلبي أوامرها .

غلام أسمر معتدل القامة، سماره مكتسب من الشمس فلا تستطيع أن تميز لونه الحقيقي، انطلق نحو الصحراء حتى وصل لأسوار الأرض، أسوار لا تدل على وجود حياة بشرية خلفها .

وصلت الرسالة لزعيم كل أرض ففضها وبدأ يقرأ:

"من (فخر) ساحرة وحيكمة أرض " إيڤانوس" إلى (الشوام) زعيم أرض الشمال وإلى (أيوب) زعيم أرض الجنوب:

منذ أعوام لم أتواصل مع أحدٍ منكما، تعلمان أنني لا أحب الحلول الوسطية ولم أكن راضية عن المقاطعة لكن مصلحة أرض (إيڤانوس) فوق مصلحة كل شيء، الخراب سيحل، النهاية ستقترب .

سوف ينتهي كل شيء وستدركون نتائج أفعالكم .

حين تتذكرون صدق رؤياي وأن الظلام قادم ستجدونني عند مفترق الطرق .

لكن احذروا، ما بدأتموه لم يتبق الكثير على نهايته .

فخر(حكيمة أرض إيڤانوس)"

ما أن توقف الشوام عن قراءة الرسالة حتى أسرعت زوجته سوسن قائلة .
- "تفتكر كلامها صح؟"
اعتدل الشوام وقال بشرود:
- "الحكيمة فخر عمرها ما قالت حاجة ومصدقتش فيها، بتبشر بالمطر قبل ما ينزل وبتحذر من الحرب قبل ما تقوم" .
- "بس الحال مستقر ومفيش حاجة تدل على اللي هي بتقوله دا" .
قطع حديثهما صوت آخر تدخل في الحديث دون استئذان:
- "مفيش خراب أكبر من أنها تبعت رسالة ليك ولزعيم الجنوب في نفس الوقت، لو بتفكر أن ممكن حاجة تجمعنا حتى لو كان حبر على ورق تبقى كبرت وخرفت" .
نظر الشوّام لابنه (عمار) في حيرة، فهذا الابن البكري قد تربى على أن لا يتقبل إلا ما يدور في رأسه، لا يتقبل رأي أحد ولا ينحني للظروف .
نظرت سوسن لآخر من كان في مجلسهم صامتًا لا يتحدث وقالت:
- "ساكت ليه يا علي؟ إيه رأيك في الرسالة" .
- "رأيي يا أمي أن الوقت هو اللي هيكشف كل حاجة، مع الأيام كل حاجة هتبان" .
كل هذا في أرض الشمال، فأحوال الأرض كلها تدار من هذا المنزل، كل قرار يخص الأرض أو أهلها يتخذه هؤلاء الأربعة، منزل طوبي في منتصف الأرض، أعمدته من اللون الأخضر مرسوم عليها زهرة اللوتس كرمز لحرفة الزراعة التي يعيش عليها أهالي الأرض، رغم كل الصراعات لكن أبناء أرض الشمال قد اتفقوا على العيش بمهنة الزراعة، كما اتفق لون بشرتهم الأبيض، فجميعهم لهم ذات البشرة البيضاء التي تظهر عروقهم من أسفلها، ولأن لا يوجد بياض صريح فقد حدد (الشوّام) اللون الأسود ليكون زيًا رسميًا لسكان الأرض، يرتدون ما أرادوا من الألوان لكن في الأعياد والاجتماعات يرتدون عباءة سوداء لها حزام أخضر من فوق الخصر، ومثلهم عائلة الشوام التي تحكم الأرض منذ القدم، الشوام الكبير وزوجته سوسن وابناهما (عمار) الأكبر و(علي) الأصغر لهم نفس البشرة

البيضاء، الشوام ممتلئ الجسم، أزرق العينين، ضرب الشيب شعر رأسه فملأه وقارًا، أما سوسن فهي من يطلق عليها حمامة سلام الأرض، يحبها كل أهل الأرض ويلجأ إليها كل مظلوم أما عمار فهو الابن الأكبر ذو الثلاثين عامًا، طويل القامة ضخم البنية له شعر أسود وعينان سوداوان تفرقان بينه وبين (علي) الابن الأصغر، ومن بيت (الشوام) تدار الحياة الشمالية .

على ناحية أخرى من الأرض أثار خطاب الحكيمة (فخر) القلق في بيت (أيوب) زعيم أرض الجنوب، فإذا كان أهل الشمال هادئين بعض الشيء فأهل الجنوب لهم طابع حاد وعنيف، ألم أقل لك أن كل منا له نقيض؟ فهذان الشعبان مختلفان في كل شيء، أهل الجنوب بشرتهم سمراء، شعورهم مجعدة، يرتدون اللون البني في أزيائهم ومن فوقها الأحزمة الصفراء . أن كانت زهرة اللوتس تدل على هدوء أهل الشمال فإن الأرض الجنوبية قد اتخذت قرني الغزال رمزًا لها ليدل على عملهم بمهنة الصيد، لكن رغم التناقض في الطباع والاختلاف في الحرف وحتى في لون البشرة، جمع الشعبين أرض واحدة .

(أرض إيقانوس)

خلقت من طين أم من نار،
فكل منا حاله يتغير بغروب النهار .

شروق وغروب ليل ونهار . أربعة أيام مروا بسلام حتى فجر اليوم الخامس .
سمع (أيوب) رنات أجراس متقطعة، فعلم مصدرها قبل أن يراها، فمن المؤكد أنها أجراس خلخال شقيقته (زينب) فقد خلقها الله وخلق معها الهزة في خصرها والخلخال في قدمها، لكن ظنه قد خاب ما أن دخلت الغرفة (ليلة) ابنة شقيقته التي ورثت من أمها كل شيء .
كانت ليلة قصيرة القامة ضئيلة الجسم، لها من العمر ٣٠ عامًا لكن قامتها القصيرة وملامحها الطفولية تعطيها مظهر أصغر من عمرها، لها ملامح صغيرة وعينان خضراوتان تليقان على بشرتها السمراء . لها ضحكة تهتز لها أرجاء الجنوب، وبالطبع يظهر خلخالها بسبب فستانها الأحمر، الذي يقف فوق ركبتاها بمسافة بعيدة ويكشف عن كتفيها، وقد طُبع على أحد كتفيها قرني الغزالة كدليل على حبها للجنوب .
- "صباح الخير يا خالي" .
قالتها ليلة وقبلت يد (أيوب) وقبل أن ينطق بكلمة اقتحمت والدتها (زينب) غرفة أيوب .
سيدة في آواخر الأربعينات لكن مظهرها وروحها وقوامها لا يدلان على عمرها أبدًا، لها نفس ملامح ابنتها ونفس الخلخال في قدمها والطباعة على كتفها .
- "الحال مايل يا أيوب" .
- "في إيه؟"
- أنت قاعد هنا ومتعرفش حاجة، رؤية الحكيمة فخر بتتحقق" .
- "في إيه بس؟ أنا مش فاهم حاجة؟"
- "الناس مش لاقية حيوانات تصطادها، الطيور هاجرت والسمك بيموت ومنسوب المايا في البحيرة قل، حتى الحيوانات والمواشي اللي الناس مربياها مرضت" .

- "تفتكري تكون حاجة مقصودة من الشوام وعياله؟"
- "حالهم من حالنا يا أيوب" .
- "يعني إيه؟"
- "عرفت أن زرعهم بيموت وشجرهم بيدبل وبرضه منسوب المايه بيقل" .
- "عرفتي منين كل دا؟ انتي خرجتي من الأرض؟"
- "لا يا أيوب، دا كلام (ولي العهد)" .

قاطعت ليلة حديثهم وقالت:

- "أهل البلد كلهم خايفين وبيتكلموا" .

أدار أيوب رأسه لابنة شقيقته بذهول وسألها:

- "من إمتى بتهتمي بأحوال الأرض واللي بيجرى للناس؟"
- "مش مهتمة ولا حاجة بس امبارح الناس كانت بتتكلم عندنا في الدار" .

كانت زينب وليلة آخر من يهتم بسياسة أرضهم، فكل ما يهمهن هو الدار، لم يكن دارهن كأي دار آخر، بل كان بمساحة أربعة دور معًا، يمارسن فيه عملهن منذ القدم، فزينب سيدة الجنوب الأولى، وقديمًا كانت راقصة الجنوب ولسبب مجهول عن أهل الجنوب منعت زينب من الرقص فجأة بل منع الرقص من الأرض كلها .

لكن قوانين الوراثة أقوى من قوانين البشر فها هي (ليلة) تأتي قطعة من والدتها لكنها خضعت لقوانين (أيوب) وأصبحت مغنية الكفر، يجتمع الناس في دار زينب كل ليلة يستمعون لصوت ليلة وزينب وينصرفون دون أن يخترق أحدهم قانون أيوب وخاصة بعد أن أصبح الإعدام هو عقوبة من يرقص بداخل أسوار الجنوب، أكمل أيوب حديثه كأنه يحدث نفسه بصوتٍ عالٍ:

- "كدا يبقى رؤية فخر بتتحقق وفي خطر فعلًا" .
- "إزاي يا خالي الحكيمة فخر بتعرف الحاجات دي؟"
- "يا بنتي انتي صغيرة جيتي في عهد الهدوء، فخر ياما بينت علامات أنها بتعرف حاجات إحنا منعرفهاش وياما كشفت ناس، صح يا زينب؟"

نظر لها نظرة تعرف زينب معناها جيدًا فاقتربت منه وخفضت من صوتها

وقالت:
- "اللي فات أنا دفعت تمنه مية مرة ومش كل شوية تفكرني بحاجة أنا عمري ما نسيتها، أنا قاعدة هنا بس عشان ولي العهد لكن لو فتحت القديم تاني هاخد بنتي ونمشي من هنا ومش هتعرف لي طريق" .
لم يعقب أيوب على حديثها كأنه لم يسمع تهديدها وأكمل قائلًا لزينب:
- "بكرة الصبح هنكون أنا وانتي عند الحكيمة فخر وهنبعت ولي العهد رحلة صيد عشان أهل الجنوب يأكلوا" .
لم تعقب زينب على حديثه بل سحبت ليلة في يدها وخرجت من الغرفة .
- "خالي كان قصده إيه بالكلام اللي قاله؟"
- "ميقصدش حاجة ومش كل حاجة تسألي عنها يا ليلة" .
ليس كل أحداث الماضي قابلة لأن نقصها على الآخرين، ليست جميع أفعالنا قابلة للحديث عنها، يكفي أنها حدثت وانتهى الأمر .
لكن هناك أفعال ستعيش تدفع غرامتها ما حييت حتى ولو مر عليها عمر وسيعيش الآخرون ليذكروك بأخطائك حتى يأتي أمر الله وتدفن أخطاؤك معك .

حياتنا كالكتاب نكتب أفعالنا في صفحاته، لكن صفحات أخطائنا غير قابلة للقطع نحن فقط نطويها لنتجنب رؤيتها .

انطلقت العربة التي تجرها الخيول من أمام بيت (الشوام) مرت بين الأبنية الطوبية التي يسكنها أبناء الشمال، منازل طوبية بها أفراد يغلب عليهم الخوف والقلق من تغير أحوال الأرض وتدهور المحصول، ومرت العربة بين أراضي كانت خضراء منذ فترة ليست بالطويلة، لكن الآن مال لونها للذبول بعد أن قل الماء ومرضت الأرض وتوقفت الأمطار .

اجتازت العربة أسوار الأرض وأعين أهلها معلقة بخيول العربة التي قد تأتي لهم بالفرج على الرغم من عدم علم أهل الأرض برسالة فخر .

شقت العربة طريقها في الصحراء وعلى الجهة الأخرى توجد عربة مثلها متجهة من الجنوب .

فتح الفتى عدنان باب خيمة الحكيمة ليدخل منه الشوام وزوجته سوسن ومن بعدهما أيوب وشقيقته زينب، جلست فخر في منتصف الجلسة على يمينها أصحاب الزي الأسود وعن شمالها أصحاب الزي البني .

- "اللي هتشوفوه دلوقتي أنا واثقة منه نفس ثقتي في أن الشمس بتطلع من الشرق" .

رفعت فخر الغطاء من فوق كرتها السحرية فظهرت مشاهد تعرض ماضي الأرض وفترات الحرب والسلم بين الأرضين، ظهر مشهد قديم للشوام وأيوب أثناء عقد اتفاق المقاطعة بين الأرضين حتى جاءت اللقطة الجديدة، ظهر بحر تعلو أمواجه وتطغى على اليابس، الماء ينتشر من كل جهة والأرض تهتز بصوت الرعد وتضيء بضوء البرق، أصوات الصراخ تعلو مع علو الماء وسقوط الأمطار، وفجأة اهتزت الأرض أكثر وانشقت ولم يتوقف صوت الصراخ إلا لأن الكرة على غير توقع قد أظلمت .

خيم الصمت على الحاضرين وأصبح حالهم كحال عدنان لا ينطقون .

قطعت فخر صمتهم وقالت:

- "اللي انتو فيه دا بداية اللعنة، أرض إيڤانوس اتلعنت" .
قالت لها سوسن بقلق:
- "يعني إيه؟ إحنا بقالنا سنين مش بنحارب" .
- "بقالي كتير مشوفتكيش يا سوسن، وانتي كمان يا زينب كلنا كبرنا إلا انتي يا زينب" .
كانت زينب لا تحتمل كلمة من أحد، فقد كان فوق صدرها ثقل جبال الدنيا جميعًا ولا يوجد شيء بالنسبة لها أسخف من هذا المجلس، لكنها حضرته على الرغم من عدم رغبتها في ذلك، لكنها كانت رغبة أيوب لسبب يعلمه كل من في المجلس .
تدخل الشوام وقال:
- "مينفعش نسيب الزرع اللي بيموت وأهلنا اللي هيجوعوا ونركز مين كبرت ومين مكبرتش، إحنا مش جايين نهزر" .
ابتسمت فخر السيدة الخمسينية ساخرة وقالت:
- "مكنتش عصبي كدا في آخر مرة شوفتك فيها، ٣٠ سنة مش قليلين برضه . المهم أرض إيڤانوس مش قابلة الوضع دا واتلعنت، زرعكم هيذبل والغنم هيموت وانتوا هتنتهوا واحد ورا واحد" .
- "والحل يا ست فخر" .
قالها أيوب بقلق فأجابته:
- "زي ما الأرض ليها حدود شمالية واضحة وحدود جنوبية واضحة لازم حالها يكون واضح، مفيش إلا حلين، الأول هو السلام وإنكوا تبقوا شعب واحد على أرض واحدة، والثاني هو الحرب لحد ما قوة فيكوا تقضي على الثانية، وتبقى ليها سيادة أرض إيڤانوس، غير كدا هتفضلوا ملعونين لازم توصلوا لوضع واحد حرب أو سلم لكن التقاطع دا أسلوب" .
- "أسلوب اللي رقص على السلم" .
قالتها زينب باندفاع فنظرت لها سوسن بلؤم وقالت:
- "أه طبعًا انتي أدرى في موضوع الرقص دا" .

بدأت معارك النساء إذًا فليصمت كل شيء، فالنساء يا صديقي ماكينة قتال لا تتعطل أبدًا، إذا بدأت بينهن الحروب في إطلاق الكلمات القاتلة فلا مجال للسلام قبل أن تقضي إحداهن على الأخرى .

ضحكت (فخر) من حديث المرأتين وأكملت:

- "قدامكم أسبوع تختاروا السلم أو الحرب لكن اللعنة مش هتزول برضه" .

- "أومال هتزول إزاي؟"

سألها أيوب فأجابت:

- "معاهدة هعملها مع الأرضين عشان توصلنا لحل قبل ما اللعنة تقضي علينا، غير كدا أنا مش مسؤولة عن اللي هيحصل" .

لم يعجب حديثها أي من الجالسين لكن الشوام سألها عن مضمون المعاهدة فقالت:

- "لما أهل أرض كل واحد فيكوا يقبلوا المعاهدة هتعرفوها، لو قبلتوا كل زعيم فيكوا يعمل فريق من عدد صغير ويجي الخيمة دي وساعتها هعرف إنكوا عندكوا نية تنقذوا إيڤانوس وهساعدكوا" .

لم يجيبها أحد فأكملت:

- "ولي عهدك فين يا أيوب؟ وعمار عامل إيه يا سوسن؟"

قال أيوب:

- "ولي العهد بيحاول ينقذ أهل الأرض ويصطاد حيوان" .

وقالت سوسن:

- "عمار كويس أكيد هتشوفيه قريب" .

حل الوجوم على أهل المجلس هموا للمغادرة، لكن أوقفتهم فخر قائلة:

- "مفيش غير أسبوع واحد والاختيار بإيديكوا، يا تختاروا الوصول لحل أو تختاروا الموت ليكوا قبل موت أهالي أرضكوا" .

كانت كلماتها كالحجارة التي وقفت في حلق كل منهم فخرجوا دون أن يلقوا السلام حتى، وعلى باب الخيمة قال أيوب للشوام:

- "لولا الظروف اللي احنا فيها دي كان مفيش حاجة هتجمعني بيك إلا الموت" .

- "معنديش مانع أن الموت يجمعنا لو كان موتك على إيدي" .
ركب كل منهما عربته وانطلق في اتجاه غير الآخر .
كبداية ونهاية الخط المستقيم، لن يلتقيان مهما حدث .

****

١- الصراع .

من الممكن أن تتصارع مع من يخالفك في الرأي أو الطبع لكن هل جربت أن تتصارع مع نفسك؟
هل جربت يومًا أن تمتلك بداخلك صوتان كل منهما له رأي غير الآخر وكل منهما يريد أن يقضي على الآخر وتجلس أنت بينهم غير قادر على اتخاذ القرار؟ تجلس أنت بهدوء من لا يبالي وبداخلك الحرب قائمة والنيران مشتعلة .
فكل منا بداخله شخصان وسوف يأتي يوم وينتصر أحدهم على الآخر، أو أنك لن تتحمل هذه الحرب وستأتي نهايتك، فكل قوة بداخلك هي شخص مختلف وأنت من بينهم لا تدري من أنت وكل ما تخشاه هو أن تموت قبل أن تصل لإجابة هذا السؤال .
فها أنت ذا لا تعرف ذاتك ولا تعلم نهاية هذه المعركة لكن دومًا احتفظ بثباتك فهذه الحرب لم ولن تنتهي ما دمت حيًا .

****

إذا كنت غير قادر على اتخاذ القرار فاصمت واترك الأرض تدور حول نفسها .
فلا يوجد أقوى من الأيام لتكشف لك الصواب من الخطأ .
كان الوقت يمر كحبات الرمال التي تسقط في الساعة الرملية، تمر في ممر ضيق ليصل من أعلى الساعة إلى أسفلها، وهذا الممر الآن يشبه اختناق روح أهل الشمال واحتراق نفس أهل الجنوب، فمنذ القدم لم يجتمعا على شيء واحد قط، لكنهم الآن وبغير عمد قد جمعت الأزمة بينهم، كما جمع بينهم سابقًا صوت السيوف ولون الدم المسفوك يسقي رمال إيڤانوس بحمرته .
في اليوم الخامس من الأسبوع الذي منحته فخر لهم جلس الشوام في الساحة التي أمام منزله وقد اجتمع أهل الشمال جميعًا أمامه .
جلس على منصة مرتفعة عن الأرض بضعة أمتار فوق كرسي يليق بزعيم الشمال، يوجد عن يمينه كرسي أدنى قليلًا في الفخامة تجلس فوقه سوسن سيدة الشمال، وعن شماله كرسي مماثل لكرسي سوسن يجلس فوقه (عمار) بجانب أبيه، وبجانب عمار يجلس (علي) أصغر من في العائلة .
خلف منصة الشوام يوجد المنزل وأمامه توجد الساحة التي امتلأت عن آخرها بأهل الشمال، أهل الشمال المنتظرين كلمة واحدة من زعيمهم لتقرير مصيرهم - "صباح الخير" .
بدأ الشوام يلقي ما في جعبته أمام كل من يرتدون الأسود ويلتف حول جسدهم الحزام الأخضر، حتى أسرته، مثلهم كمثل الشعب في زيهم وفي عدم معرفتهم لما سيقرره الزعيم: - "أكثر من خمسة وعشرين سنة وأنا بأخذ القرار بالنيابة عنكم، خمسة وعشرين سنة مفيش حاجة تهمني غير مصلحتكم، والنهاردة أنا حبيت أعرفكم أني أخذت قرارين ممكن يغيروا حياتكم تمامًا، القرار الأول . . . ".
- "احنا هنلغي المقاطعة" .

قالها أيوب على الناحية الجنوبية من الأرض كما قالها الشوام على الناحية الشمالية منها .
اهتزت صفوف الناس في كلا الأرضين وسارت بينهم همهمات وحركات خفيفة لم تلبث أن تحولت لسكون حينما هم الشوام بالحديث .
- "القرار الثاني: أنا بعلن قدامكم رسميًا أني بتخلى عن زعامة الشمال وبسلم الزعامة لابني" .
ازدادت الحركة في الصفوف، وعلا صوت ضجيجهم، بعضه اعتراض، وبعضه عدم فهم، أما عمار فقد انفرجت أساريره وعبأ صدره بالهواء لكن الشوام أكمل:
- "من النهاردة ابني هو زعيم الشمال، هو اللي هيقوم بالمهمة دي ويروح للحكيمة فخر، وأنا هبقى هنا نائب عنه لحد ما يرجع، من دلوقتي زعيم الشمال هو (علي الشوام)" .
تسمرت الأرجل في مكانها واتسعت حدقات الأعين وجفت الدماء في العروق، عبأت سوسن صدرها بالهواء ونظرت للشوام نظرة رضا، بينما اصفر وجه (علي) من أثر الصدمة .
هل جربت يومًا أن تقف في الصحراء بدون ملابس تحت شمس شهر (يونيه) وقت الذروة؟ هذا بالضبط كان رد فعل (عمار)، كان الشوام على وعي بما في داخل صدر كل من الحاضرين، فآثر أن يقضي على هذا الصمت فقام من مجلسه واقترب من (علي) وخلع شعار زهرة اللوتس الذي استقر على جانب صدره الأيسر طوال فترة حكمه، ووضعه فوق صدر ابنه لتشهد أرض الشمال وزهرتها على ميلاد الزعيم الجديد، انحنى (علي) وقبل يد والده فجذبه الشوام من يده وأجلسه على الكرسي الذي كان يجلس فوقه الشوام من دقيقة وقال:
- "من كل قلبي بتمنى النصر لأرض الشمال والتوفيق لابني" .
انفض المجلس ودخلت أسرة الشوام لمنزلها فلم يسمح الشوام لأحدهم أن ينطق بكلمة فبادرهم قائلًا:
- "مفيش وقت، أنت يا (علي) وعمار وسوسن وسمر تكونوا الصبح عند الست فخر" .

- "وإيه علاقة سمر بالمهمة دي؟"
نظر الشوام لسوسن التي اعترضت لتوها وقال:
- "معتقدش أن (علي) هيعترض على أي قرار بعد ما اتنازلت ليه عن الزعامة" .
كلمة الزعامة نبهت ذهن علي الشارد فنظر لوالده وقال:
- "ليه يا أبويا عملت كدا؟ أنت أكيد أدرى مني" .
- "عشان أنا واثق فيك مع أن دي أول حاجة أعتمد عليك فيها، هستناك ترفع راسي، أنت وعمار مع بعض لازم تحققوا أي حاجة فيها مصلحة الشمال، وحتى بعد ما بقيت الزعيم متعملش حاجة من غير مشورة أمك سوسن" .
انصرف كل من (عمار) و(علي) وبداخلهما شعوران لا يمتان لبعضهما بصلة، فـ(علي) يشعر بكبر حجم المسؤولية الملقاة فوق عاتقه، وعمار يشعر بالخزي والصدمة، بينما نظر الشوام لسوسن نظرة فهمت معناها جيدًا، فهذا الموقف قد عاد بهم عشرات السنين للخلف، عاد بهم لفترة نساها كل منهما أو تناساها، حتى وإن نساها كل منهما فهي ستظل موجودة، فأحداث الماضي لا يمحوها النسيان، لكن لأول مرة تشعر سوسن أن الشوام يكفر عن ذنبه .
في ذات الوقت كانت أرض الجنوب تقف على قدم واحدة بعد أن أعلن أيوب إلغاء المقاطعة مع أرض الشمال، ثم أكمل قائلًا لأهل الجنوب الواقفين أمامه في الصحراء التي اعتادت أن تشهد اصطيادهم للحيوانات:
- "مفيش قرار أحسن من الحرب لكن دلوقتي في تهديد لحياتكم ولازم ناخذ خطوة، هنشوف كلام الست فخر ولو الحل هو الحرب أنا هكون في أول صف مع المحاربين" .
انقسمت صفوف الشعب ليفسحوا الطريق للمارين بينهم ناظرين لأول من يمر .
صبي أسمر طويل القامة، لم يتجاوز السادسة عشر لكن قامته تفوقت على أقرانه من نفس السن، له ملامح هادئة تدل على طيبة هذا الفتى وهدوءه، شعره مجعد قصير ووجهه صغير يضم ملامحه الدقيقة وخاصة فمه الذي لا يكف عن التبسم .

تقدم الفتى ومن خلفه من يطلق عليه ولي العهد .
اقترب كلاهما من (أيوب) ووقف ولي العهد بجانب الزعيم الذي قال:
- "ولي العهد هيكون نائب عني وعلى رأس الفرقة اللي هنبعتها للست فخر، هتختار مين معاك؟"
نظر ولي العهد لوالده من خلف وشاحه، فقد كان كباقي سكان الجنوب يرتدي العباءة البنية والحزام الأصفر من فوقها بالإضافة إلى وشاح بني قد التف حول رأسه ووجهه ولم يترك إلا عينيه تراقب العالم:
- "هيسافر معايا خالد -خالد هو هذا الفتى الأسمر الواقف بجانبه- وكمان عمتي زينب وبنتها ليلة" .
نظر الجميع لبعضهم في تعجب فمن المعروف أن زينب وابنتها لا يحبان الاشتراك في مثل هذه الأشياء، لكن لم يجرؤ أحد على مناقشة ولي العهد، حتى (أيوب) فقد كانت لكلمته السيادة في أي مجلس، كما كان لسيفه النصر في أي معركة لا يفلت حيوان من رمحه ولا ينجو محارب من سيفه، فولي العهد هو عمود الجنوب الذي إذا اهتز يسقط الجنوب على رؤوس أهله .

أيّا كان من أنت،
أيّا كان ما حدث لك،
أيّا كان ما بداخلك من سوء وخراب،
فلك في هذه الأرض شبيه حتى وإن كان على جهة أخرى منها .
لك شبيه سيجمعك به الله يومًا ما، لكنه الصبر .

حتى وإن كنت في أسوأ ظروفك، حتى وإن كنت لا تستطيع حمل ما بقلبك بمفردك، لا تجعلهم يرون منك غير الصمود الذي اعتادوا أن يروه .
فأنت الذي لا يهزم حتى وإن كنت تنهار .
انطلق ولي العهد بحصانه الأبيض يشق رمال الصحراء، اعتدال صدره واستقامة ظهره تدل على وجود فارس لقي ميلاده وعاش حياته فوق ظهر الجواد، بجانبه يسير خالد فوق ظهر حصانه هو الآخر، رغم فرق السن الواضح بينهما إلا أن خالد يعتبر أقرب الناس لولي العهد وكاتم أسراره، لذلك لم يفهم أحد أبدًا سر تعلق ولي العهد بهذا الصغير لكن في كل حال ولي العهد لا يُسأل عن تصرفاته .
خلفهم بمسافة ليست بالكبير توجد عربة تجرها الخيول ومن حولها بعض الخدم فوق خيولهم، بداخل العربة توجد زينب وابنتها التي تشبهها في كل شيء حتى خلخال القدم وحب الغناء، كذلك ورثت ليلة من والدتها حب الرقص لكنها لم ترقص يومًا ولم تكتشف هذا الحب أبدًا بداخلها .
أشرقت الشمس عليهم لتشهد على مرحلة جديدة في حياة (إيڤانوس)، إذا كان هذا المشهد هو جزء من فيلم لكان من المؤكد وجود موسيقى تصويرية في الخلفية ووجود ليلة دائمًا يعني أن هناك صوت سيدق في السكون .
تركت ليلة العنان لخصلات شعرها الغجرية المجعدة لتتطاير من نافذة العربة وأخذت تغني .
- «قالت تقصد إيه يالي أنت بتغازلنا،
واقف في طريقنا، كنا طلعنا نزلنا،
مواعدين بعضنا من صغرنا وما زلنا،
ما نفوت بعضنا حتى التراب يعزلنا» .
توقفت أرجل الخيول عند خيمة الست فخر، وقبل أن ينبث أحد الجنوبيين بكلمة واحدة، وجدوا (عدنان) غلام الحكيمة يقف أمام الخيمة ويشير لهم

بالدخول، وما أن وضعوا أقدامهم بداخلها حتى رأوا عائلة الشوام ولم يجدوا فخر معهم .

تبادلت كل من سوسن وزينب نظرات تفهم كل منهما معناها جيدًا، نظرات تمنت كل منهما أن لا يفهم معناها غيرهما، لكن في أي مكان توجد به (فخر) لا يوجد أسرار .

فتحت فخر باب خلفي في الخيمة لم يلحظ أحد وجوده من قبل، ودخلت بادئة الحديث دون مقدمات:

- "أنتو أول مرة تشوفوا بعض، سوسن وزينب بس اللي شافوا بعض كتير، وشهدوا على أحداث الأرض أكتر منكوا، لكن مهما كان اللي شافوه هو أقل كتير من اللي حصل، وأقل كتير من اللي هيحصل .

من سنين وأرض إيڤانوس مش مستقرة على حال، ساعات حرب وساعات سلم، لكن من ثلاثين سنة أيوب والشوام قرروا يعملوا مقاطعة واتقسمت الأرض شمال وجنوب والبلد بقيت بلدين، لكن إيڤانوس أرض عادلة، اللي اختار المقاطعة قبل كدا ناس عهدهم قرب يخلص ويبدأ عهد جديد بيكوا، ولأن الأرض عادلة سمحتلكوا تختاروا عهدكوا يبقى عامل إزاي" .

تدخل عمار ليثبت حضوره وقال:

- "ما احنا اختارنا المقاطعة وكنا مرتاحين" .

- "والأرض مش قابلة، مش انتوا اللي اختارتوا الوضع دا عشان تدفعوا ثمنه، قبل ما عهدكوا يبدأ لازم انتوا اللي تختاروا شكله، ولما يبدأ عهد ولادكوا الأرض هتتلعن تاني واللعنة تروح لما يحددوا شكل حكمهم" .

نطق ولي العهد من خلف وشاحه البني:

- "واللعنة اللي موجودة دلوقتي هتنتهي إمتى؟ أهلنا هيموتوا وساعتها حتى مش هيكون في ناس تحارب" .

نظرت فخر للمتحدث بإعجاب وقالت:

- "ورثت الدم الحامي من أبوك يا ابن أيوب، في معاهدة لو قبلتوها اللعنة هتنتهي بشكل مؤقت، لو مقبلتوهاش يبقى ضيعتوا وقتكوا على الفاضي وروحوا

دوروا على حاجة تنقذكوا من الموت والخراب" .
كانت كلماتها بمثابة رمح مصوب في صدر كل من في المجلس، كيف يتحمل كل منهم مسؤولية قرار قد يفتك بشعبه أو يحييهم، حتى في أوقات الحروب فالإنسان بدون أبيه كورقة الشجر التي أفلتت من غصنها تحركها الرياح يمينًا ويسارًا .
لمست زينب كتف ولي العهد وحين نظر لها أومأت برأسها، ففهم أنها تريده أن يطلع على المعاهد فهي تعلم ابن أخيها، وتعلم أن سيفه لا يصدأ، وأنه يريد الحرب ليس حبًا في سفك الدماء، لكن ليطفئ النيران في صدره التي لن تخبو إلا بالانتقام .
نطق ولي العهد على مضد:
- "عاوز أشوف المعاهدة" .
نظرت فخر للشماليين فوجدت سوسن تخبر ابنها بأن يرى المعاهدة، فقالت لها و لزينب بابتسامة:
- "رغم أن عهدكوا قرب ينتهي إلا أنكوا لسه ليكوا كلمة مسموعة، هات الورقة يا عدنان" .
كعادة عدنان يسمع ويلبي الأوامر دون مناقشة، فوجوده مثل مرور النسيم وقت المغرب، مريح وغير مؤذي .
كانت ورقة صفراء تميل في لونها إلى اللون البني مطوية على شكل أسطوانة ويلتف حولها رباطا من القماش الرفيع:
- - لأهل أرض إيڤانوس
أنتم أيتها الأجيال الجديدة قد ولدتم في عهد لم تختاروه، عهدتم الفرقة وقبلكم من عاهد الحرب وقبلهم من عاهد السلام، وها أنتم تختارون، إما سلام دائم، وإما حرب ودمار، ستعيشون في صحراء إيڤانوس معًا، تسعون للزرق وللعثور على الطعام .
تعيشون معًا في سلم أو تتقاتلون حتى يقضي أحدكما على الآخر، فجميع الخيارات متاحة حتى يوم المطر .

حين تمطر السماء يكون الوقت قد مر ووجب اتخاذ القرار بناء على الوضع القائم .
فإذا كانت طائفة منكم سيطرت على الأخرى ستصبح هي المتحكمة في الأرض، أما إذا كنتم قد توصلتم للسلم فأهلاً بوحدة شعب إيڤانوس مرة أخرى .
أمامكم الوقت إما أن تتعايشوا معًا وإما يغلب عليكم طبع المحاربين، لكن هل يعقل أن تقوم الحرب لأسباب مجهولة؟
غير مسموح أن تقوم الحرب بينكم قبل أن تعرفوا بعضكم، فأنتم أبناء الأرض الواحدة التي لا يعلم من فيها بحال الآخر، وغير مسموح أن تقوم الحرب بدون سبب واضح وإلا ستعود اللعنة وستجنون ثمار ما زرعت أيديكم .
أمامكم حتى يوم سقوط المطر .
لم تنتظر الحكيمة فخر أن ينطق أحدهم وقالت:
- "لو قابلين لازم ولي العهد وعمار يمضوا على المعاهدة" .
قاطعتها سوسن قائلة:
- "علي هو زعيم الشمال وعمار النائب بتاعه" .
ضحكت فخر حتى كادت أن تختنق ولم يفهم سبب ضحكاتها إلا القليل، ثم أمسكت بيد ولي العهد ويد علي، ثم اقترب عدنان منها وأعطاها سكين صغير جرحت به يد كل منهما من الداخل، وجعلت الدماء التي سالت من الجرحين تتقطر بداخل إناء موقد بداخله نيران، وما هي إلا لحظات حتى خمدت النيران تاركة رمادًا أسود متبقي من الدماء المحترقة، فغمست فخر إبهامها في هذا الرماد ورسمت به دائرة في ورقة المعاهدة، فهذه الدائرة السوداء قد قلبت الحال شمالًا وجنوبًا .
دوى صوت الرعد وانقسمت السماء من أثر البرق الذي شق زرقتها، ارتفع منسوب النهر، اخضرت أرض الشمال بزرعها وركض الحيوان في أرض الجنوب، كأن الأرض ما ذبلت والأغنام ما مرضت وأن اللعنة لم تحل .
عاد أهل الأرضين للأمان، لكنه أمن مؤقت لا يعلم أحدهم إلى متى سيستمر ومتى سينتهي .

اللون الأصفر واللون الأزرق كانا سيدا الموقف، الرمال الصفراء ممتدة على مد البصر فلا تستطيع رؤية آخرها أو ما بعدها، أما اللون الأزرق فقد احتل السماء التي امتدت حتى أن العين تكاد تتخيل أن الرمال الصفراء تلتصق مع السماء الزرقاء في نقطة ما بعيدة عن الأعين .

من يرى هذا المكان لن يتخيل أنه قد شهد حياة بشرية فيما قبل، لن يصدق أن هذا المكان شهد على تحديد شكل الحياة في إيڤانوس لمئات السنوات .

ففي وقت الحرب كان هذا المكان ساحة القتال التي ارتوت بدماء أهلها، أما في وقت السلم قد شهد هذا المكان على وحدة شعب إيڤانوس، شعب أسمر وأبيض يعمل في الزراعة والرعي، ينام ليله مطمئنًا على أنه لن يستيقظ على صوت قرع طبول الحرب .

وفي ذات المكان منذ ثلاثة عقود وقع أيوب والشوام عهدًا قسم الأرض لجزئين، أما هذا المكان لم يخضع للتقسيم كأن الأرض التي شهدت على تغير أحوال أهلها أبت أن تخضع لتقسيمهم .

تلك هي (صحراء إيڤانوس) التي ظلت محتفظة باسمها ولم تنضم لأي الفريقين بل بقيت ثابتة على حالها .

فالأرض ثابتة وإنما الأشخاص يتغيرون .

الزمان لا يقف وإنما الأحداث تتشابه .

وقف عشرة أشخاص في صحراء إيڤانوس تحت حرارة الشمس، أربعة شماليين وأربعة جنوبيين والحكيمة فخر ومعها غلامها الصامت .

نظرت سوسن لابنيها وعلى وجهها علامات الحسرة، كيف أن ولديها وكل أبناء جيلهم لم يشهدوا هذا المكان، ولا يعلمون حكايات الأرض، كانت طوال حياتها على يقين أن الحروب والعداءات التي يقوم بها الناس لا يدفع غرامتها إلا أبناءهم، وزاد يقينها اليوم حين علمت أن أبناءها لم يروا الكثير، لكن على هذه الأرض ما سيرونه سيكون أكثر .

- "هتعيشوا هنا" .

كالعادة كانت فخر تلقي الأوامر .

- "معلش يا ست فخر يعني احنا بني أدمين برضه هنعيش في الصحراء إزاي؟"
كانت زينب تتحدث ويهتز حاجبها بطريقة مميزة، كل حرف أبجدي له حركة حاجب تميزه عن السبعة والعشرين الآخرين .
- "عاوزة إيه يا زينب؟"
- "مكان نبات فيه، أكل، ماية، طبلة" .
قالت زينب كلمتها الأخيرة وضحكت ضحكة أسمعت أهل الجنوب في أرضهم وأدركوا مصدرها، فضحكة زينب لا يتوه عنها من سمعها سابقًا .
أكملت فخر حديثها قائلة:
- "انتوا بتكونوا حياة جديدة لازم انتوا اللي تعملوا كل حاجة فيها، بحيرة إيڤانوس قدامكوا، ازرعوا واصطادوا" .
كانت ليلة تقف بين والدتها وولي العهد صامتة، لكن حلقها مغلق على سؤال منذ أن كانوا في الخيمة فنطقت:
- "إزاي حضرتك بتعرفي كل حاجة ومكونتيش عارفة مين زعيم أرض الشمال الجديد؟"
كان سؤالها منبهًا لكل الحاضرين الذين شككوا في صدق فخر قبل ذلك، لكن حكيمة إيڤانوس لن تغلبها فتاة أخر عهدها بالحياة هو الغناء في دار زينب:
- "أنا أه بعرف أحوال الأرض بس أنا مش براقبكوا، من يوم ما اتقسمتوا وأنا معرفش تفاصيل حياة كل واحد فيكوا، أنا عرفت إنك بنت زينب من الشبه، مكنتش مصدقة أن زينب ممكن ييجي منها اتنين، المهم . . . ." .
وجهت فخر أنظارها إلى ولي العهد وعلي وأعطت كل منهما زجاجة بها أوراق ملفوفة وقالت:
- "كل ما تحتاجوا مساعدة افتحوا واحدة من الورق دا، ولما تحتاجوني هتلاقوني موجودة" .
بدون مقدمات رحلت فخر آخذة في يدها غلامها الصغير وما أن اختفت حتى قال علي:
- "بمزاجنا أو غصب عننا القدر حكم علينا نكون هنا مع بعض، وأعتقد أن احنا

محتاجين وقت عشان نقرر هنعمل إيه" .
ها هي بوادر الزعيم الحكيم قد ظهرت، ها هو يبدأ حكمه في أرض لا يعرفها مع بشر لم يعاشرهم قط .
فمن يقول أن علي ذا الخمسة وعشرين عامًا يصبح زعيمًا للشمال ومسؤولًا عن تحديد مصير أهلها، لم يعلم يومًا لماذا اختاره الشوام ليكون الزعيم دون عمار، فعمار هو الابن البكري فضلًا عن أنه يعمل مع الشوام في إدارة الشمال منذ أن وطأت قدماه أرض الدنيا، أما علي فرغم أنه لا يصغر عمار إلا بخمسة سنوات إلا أنه حديث العهد بمثل هذه الأعمال .
كان علي شابًا وسيمًا، طويل القامة أبيض البشرة رفيع البنية، له عينان عسليتان، وشعر بني خصلاته ناعمة تتطاير في الهواء وهو يجري بحصانه في أرض الشمال، ربما كان هذا سبب تعرضه للعقاب من قبل والده، ربما هذه الزعامة كانت استكمال للعقاب هو لا يعلم .
لكن ما يعلمه الآن هو الشعور بتأنيب الضمير من ناحية أخيه، فعمار كان أحق منه بالزعامة، على الأقل هو سوف يسير على نفس نهج الشوام الذي لا يؤمن أبدًا بالتفاهم، يشعر بالأسى لأنه أخذ شيئًا كان شقيقه به أولى .
على الناحية الأخرى كان عمار يشعر بالظلم .
هل جربت يومًا أن تعيش حياتك بأكملها تسعى لهدف واحد دون سواه؟ هل جربت أن تقترب من هدفك ولا يفرق بينكم قيد أنملة ثم يتحول إلى سراب لسبب مجهول؟ لكنه لن يستسلم، فعمار بن الشوام قوته لن تنتهي أبدًا .
والقوة هي أن تستكمل السير بطريقك رغم أن الجميع يخبرك بأن آخره سد لا يهدم، لكن رغم كل شيء يظل بداخلك إيمان أنك ذات يوم ستصل لما بدأت الطريق سعيًا في الوصول إليه .
فبحق كل يوم قضيته سعيًا خلف آمالك وبحق كل ليلة خلدت فيها لنومك مرهق من المحاربة للوصول .
بحق هذا الأمل الذي لا تعلم أين مصدره وهذا اليقين في قلبك وذاك الإيمان بداخلك وبحق كل خطوة سرتها في طريق بدأته،

لا تعود ولا تستسلم .
فما هي القوة إلا المجازفة بالسير في طريق مظلم ويكون مصباحك هو يقين يملأ طيات قلبك .
أغمض عينيك واستمع لصوت قلبك وهو يخبرك أنك يومًا ما ستصل .
- "عمار" .
قالها علي وهو يقف خلف شقيقه أثناء بحثه عن أخشاب لبناء بيت لهم .
- "أيوة" .
- "أنت زعلان مني؟"
- "لأ، هزعل منك ليه؟"
- "حاسس إنك بتتجنبني من يوم ما كنا في الشمال وأبوك اختارني زعيم" .
- "عيب إنك تفكر كدا أنت أخويا" .
- "بس أنت الكبير، أنت كنت أولى مني، وأنت عندك خبرة أكتر مني" .
- "أنت اللي قولت أهو، أنا بقالي سنين شغال مع أبوك وأخدت خبرة قد عمرك كله، أنا أه أكبر منك خمس سنين بس، لكن أنا كنت بحضر مع أبوك الاجتماعات وأنت لسه بتتعلم تمشي" .
شعر علي بتأنيب الضمير أكثر فأكمل:
- "عشان كدا أنت كنت محتاج المنصب دا أكتر مني" .
- "اللي بيحتاج المنصب بيبقى محتاج خبرة، وأنت اللي محتاج دا دلوقتي" .
- "صح أكيد الشوام كان عاوز مصلحة إيڤانوس" .
تغير وجه عمار وقال بلهجة حازمة:
- "الشمال" .
- "إيه؟"
- "مصلحة الشمال، اسمها مصلحة الشمال يا علي، وأنا معاك وفي ضهرك لحد ما نحقق مصلحة الشمال ونرجع المتحكمين في الأرض كلها" .
تهللت أسارير علي وقال بنبرة الفرحة التي تغلب على أحباله الصوتية:
- "يعني أنت هتساعدني؟"

- "عيب يا علي أنت أخويا" .
لم يتمالك علي نفسه من الفرحة فاحتضن أخاه، بعد أن شعر أن حملًا ثقيلًا قد زال من فوق صدره، فبعيدًا عن لقب الزعيم وهذه الاعتبارات علي قد ورث من والدته بياض وجهها بالإضافة إلى بياض قلبها، لذلك قد جنى محبة كل أهل الشمال كما أحبوا والدته .
انصرف علي في الصحراب يبحث عن أدوات لبناء بيوت كما فعل كل من قدر لهم الزمان أن يسكنوا معه صحراء إيڤانوس .
ذهب وفي نيته آلاف النوايا التي لا يعلم هل سيستطيع تحقيقها أم لا، لكنه سيبذل قصارى جهده ليبني مملكة جديدة على جذور جديدة غير جذور الماضي .
كان الماضي لا يعجبه .
والطريقة الوحيدة للهروب من الماضي هو بناء مستقبل مختلف عنه .

ما هي القوة إلا المجازفة بالسير في طريق مظلم ويكون مصباحك هو يقين يملأ طيات قلبك .

أغمض عينيك واستمع لصوت قلبك وهو يخبرك أنك يومًا ما ستصل .

مر اليوم الأول بقدر لا بأس به من الأفكار المتضاربة والمواقف المتغيرة والأنفس القلقة، كل من في هذه الصحراء مضطرب خائف من القادم لا يعلم ما سيفعله بهم القدر لاحقًا .

من كان يصدق أن في أقل من أسبوع واحد يحدث كل هذا، من يصدق أن تجف أرض الشمال وتخلو أرض الجنوب من الغنم ثم يعود كل شيء كما كان دون حرب أو قتال .

من يصدق أن مُلك الشوام قد انتهى وبدأ الآن مُلك ابنه، الذي أحبه أهل الشمال جميعهم لكن لم يتوقع أحد أن نجم علي سوف يعلو على نجم عمار يومًا ما .

من يصدق أن ليلة وزينب تركتا دارهما ومغناهما وزبائن دارهما، الذين لا يقضون ليلتهم إلا على أصوات ليلة .

من يصدق أن الآن هناك مكان يجمع بين القطبين، مكان يجمع اللون الأسود بالأبيض اللذان لم يسمح لهما أحد أن يجتمعا إلا في كوب الشاي بلبن .

والأغرب من كل هذا من يصدق أن سمر ذهبت مع أسرة الشوام لتحديد مصير إيڤانوس، وهل تقدر سمر على اختيار شيء غير لون طلاء أظافرها؟

غابت شمس اليوم الأول، على كلا الفريقين وكما يقول الناس من له عادة لن يغيرها، حتى في الصحراء الفارغة نام الجنوبيون في اتجاه الجنوب وعلى النقيض نام أبناء الشوام .

خيم الليل عليهم بعد أن أنهكهم التعب طوال اليوم في البحث عن أدوات لبناء منازل لهم، وبعد بحث طويل وجدت سوسن حبال، ووجد كل من خالد وولي العهد الأخشاب، ووجد عمار حصائر كانت موجودة بداخل كهف مهجور، لكن لشدة تعبهم الجسدي واضطرابهم النفسي لم يستطيعوا بناء شيء في هذه الليلة، فجلس كل فريق منهم في اتجاه أرضه ونام جميعهم لكن لم تغلق عين أحدهم

ولم يرتح لأحدهم جفن .
كان ولي العهد يفكر في كلمات أيوب، التي ملأ بها آذانه قبل أن يأتي إلى هنا، إحقاقًا للحق كان ولي العهد أكثرهم ألمًا، كان يحمل عبئًا لو حمله جبل لتصدع وسقط فوق الرمال . كان تحت تأثير صدمة معرفة السر الذي أخفاه أيوب عنه أربعة عشر عام .
كيف بعد أن تجاوز عمره الواحد والعشرين، يكتشف أنه لم يكن يعلم إلا نصف الحقيقة فقط، كان يعيش كأنه مغمض العينين لم يفتحهما بعد، وحين فتحهما رأى الحقيقة التي أشعلت في صدره نار الانتقام، نار لن تنطفئ إلا حين يأخذ حقه، الذي سلب أمام عينه منذ أربعة عشر عام .
تنهد ونظر لخالد، هذا الفتى الأسمر النائم بجانبه، من يصدق أن خالد هو من المفترض أن يكون خادم منزل أيوب، كما كانت أمه خادمة المنزل قديمًا، لكن ولي العهد لم يسمح بذلك، بل رفع من قدره وقربه منه، وجعله أقرب أهل الجنوب له، وكاتم أسراره فأصبح من الطبيعي أن تراه نائم بغرفة ولي العهد أو في دار زينب .
فحيث يوجد ولي العهد تجد غلامه .
تنبهت زينب لابن شقيقها الحائر، فاعتدلت في جلستها واقتربت منه، وقبل أن تنطق بكلمة نظر ولي العهد شمالًا وقال:
- "خلي بالك عشان صاحيين" .
نظرت زينب صوب شركائهم في الأرض وفهمت ما يرمي إليه ولي الجنوب وقالت:
- "مالك متغير ليه؟"
- "طبيعي يعني دا احنا في أرض مهجورة مع ناس طول عمرهم أعدائنا" .
- "بقولك إيه يا ابن نجمة اتعدل دا أنا اللي مربياك" .
ضحك ضحكة ساخرة من عمته التي لا يخفى عنها شيء فأكملت قائلة:
- "مش أنت اللي تتهز من المكان دا، ولا حتى من الحرب، كل دا أنت متربي فيه، لكن في حاجة مختلفة" .
تنهد وقال ما ضاق به صدره:

- "قبل ما نتحرك من الجنوب أيوب فهمني كل حاجة" .
اصفر وجهها وهربت الدماء من عروقها، كأن جسدها لم تسر فيه الدماء يومًا .
- "قالك إيه؟"
- "قال لي الحقيقة اللي كنتوا مخبيينها عني أربعتاشر سنة،
عرفني مين اللي قتلها قدامي وهرب" .
- "يا لهوي أبوك عمل كدا ليه؟"
- "عشان دا اللي كان لازم يحصل من زمان، وأنا شوفتها اتقتلت قدامي هي والخدامة بتاعتها، عشت عمري كله بسألكوا مين اللي قتلها ومحدش قال لي" .
- "وليه دلوقتي؟ هتستفيد إيه؟"
- "هاخد حقها، وحق اللي دمها سال على الأرض قدامي، هخليهم يندموا على العذاب اللي شفته في حياتي" .
- "ناوي على إيه طيب؟"
- "هستنى أقرب فرصة ومش هسيب أثر لواحد فيهم في إيڤانوس، حتى لو عاملين معاهدة، الدم اللي بيني وبين أهل الشمال مش هيزول غير بالدم، ولا ١٠٠ معاهدة هتعوضني عن اللي راح" .
- "بص يا ابني اللي أنت خسرته هيبقى أقل بكتير أوي من اللي أنا هخسره لو أنت رحت مني، أنا مستحملة أبوك وقرفه عشانك، لولا وجودك كنت أخدت البت الغلبانة دي ومشينا من الأرض الملعونة دي وسيبناها تولع باللي فيها" .
قالتها مشيرة لـ (ليلة) النائمة بجانبها بفستانها القصير كالعادة وأكملت:
- "اللي أنت ناوي عليه دا هيضيعك مني" .
- "أعمل إيه؟ أسيب حقي وأنام وأنا ليا دم سال غدر؟ أعيش راسي مكسورة ومليش حق يا عمتي؟"
- "بعد الشر عليك بس لو عرضوا يدفعوا دية قتل اقبلها بدل ما تأذي نفسك" .
- "قالوا لنا زمان أن التوبة مقبولة إلا في وقت الحرب" .
لم تجد زينب ما تقوله فضمت ابن أخيها لصدرها، وقالت بصوت لم يسمعه سواها:

- "ليه كدا يا أيوب حرام عليك" .
من قال أن المرأة تكون أمًا لمن خرج من بطنها فقط، بل أن المرأة تكون أمًا لكل من تخشى فقدانه، المرأة أم لكل من يشعر في حضنها بالأمان .
فلا تتعجب حين ترى أمًا لها أطفال لم تلدهم .

إنك الآن تحيا اليوم الذي ظننت بالأمس أنك لن تعيشه أبدًا،
وغدًا سترى أحداثًا تظن اليوم أنك لن تشهدها ما حييت،
فلا تأمن يومًا لتقلب الأيام .

خرجت الشمس من مخبئها، وبددت ستائر الليل السوداء التي خيمت على صحراء إيڤانوس . أشرقت الشمس، ولأول مرة منذ سنوات جمعت تحت أشعتها الحمراء شمال وجنوب الأرض في مكان واحد .

تحرك كل من في الأرض من مكانه كمحاولة لتعمير هذه الأرض، التي من الواضح أنهم سيعيشون بها فترة لا بأس بها، رفعت ليلة شعرها المجعد فوق رأسها، وخلعت عباءتها البنية الرسمية التي لم تحبها يومًا، لا تحب كثرة الأقمشة بل تسير بأسلوب خير الملابس ما قل ودل، ارتدت شيئًا أخضر، لا أعلم اسمه لكنه يشبه الفستان القصير، له حمالات عريضة عند الأكتاف ومن الأسفل يشبه البنطال لكنه يقف في نصف فخذها الأسمر .

بدأ كل فريق منهم يعمل لبناء له، بعد أن جمع الجنوبيون الأخشاب وجمع الشماليون الحبال والحصائر، بدأ ولي العهد وخالد في رص الألواح الخشبية بجانب بعضها لبناء البيت، وطلب خالد من ليلة أن تذهب لجلب الحبال التي ستجمع ألواح الخشب بجانب بعضها، فذهبت ليلة وقبل أن تلمس يدها الحبل وجدت من يمسك بذراعها بقوة .

- "أنت بتعملي إيه؟"

فزعت ليلة لهذه اليد التي كادت أن تكسر ذراعها نصفين وقالت:

- "باخد حبل في إيه سيبني!"

ترك عمار ذراعها بعنف وقال بصوته الغليظ:

- "مين سمح لك تمدي إيدك على حاجة مش بتاعتك؟"
- "مش بتاعتي ومش بتاعتك دا كان موجود في الصحراء" .
- "بس احنا اللي لقيناه يبقى مش من حقك تستخدميه" .
- "ونبني البيت ازاي؟"
- "دي مشكلتك انتي يا شاطرة، تحليها لنفسك، أو خلي الزعيم بتاعكوا اللي

مخبي وشه دا يحلها لك" .
من المؤكد أن عمار قد خُدع بمظهر ليلة الطفولي المرح، وغاب عن ذهنه أنها جنوبية، وحدة الطبع في الجنوب وراثة، بل غاب عن باله أيضًا أنها تربية زينب, وبذكر زينب فإن حديث عمار قد استفز طباع زينب الموجودة بداخل ليلة، التي تربت بين الراقصات المعتزلات .
نطقت ليلة بحركة حاجب والدتها وقالت بنبرة التحدي:
- "وأنت بقى جبت الخشب من بيتكوا وأنت جاي، ولا رحت اشتريته من الشمال" .
- "يعني إيه؟"
- "يعني الخشب دا ولي العهد بتاعنا، اللي مش عاجبك، هو اللي لقاه فلو سمحت بقى تهد البيت اللي بنيته، وتدينا الخشب بتاعنا، ولو على الحبال احنا معانا هدوم كتير هقصها واعملها حبال" .
توقفت الكلمات في حلق عمار، ولم يخرج حرف واحد عن شفتيه، فوضعت ليلة يدها في خصرها ودقت بكعبها في الأرض، فأصدر خلخالها صوت رنين، وقالت بضحكة شماتة وحاجب مرفوع:
- "ولو مفيش هدوم هربط الخشب بخلخال رجلي" .
- "بس بلاش لعب عيال" .
تنبهت ليلة ومثلها عمار لصوت سوسن الواقفة خلفهما:
- "في إيه؟ إيه لعب العيال بتاعكوا دا، انتي عاوزة إيه؟"
وجهت سوسن حديثها لـ (ليلة) فجاء الرد من السمراء:
- "كنت عاوزة حبال عشان نكمل بيها البيت بتاعنا، وهو مش راضي" .
- "خدي اللي أنت عاوزاه وروحي كملي شغلك" .
اسود وجه عمار أمام ابتسامة ليلة المنتصرة .
- "طلاما الظروف قررت إننا هنقسم الصحراء دي مع بعض، يبقى نقسم كل حاجة فيها" .
- "شكرًا يا . . . ." .

- "سوسن، اسمي الست سوسن" .
رحلت ليلة بعد أن أخذت ما أرادت من الحبال، وأكملت سوسن لعمار:
- "أهلنا في الشمال كانوا بيموتوا من الجوع، وأنت هنا بتتخانق على حبل؟ يا أخي عيب عليك" .
لم ينطق عمار لكنه رحل متمتمًا بصوت خفيض (ما هي تربية رقاصة) .
لم يحزن عمار أن الجنوبية أخذت الحبل، بل أحزنه انتصارها عليه، وأنها أوقفت الكلمات في حلقه .
مهما كانت قوتك، حتى وإن كنت أقوى رجال الأرض، فلا توجد قوة قادرة على أن تنتصر على كيد امرأة، فالمرأة يا صديقي منحها الله لسانًا قادرًا على كل شيء، قد تنتصر عليك في معركة بلسانها، وقد يسقط جبروتك برنة من خلخال قدمها .
وعلى ذكر النساء، كانت هناك امرأة أخرى بين الشماليين غير سوسن، إنها (سمر)، فتاة في مقتبل العشرينات من عمرها، لها بشرة بيضاء كأنها لم تر الشمس قط، عيناها ضيقتان يغلقان على حدقتين خضراوتين، لها شعر أصفر ناعم يقف عند آخر رقبتها، لم يتخيل أحد من عائلة الشوام ولا سمر نفسها، أن تكون يومًا في هذه الأرض بين من يحددون مصير إيڤانوس، لكنها سخرية القدر يا صديقي .
انتهى كل فريق من إعداد بيته، بنى كل منهما بيتًا خشبيًا متوسط الحجم بداخله حصائر لينام عليها أهل البيت، بالإضافة إلى وجود أقمشة متدلية من سقف البيت كستائر تفصل بين مضاجع النائمين، بعد الانتهاء من إعداد المنازل أرسلت سوسن البيضاء سمر لتملأ إناءً بالماء من البحيرة المقابلة للبيوت، فذهبت سمر على مضد إلى هناك بينما وقف علي ومعه عمار وسوسن يشاهدان البحيرة من مسافة ليست بالبعيدة .
وصلت سمر للبحيرة، فوجدت ولي العهد وزينب يقفان على شاطئ البحيرة، بينما يقف خالد في مياه البحيرة رافعًا بنطاله حتى فخذيه، يملأ الأواني بالماء ويعطيها لولي العهد، فاقتربت سمر من زينب ووضعت الإناء على الأرض،

وقالت لها:
- "قولي للخدام بتاعكوا يملالي ماية" .
تنبه ولي العهد وقبل أن تنطق زينب نطق هو وقال:
- "دا مش خدام، لما تحبي تكلمي حد كلميه باسمه" .
على الناحية الأخرى، اقترب علي ومعه والدته وعمار ليروا ما يحدث وليسمعوا ماذا يقال .
- "مش مهم اسمه إيه، قوله يملالي ماية وخلاص" .
- "احنا معندناش خدامين ومش مسموح لك تطلبي حاجة من حد مننا" .
- "بس أنا عاوزة ماية دلوقتي" .
- "ادخلي البحيرة واعملي زي ما بنعمل" .
- "البحيرة شمس ولو دخلت هسمر" .
جاءت ضحكة زينب عالية وقالت بسخرية:
- "وانتي إيه اللي جابك يا حلوة؟ كنتي خليكي في أرضكوا مستخبية في البيت، وسيبي الكبار يتصرفوا" .
كانت عائلة الشوام تسمع هذا الحديث وتقف على مقربة منهم، حيث ازداد غيظ سمر لسخرية زينب منها:
- "أنا بتكلم معاه هو مش انتي، مبقاش إلا الرقاصات كمان عشان أتكلم معاهم" .
ما كادت سمر أن تكمل جملتها حتى أمسك ولي العهد بذراعها بقوة وقال لها:
- "اعدلي لسانك يا بنت انتي، ولو محدش رباكي في الشمال، أنا ممكن أعلمك إزاي تتكلمي مع اللي أكبر منك، لأ أنا كمان ممكن أقتلك هنا ومحدش هيحس بيكي" .
لم تقو سمر على أن تنطق، لكنها أطلقت صرخة اقترب على أثرها الشماليون، وجاء معهم سؤال علي:
- "أنت ماسكها كدا ليه؟"
تركها ولي العهد ووجه حديثه لعلي بغضب قائلًا:

- "بنت أرضك متعرفش الأصول وغلطت، ولو غلطتها اتكررت تاني عددكوا هينقص واحد" .
- "من غير ألغاز عاوز أفهم، في إيه؟"
- "اسألها وهي هتقولك، أنا محدش يغلط في أهلي طول ما هما في حمايتي" .
نظر علي لسمر وأدرك أن ها هي المشكلات قد بدأت من تحت رأس هذه الشقراء المدللة، ها هي وجهة نظره تتأكد كل يوم عن سابقه، ووالده ما زال متمسكًا برأيه، لم يكن من المناسب أن يناقش علي والده في هذا الأمر يوم اختاره زعيمًا، لم تُتح له الفرصة ليبدي اعتراضه، أو بطريقة أخرى لم يجد سببًا واضحًا ليبدي (علي) اعتراضه .
هل من بين كل نساء الشمال كانت هذه عقابه؟ هل من بين كل نساء الشمال اختار له الشوام هذه الـ (سمر) لتصبح خطيبته؟ بالنسبة لكل أبناء الشمال سمر هي حلم يسعون إليه، أما بالنسبة لعلي كانت سمر ذنبًا يكفره كل يوم بوجودها معه .
قبل أن ينطق علي بكلمة استكمل ولي العهد قائلًا بضحكة ساخرة:
- "ولاد أرضك اللي جايين معاك بيخافوا من الشمس يا علي، أرضكوا مفيهاش رجالة تحارب" .
لم يتحمل عمار أكثر من ذلك، وفاض كيله فتقدم بعد أن قرر أن يرضي فضوله الذي أرهقه:
- "ما تشيل حجاب الحريم دا، وخلينا نتكلم زي الرجالة" .
تقدم عمار وخلع عن ولي العهد وشاحه، ليرى ما خفي وراء هذا الحجاب، إرضاءً لفضوله وإنزالًا من قدر ولي العهد، لكن ما رآه قد فاق توقعاته وتوقعات الآخرين .
بل سيفوق توقعك أنت .

لا تحسب أنك تعلم حقيقة من حولك،
فكل ما تعلمه عن الآخرين هو فقط ما سمح لك القدر أن تعلمه .
قبل أن تبحث في حقائق من حولك، قف دقيقة واسأل ذاتك أولًا:
هل تعلم من أنت؟

تقدم عمار وجذب وشاح ولي العهد عن وجهه فسقط الوشاح البني أرضًا، سقط ما كان يحجبه عن العالم المحيط به .

تهاوى الوشاح نحو الأرض، وسقطت من خلفه خصلات شعر سوداء تتهاوى نحو مصدر الجاذبية، خصلات طويلة أخذت في الالتفاف حتى توقفت في آخر ظهر من كان مخفي خلف الوشاح .

نثر الهواء هذه الخصلات الناعمة الثقيلة، فغطت على بعض ملامح هذا الوجه، الذي طالما راقب الناس من خلف حجاب، بشرة سمراء لامعة وفم وردي صغير تم رسمه بعناية، وأنف دقيقة مستقيمة، عينان واسعتان سودتان مليئتان بالتحدي والقوة .

كان هذا ولي العهد، هذا ولي العهد الذي تشق له صفوف أرض الجنوب، وتُسمع أوامره دون نقاش، هذا هو ولي العهد الذي يدير الجنوب من خلف حجابه، فلما سقط الوشاح كشف عن جمال مستور .

وقف الجميع مشدوهين صامتين، لا يعلمون أهذا هول الصدمة أم هو الصمت في حرم الجمال، حتى زينب وخالد صمتا خوفًا من ردة الفعل التي ستلي هذا الصمت، هذا الصمت الذي سبق العاصفة .

تقدم ولي العهد والشر يتطاير من عينيه أو من عينيها، لا أعلم وهذا لا يهم الآن:

- "مين سمح لك تعمل كدا؟"

تحشرجت الكلمات في حلق عمار فقال بتردد:

- "مكنتش أعرف أن . . . ." .

- "مش من حقك تعرف، أنت مين عشان تسمح لنفسك تعمل كدا؟"

ذات الدم الحامي وذات العناد والكبرياء، كل شيء لم يتغير، كل شيء كما هو، حتى بعد سقوط الوشاح، فبين رجل وامرأة ولي العهد هو ولي العهد .

- "بنت؟ يعني أيوب ضحك علينا وبعت لنا بنت بدل ولي العهد؟"
تخلص ولي العهد من غضبه واستعاد استقامة ظهره ونبرته الحازمة المعتادة، لكن هذه المرة تطايرت الخصلات الناعمة فوق ظهره، ونطق مُيجبًا على سؤال (علي):
- "لأن أنا ولي العهد، أيوب مش مخلف ولاد ومعندوش غيري، أنا ولي العهد اللي أرض الجنوب بتتهز تحت رجله" .
استعاد عمار ترتيب الحروف على لسانه وقال:
- "وليه بتتعاملي على إنك راجل؟"
- "مش ملاحظ إنك بتدخل في حياتي أكتر من اللازم؟"
وبين هذا الجدال لم تجد الشقراء فرصة أفضل من هذه لتأخذ حقها وتسترد كرامتها التي أهينت فرفعت سمر عنقها وقالت:
- "كنت لسه بتقولي أن احنا معندناش رجالة تحارب، لو احنا معندناش رجالة تحارب ف انتوا معندكوش رجالة تحكم الأرض" .
إذا كانت الصدفة قد اختارت أن تكشف سر ولي العهد وتطلق خصلات شعره، فولي العهد نفسه قد اختار الآن أن يطلق لسانه مستخدمًا مهارات النساء ويرد على سمر:
- "في فرق كبير أوي، أنا أحسن صياد في الجنوب، مدخلتش حرب وخسرتها، كلمتي مسموعة وقراري بيتنفذ، اللي بعمله في رجالة متسمعيش عنه، أنا مش بنت ومش راجل، أنا ولي العهد، ومش مسموح لحد فيكوا يتعامل معايا غير على أني ولي العهد" .
خرجت سوسن عن صمتها وقالت بصوتها الهادئ:
- "كدا المعاهدة ملغية، الحكيمة فخر قالت مينفعش ناخذ قرار إلا واحنا نعرف بعض واحنا لسه مكتشفين أن معانا حد غريب" .
لو أن جبال الأرض كلها تجمعت في جبل واحد في هذه الصحراء، لحمله ولي العهد وأسقطه فوق رأس عمار، كيف لهذا الأبيض أن يقوم بحركة تطفلية قد تؤدي لإلغاء المعاهدة وعودة اللعنة، كيف له أن يكشف السر الذي عاش ولي

العهد حياته ليحافظ على كتمانه!
نطق عمار ليزيد الطين بلة:
- "أيوب خدعنا وفهمنا أن عنده ولد، دا سبب كافي لقيام الحرب دلوقتي بينا وبين اللي بتحكمهم ست" .
- "واحنا موافقين على الحرب" .
حرب! أي حرب التي تقوم بعد يوم واحد من المعاهدة؟ أي لعنة التي ستعود بعد يوم واحد من عودة الأرض لحالها؟ أي قدر هذا الذي جمعهم ليحاربوا بعضهم ويموت الكثير منهم وحيدًا في أرض لا يعرفها! هل تركوا ديارهم وأهلهم لتسقي دمائهم صحراء إيڤانوس لتطرح نبات الخراب؟
- "لأ" .
نطقها علي بنبرة حازمة غير قابلة للنقاش .
- "مش احنا اللي عملنا المعاهدة عشان احنا اللي نلغيها، لو المعاهدة أتلغت اللعنة هترجع وأهلنا في الشمال هيموتوا بعد أيام، والثورة هتقوم في أرض الجنوب ضدك وضد أيوب لما الناس تعرف أن ولي العهد اللي كلمته بتمشي عليهم من زمان بنت وأن أيوب خدعهم،
الحكيمة فخر هتعرف كل حاجة وأكيد هتيجي، ولو ماجتش أنا هروح لها، وهي اللي هتحكم بينا، دلوقتي كل واحد على بيته ومش عاوز أي احتكاك بينا لحد الصبح" .
لم ينطق ولي العهد بكلمة، ولم يكن يقدر على الحديث فلبى رغبة (علي) وانصرف، ليس طاعة لعلي لكن احترامًا للألم الجسيم بداخله، فقد كانت النيران مشتعلة بداخله .
عن أي حرب كانوا يتحدثون وأي خراب يخشون، فالحرب الحقيقية كانت قائمة بداخله، الخراب بحق هو ذاك الذي في نفسه .
حتى أنا لا أعلم هل أقول نفسه أم نفسها، ألم أقل لك أن كل ما تعلمه عن الآخرين هو فقط ما سمح لك القدر أن تعلمه؟ فكل من حولك هم أشباح بالنسبة لك، لا تعلم ما بداخلهم وكلما اقتربت أصبحت الرؤية أوضح .

لكن في هذه الحياة لا توجد رؤية كاملة .
على الاتجاه الآخر كانت سوسن وسمر وعمار متعجبين من تصرف علي، فهذه كانت فرصة عظيمة لقيام الحرب وأضاعها هو، لكن على كل حال ورغم سخافة الموقف كانت سوسن سعيدة بصغيرها الذي تشرب مبادئها وصارت بداخله حتى النخاع، فكل يوم يثبت لها ابنها أن عقله راجح وقراره حكيم وقوله فصل، فالأم تظل أم في كل الأحوال، وفي كل الأزمنة، تسعد إذا خطا صغيرها خطوته الأولى على الأرض، وتسعد حين يصبح زعيمًا يقرر مصائر شعوب .
أما هو لم يختلف حاله عنهم أو كان أسوأ، تعجب من قراره ومن تصرفه، بل فكر في الأمر بشكل أوسع وقارن بين شخصيته اليوم وشخصيته السابقة، نفسه الحالية ونفسه القديمة التي تخلص منها، لو أنه وضع في هذا الموقف منذ سنتين، لكانت ردة فعله طائشة متهورة وربما كانت الآن الأرض تسقى بدماء الأبيض والأسمر على حدٍ سواء، أخذ يفكر في كل هذا ويحدث نفسه .
أنا اليوم أصبحت الشخص الذي حلمت بالوصول إليه سابقًا، أتذكر أنني كنت شخصًا لو رأيته اليوم لن أقبل أن أسلم عليه حتى لا أدنس يدي، كان بداخلي كل ما أكرهه اليوم، وأنا اليوم بداخلي كل ما كان بعيدًا علي سابقًا، أصبحت أكثر قدرة على التغلب على الشيطان الصغير الذي بداخلي، أصبحت لا أصغي إليه كأنني لا أسمع له صوتًا ولا أرى له أثر .
في لحظة ما لا أتذكرها، قررت أنني لن أستمع له بعد الآن، قررت أنني سأتحرر من قيود الاعتقال التي وضعت نفسي بداخلها لسنوات، نعم فقد كنت أنا المعتقل والسجان، قد كنت أنا من يغلق على يدي القضبان، ومن يقضي ليله يبكي شوقًا للحرية، لكن اليوم ها قد تغير كل شيء، وأفتخر بذلك، لكن سؤالي الوحيد لماذا شيطاني الصغير ما زال بداخلي رغم أنني لا أنصت إليه أبدًا، لماذا لم أتخلص منه؟ لا أعلم لكن أكثر ما يخيفني هو عودة هذا الملعون ليسيطر علي .
تنبه علي من شروده فوق الحصيرة في البيت الذي بناه منذ ساعات، وعلى الجانب الآخر لم يشرد ولي العهد حتى يتنبه، بل قضى ساعات محدقًا في سقف البيت الخشبي، أول ليلة له في هذا البيت، وأول يوم تسيل فيه خصلات شعره

أمام أحد غير زينب وليلة وخالد وأيوب .
لا بل شعرها، فهي فتاة .
اتفقنا أم اختلفنا مع هذه الحقيقة لكنها فتاة، وإذا أردنا الصدق، فإذا قارنا جمالها بجمال أي جنوبية، لن نجد من تصمد أمامها وأمام لون بشرتها أو اتساع عينيها .
كانت ليلة هي أجمل من في الجنوب لكن هذا ليس حقيقيًا، فمن يعتقد هذا لم يسقط أمامه وشاح ولي العهد بعد .
كانت تشعر بالغربة والضيق والثورة على هذا البغيض، الذي كشف سرها التي عاشت عمرها دون أن يعلمه أحد، بل تشعر أيضًا بالخجل، نعم الخجل فهي لم تعتد أن تظهر بمظهر الفتيات هذا أبدًا .
أخرجتها من شرودها صوت دقات خافتة على باب البيت ولولا هذه الدقات لكانت النيران التي في صدرها ستحرق أخشاب هذا البيت .
فتحت جزءًا من الباب وأخرجت من خلفه نصف وجهها فوجدته هو، زعيم الشماليين .
- "اتفضلي" .
- "إيه دا؟"
مد علي يده بإناء مملوء بالمياه العذبة وقال:
- "ديماية من البحيرة" .
- "عندما ماية كتير" .
- "دا اعتذار مني عن اللي عمله عمار أخويا، هو مش قصده بس هو متسرع شوية" .
لم يتلق منها أي رد فاستكمل:
- "كمان أعتذار على غلط سمر في الست زينب، احنا نعرف الأصول مش زي ما انتي قلتي" .
مدت يدها والتقطت إناء الماء منه وأومأت برأسها فانصرف سائرًا نحو بيته، ربما سيستطيع أن ينام بعد أن حاول إصلاح ما أفسداه عمار وسمر في وقت واحد .

خلعت ولي العهد قطعة القماش التي أخفت بها شعرها قبل أن تفتح الباب، وشربت من إناء المياه الفاترة الذي أحضره علي .
استطاعت هذه المياه أن تطفئ جزءًا من اللهيب بداخلها، لكن الأكيد أن النيران بقيت مشتعلة،
من قال أن الاعتذار يصلح الخراب الذي بداخلنا .
هل إطفاء النيران المشتعلة في المنزل لا يعني احتراق الأثاث؟

أنا لست شخصًا واحدًا .

لكل منا آلاف الشخصيات لا تظهر إلا وقت الحاجة إليها .

جلس الفتى على الأرض منهك من التعب، اليوم ليس مختلفًا عن سابقه، بل إنه يجلس هذه الجلسة كل يوم، يتألم من الإرهاق دون أن ينطق بكلمة، لكن كل جزء من جسده يئن من الألم، فهو يبدأ يومه بشروق الشمس، ينظف الخيمة ثم يذهب لكهف السيدة فخر ليحضر لها ما تريد، ثم يعود به مرة أخرى للخيمة التي أقامها على مفترق الطريق، يعد لها ولنفسه الطعام، ثم يساعدها في أعمالها التي لا يفهم منها شيئًا ولا يريد أن يفهم، كل ما يريده هو شيء واحد يتكرر طلبه له كل ليلة، لكنه حاول مرارًا وتكرارًا أن يصل لما أراد لكن دومًا محاولاته تبوء بالفشل .

كان (عدنان) يسعد بالرقص على قرع طبول الحرب، فعلى عكس الجميع كان سعيدًا بأمر اللعنة والمعاهدة، وزادت سعادته بعد أن قالت سيدته أنها ستزور أهل الشمال والجنوب في الصحراء من الحين للآخر، لا يهمه ما يحدث لكن كل ما يهمه أن يرى بشر ويسمعهم يتحدثون أمامه لحمًا ودمًا، فهو لم يشهد في حياته سوى فخر سيدة الكهف الذي يعيش به، لم يعهد غيرها هي وبنورتها السحرية، لا يسمع إلا صوتها وصوت عصاها تدق الأرض أو صوت حصانها يطلق صهيله، سئم رؤية الأحداث في كرة زجاجية، سئم أنه لا يرى إلا أحداث الماضي ولا يعلم شيئًا عن الحاضر، لم تعامله فخر يومًا بقسوة لكن حياته كانت مؤرقة على الرغم من أنه لم يشهد غيرها .

كان حاله كحال الحصان، كل منهما حر غير مقيد بالأغلال ولا محبوس بداخل زنزانة لها قضبان، لكن كل منهما لا يستطيع الرحيل، ولا يعلم إذا رحل لأي أرض سيذهب، فعلى كل حال نار قد اعتاد عليها خير من جنة سيبحث عنها .

- "عدنان" .

أخرجه صوت سيدته من شروده فهب واقفًا ونظر لها:

- "بكرة أول ما النهار يطلع تحضر الخيل عشان نطلع على الصحرا" .

تعجب عدنان من قرارها المفاجئ، فأشارت لها بيده (لماذا)؟ فنظرت فخر للكرة

الزجاجية أمامها وقالت:
- "واضح أن في حاجات كتير حصلت في كل أرض وأنا معرفهاش، كان لازم أراقبهم من زمان وأعرف بيعملوا إيه، واضح أن اللي معرفهوش كتير أوي، نام يلا عشان هنتحرك بدري" .
أومأ لها برأسه أن نعم وأدار لها ظهره ذاهبًا لحصيرته التي ينام عليها كل ليلة، وفي طريقه ظهرت على وجهه ابتسامة حاول أن يخفيها لكنه فشل، لا يهم أن كان الوضع سيء أم جيد فالسيدة فخر دائمًا تستطيع معالجة الأمور، لكن المهم الآن أنه سيذهب إلى هناك ليرى وجوههم .
ألقى بجسده فوق حصيرته لكن النوم هجر عينيه كأن النعاس لم يزرهما يومًا، فغدًا ليس يومًا عاديًا .
غدًا ولمرة أخرى سيشم رائحة البشر .
هل جربت يومًا أن لا تعرف في الحياة إلا نفسك ولا تستطيع حتى أن تتحدث إليها؟
"ضلمة وفراغ وسكوت، جوايا سكوت الميتين، سكوت مرعب بيوجع مش عارفة مصدره، مش عارفة إذا كنت خايفة أو لأ، مضايقة بس اللي متأكدة منه أن في حاجة اتغيرت، أنا مش حاسة بحاجة غير وجع مدفون مستمر ملوش سبب، أو يمكن دي النتيجة" .
كانت تحدث نفسها بصوت يتردد بين قلبها وعقلها لم يتجاوز حاجز فمها، كانت تنطق بكلمات لم تتجاوز شفتيها أبدًا، كانت ابنة أيوب تجلس على شاطئ البحيرة فجرًا بعد أن خلد كل من في الصحراء إلى نومهم، كيف مر عليها هذا اليوم؟ كيف لم تثر أو تنهار كالفتيات؟ كيف لم تغضب أو تلكم عمار هذا في وجهه لتسقط له صفًا من أسنانه أو كليهما .
ما الذي جعلها تقف كالحجر غير قادرة على أن تتخذ رد الفعل الذي تمنت أن تتخذه، لا لم تتمن أن تفعل شيء، لم تتمن أن يأتي هذا اليوم من الأساس، منذ سنوات كانت قد قررت أن تحيا كولي العهد فقط، وأن لا يتخطى أحدهم الوشاح الذي جعلته حائلًا بين الناس والفتاة التي تقف خلف الوشاح .

كيف تكون أنت صاحب القرار في حياتك ثم يأتي أحدهم ويدمر قراراتك ويجعلها هباءً منثورًا؟ كيف تحيا عمرك كله خلف قناع، ثم يأتي أحدهم ويخلع قناعك عنك ويهدم جدران المعبد على من به؟

كيف يمكن لأحدهم أن يظهر للناس الجزء السيء بداخلك! ظلت تحدث نفسها وبصرها شاخص في صفحة الماء على البحيرة بدون حراك، جلست منتظرة القرار الذي سيتم اتخاذه غدًا ولن يكون لها رأي فيه .

فما أسوأ الانتظار حين لا تعلم ما يعقبه، وما أسوأ القرار الذي يجبرك على تنفيذه دون أن يكون لك رأي فيه .

عفوًا أنا لست آسف،
لست مسؤولًا عن الحال البشعة التي وصلت إليها،
فهذا ما قادني إليه الآخرون .

حل اليوم الآخر دون أن يهدأ لأحدهم بال، وعلى عكس العادة المتبعة في كل الدول، كان حال الزعيم مثل حال الرعية، فحيرة البال والخاطر المضطرب كانا قد توصلا لداخل
(علي) أيضًا .
قرارات مضطربة ومشاعر متناقضة لكن الأكيد أن قرار الحرب هو القرار الأكثر نفعًا، يمكنه أن يبدي اعتراضه أمام فخر، ثم يفشي سر ولي العهد أمام شعب الجنوب، ثم تقوم الثورة في أرض أيوب وأمامها تقوم الحرب في إيڤانوس، وبدون تأييد أهل الجنوب لولي العهد بالتأكيد أنه سيلقى الهزيمة دون مقاومة، وبذلك سيصبح (علي) هو الحصان الأسود والورقة الرابحة التي راهن عليها الشوام وربح رهانه في أقل من أسبوع .
بذلك سيصبح علي هو زعيم أرض إيڤانوس بأكملها، وليست أرض الشمال فقط، كانت هذه الأفكار تتردد على ذهن (علي) أثناء ارتدائه لملابسه في منزله الخشبي، حين رفع عمار الستار الفاصل بين مضجع كل منهما وقال:
- "الحكيمة فخر وصلت وعاوزاك" .
تسمر علي في مكانه، للأسف ها هو الوقت قد حان لاتخاذ القرار على الرغم من أنه كان يترجى الدقائق أن تمر حتى يتخلص من تلك الحيرة، فما أبطأ مرور الوقت حين تترجاه أن يمر وما أصعب أن يحل وقت اتخاذ القرار .
أومأ علي برأسه لأخيه الذي اقترب منه وقال:
- "الفرصة بتيجي مرة واحدة بس، والفرص مش بتتكرر لـلي مش بيستغلها" .
لم ينطق علي في هذه المرة أيضًا، فما يجول بخاطره لم يُعطِ للسانه فرصة الحركة، فأحيانًا اضطراب نفسك يجبرك على تجنب الآخرين .
تكفيك الفوضى بداخلك .
خرج علي برفقة أخيه بعد أن غرس أصابعه في شعره البني ومررها بداخل

خصلاته الناعمة، وحين وصل لمجلس السيدة فخر وجد أن المجلس كان مكتملًا لا ينقصه إلا وجوده ووجود هذا الغامض (ولي العهد)، جلس علي فوق الحجارة المرصوصة على شكل دائرة بجانب الجالسين، ثم نطقت الحكيمة فخر لأول مرة منذ أن وصلت إليهم موجهة حديثها لـ (ليلة):

- "عاوزة أشوف ولي العهد" .

قامت ليلة من المجلس وذهبت صوب منزل الجنوبيين، وما هي إلا بضع دقائق حتى خرجت تسير خلف ولي العهد، التي كانت ترتدي عباءة طويلة لها أكمام بالإضافة إلى وشاحها الذي عادت إليه مرة أخرى، فهي لا تعلم ما هي معلومات الحكيمة فخر، وهل أخبرها أحدهم بأن ولي العهد فتاة أم لا، فرأت أن ترتدي وشاحها أفضل حتى لا تزيد الطين بلة، إذا كانت السيدة فخر لا تعلم بأمرها، لكن ما الذي يخفى على فخر؟ فقد خلق لها الله عين في كل منزل ترى بها ما يحدث خلف الجدران .

حين وصلت ليلة وولي العهد إلى المجلس قامت فخر من مجلسها، واقتربت من ولي العهد ووضعت يدها على وشاح وجهها لتكشف ما خلفه، في حين أغمضت من تقف خلف الوشاح عينيها حتى لا تواجه هذه اللحظة المؤلمة مرةً أخرى، فيكفيها من كأس المعاناة رشفة واحدة، نعم يا صديقي لا تتعجب فكشف وجهها يعد معاناة بالنسبة لها .

رفعت فخر الوشاح وحلت ربطة شعر من كانت تحسبه فتى، فوصل شعرها لآخر ظهرها مع نظرة دهشة في عين فخر تقابلها نظرة ترقب في عين ولي العهد جلست فخر في صدارة المجلس وجلست الأخرى بجانب الجنوبيين، وقالت فخر بنبرة حازمة دون أن تنظر لأحد:

- "أنا كنت جاية أتأكد، رغم إني عمري ما كدبت حاجة عرفتها لوحدي، وعمري ما صدقت حد غير نفسي، واضح أن السنين اللي مكنتش براقبكوا فيها حصل فيها حاجات كتير مينفعش تفضل مستخبية" .

أدارت فخر رقبتها ونظرت لولي العهد وقالت:

- "انتي بقى أيوب بعتك مكان ابنه؟"

نظرت لها الأخرى بعنق مرفوع لا يدل على أنها في موضع الاستجواب ولا يمت لموقفها الحرج بصلة وقالت:
- "لا أنا ولي العهد نفسه" .
- "بس طول عمري أعرف أن أيوب عنده ولد" .
- "دا مش حقيقي وأيوب مخلفش غيري ومفيش ولي لحكمه غيري" .
- "من إمتى وكان في بنت بتبقى زعيم؟"
- "ومن إمتى وفي حد بيعرف المستخبي؟"
أدركت فخر أن ابنة الجنوب ليست صيدًا سهلًا ولا لقمة صائغة، بل أنها طير جارح لا يقبل الاستكانة فأكملت فخر:
- "حكايتك إيه يا بنت أيوب؟"
تنهدت الأخرى وبدأت ترتب أفكارها لترى ما يمكن أن تقوله وما عليها أن تخفيه على الأقل الآن:
- "أبويا معندوش صبيان ورفض أن حد من عائلة تانية يورث الزعامة، فقررنا أن أنا هكون ابنه وولي عهد الجنوب، ومن ساعتها وأنا مليش اسم إلا ولي العهد، وأهل الجنوب في منهم اللي نسي أن أيوب كان مخلف بنت، ومنهم اللي مكنش يعرف أصلًا" .
- "وانتي ليه وافقتي وقبلتي الوضع دا؟ كان إيه المقابل؟"
- "مش لازم يكون في مقابل، أحيانًا بنعمل حاجة ملهاش ثمن، لكن بنعملها عشان مؤمنين باللي بنعمله وأنا مؤمنة أن دوري مهم وهكمله للآخر" .
نظرت لها فخر نظرة إعجاب وتذكرت أنها فعلت نفس ما تفعله هذه الفتاة، فكلاهما ضحت بحياتها مقابل فعل شيء تؤمن به حتى ولو كان بلا مقابل، كلاهما لا ترى في حياة الناس التقليدية ما يغريها، ووجدت ذاتها في حياة أخرى لا تمت لحياة البشر بصلة، تنبهت فخر من شرودها ووجهت حديثها للحاضرين:
- "دلوقتي احنا عملنا المعاهدة بين علي وابن أيوب، وأيوب معندوش ولاد وضحك علينا وأنا قولتلكوا أن لازم كل حاجة تكون واضحة للطرفين، أيوب عمل حاجة مش متعارفة عندنا و . . . ." .

- "كل حاجة زي ما هي" .
نظر الحاضرون إلى علي الذي قطع حديث فخر دون استئذان كصوت الرعد الذي يكسر سكون الليل وأكمل:
- "كفر الشمال لما بيكسب حرب بيكسبها بمجهوده، وأنا مش هنتهز فرصة ضعيفة زي دي عشان أبوظ المعاهدة، مش ابن الشوام اللي يكسب معركة محاربش فيها،
المعاهدة هتكمل سواء ولد أو بنت، مصير الأرض مش هيقف على كدبة أيوب"
تشجعت الجنوبية أيضًا لحديث علي ووجهت حديثها لفخر:
- "وأنا قابلة، اللي كان هيمشي على الولد يمشي عليا، وفي الحرب مفيش فرق بين راجل وبنت، ولو هتقتل مش هتفرق أنا ابن أيوب ولا بنته" .
ازداد حنق عمار حتى بلغ حلقه، هل كان أخوه لا يسمع حديثه في الخيمة أم كان يجاريه فقط ليتهرب من الحديث؟ أي غباء حل عليه ليفوت هذه الفرصة من بين يديه، لم يستطع عمار أن يصمت أكثر من ذلك فقال:
- "بس احنا عملنا المعاهدة مع ابن أيوب اللي هو مش موجود ودا استخفاف بينا" .
قالت الجنوبية بذات العنف الذي لا يختفي أبدًا مهما اشتدت الريح:
- "لأ، انتو عملتوا المعاهدة مع ولي العهد، وأنا ولي العهد وأرض الجنوب ملهاش ولي للعهد غيري" .
أشارت لهم فخر بيدها أن اصمتوا، فاختفى صوت الجميع إلا من صوت أنفاسهم الحائرة التي تنتظر القرار، كانت إشارتها لهم كإشارة المايسترو لأعضاء الأوركسترا الموسيقية فتوقفت أنغام الحرب .
لحظات قصيرة من التفكير لكنها مرت طويلة على الحاضرين، وكأن عقرب الثواني يمر فوق قلوبهم حتى نطقت فخر:
- "المعاهدة هتكمل لكن بشرط" .
تنبهت أذهان الجميع لحديثها وأنفسهم تطوق لمعرفة الشرط الذي سيسري عليهم جميعًا وبالأخص الجنوبيين، كانوا قلقين من هذا الشرط الذي سيكفر

ذنب أيوب، ماذا لو أنهم لا يطيقون على تنفيذه!
- "المشكلة دي حصلت عشان في حاجات كتير أنا معرفهاش ولازم أعرفها، من النهاردة هيكون ليا الحق أني أعرف كل حاجة عنكوا وكل حاجة حصلت زمان، هاجي هنا بليل كل فترة اقعد معاكوا واسمع منكوا، اللي كل واحد حابب يقوله عن نفسه ومش هجبر حد على حاجة،
لكن باقي الحقيقة هعرفعها لوحدي" .
في الثواني التي صمتتها فخر قبل أن تقول شرطها خطر ببال الحاضرين آلاف الاحتمالات، لكن لم يخطر ببال أحدهم أن يكون هذا هو الجزاء، كل الاحتمالات كانت أخف وطأة من ما قالته .
كيف يكون لأحدهم الحق في التفتيش في ماضيك؟ يفتح صناديق الماضي التي سبق وأغلقتها وألقيت مفتاحها في بئر عميقة حتى لا ترى ما بداخلها مرة أخرى، كيف يأتي القدر الآن ويعطي الحق لشخص ما أن يعرف ماضيك وحاضرك؟ ما فكرت به سابقًا وما يخطر ببالك الآن؟ كل أخطائك وسقطاتك وأيامك التي تتمنى أن شمسها لم تشرق؟
ماذا لو أن حياتك عبارة عن مشاهد تمر في كرة زجاجية أمام أحدهم؟
مهما كنت صالحًا فأنت لست قديس، بل لديك أشياء لا يعلمها إلا ذاتك، وإذا علمها أحد عليك أن تخشى .
وسط صمت الجالسين جاء صوت سمر الشقراء معترضًا:
- "المفروض العقاب يكون ليهم هما بس، احنا مالنا ندفع ثمن كذب زعيمهم ليه؟"
نظرت فخر بابتسامة ساخرة لهذه الشقراء التي تنطق أمامها لأول مرة وقالت:
- "مفيش حد مننا واضح زي الشمس، احنا اكتشفنا ولي العهد بس أكيد اللي معرفوش عنكوا أكتر،
ولو مفيش حاجة مستخبية مكنتيش انتي سألتي السؤال دا" .
لم تنطق سمر ولم تعقب على حديث فخر، فلم تكن سمر من هواة الجدال والتنافس بالكلمات لكن جاء صوت ليلة من الناحية الأخرى قائلة:

- "واحنا نضمن منين أن اللي هتعرفيه عننا مش هيخرج برا" .
- "يا شاطرة السؤال دا ميتسألش للحكيمة فخر، أنا طول عمري أعرف حاجات لو حد غيري عرفها كانت الأرض ولعت ومبقاش فيها إلا رمل الصحرا . اسألي زينب وهي هتقولك .
قابلين؟"

لم ينطق أحد ولم يقل أحدهم رأيًا، كيف تعطيهم حق الاختيار دون أن تعطي لهم الخيارات من الأساس، وكيف تنتظر منهم الموافقة على ما تطلبه، لكن على كل حال ليس بوسعهم الرفض أو القبول .

اعتبرت فخر أن صمتهم هو دليل على موافقتهم على غرار أن:(السكوت علامة الرضا) على الرغم من أن هذه المقولة تصح حين يتقدم شاب لخطبة ابنة خالته، وليس في قرارات حرب، لكنها اعتبرت أنها حصلت على موافقتهم وهبت واقفة وقالت:

- "المعاهدة هتكمل رغم أن دا خارج عن القاعدة لكن مفيش حاجة غريبة في إيڤانوس" .

وجهت بصرها لولي العهد وقالت:

- "صحيح انتي اسمك إيه؟"

- "چاكلين" .

نطق ولي العهد باسم لم ينطق به منذ عمر، ولا يعلمه إلا أخص الناس إليه، لكن الوضع لم يعد كذلك فكل شيء معروف الآن .

- "من دلوقتي انتي جاكلين بس" .

قالتها فخر وأمسكت الوشاح وألقته في النار الموقودة بداخل مجلسهم وأدارت وجهها وذهبت ومن خلفها غلامها عدنان وتركته يحترق وتحترق معه سنوات عمر جاكلين التي قضتها خلفه .

انفض المجلس وذهب كل منهم بقلب وجل يخشى ما سيحدث من جراء ما ستراه فخر، لكن أسرعهم في السير كانت جاكلين، نعم فمن الآن هذا هو اسمها الحقيقي، كانت تسير صوب منزل الجنوب بخطوات سريعة كمن تذهب لأداء

مهمة وهذه هي الحقيقة، كانت حقًا تشعر بأن بداخلها شيئًا من الاضطراب وتحتاج إلى من يرشدها، تحتاج إلى أي علامة لتخبرها أن ما حدث هو الصواب، رغم اقتناعها التام بأن ما حدث لم يكن من الممكن أن يحدث غيره .
لكن أحيانًا إيماننا بالشيء يزداد حين نرى اقتناع الآخرين به .
وصلت جاكلين للمنزل وجلست فوق مضجعها وأخذت ورقة من الزجاجة التي أعطتها إياها فخر في أول يوم لهم في هذه الأرض .
فتحت الورقة وقرأت ما فيها فوجدت:
(إذا لم يعجبك اللون السائد فاختلف،
ليس حبًا في الاختلاف لكن بحثًا عن ما يلائمك)
كانت هذه الورقة ملائمة للموقف تمامًا، ذكرتها بكلمة فخر حين أخبرتها بأنهم يفعلون شيء خارج عن القاعدة .
الخروج عن القاعدة، وما الغريب في ذلك؟
ما هي القاعدة إلا مجموعة من الأفكار وضعها شخص لنفسه، وسار خلفه جميع الناس حتى أصبحت ما يسمى بـ (قاعدة) .
لم تكن في البداية سوى قيم حددها شخص لنفسه فقط، أليس من وضع القاعدة إنسان مثلي ومثلك؟
وبما أن من وضعها إنسان فهو ناقص، وبالطبع ستكون قاعدته تحمل نواقص شخصيته، وبما أننا مختلفون فمن الممكن أن تجد الصواب الذي يناسب جميع الناس خطأ بالنسبة لك، فلا تسير على خطى من قبلك، ولا تقيد نفسك بأفكار وضعتها نفس بشرية قابلة للإخفاق .
إذا لم تناسبك القاعدة فاصنع أنت القاعدة، حتى أن بقيت عمرك كله تبحث عن ما يناسبك، فهذا أفضل من أن تجعل نفسك أسير لمعتقدات الغير .
ودائمًا وأبدًا كن من وضع المنطق لنفسه .

هناك من قتله السيف وهناك من قتله الظلم، هناك من قتله الحزن وهناك من قتله القلق،
هناك من قتله الطموح وهناك من قتله تفكيره الزائد،
جميعنا قتلى يا صديقي وإن اختلف القاتل أو الأداة .

الأرض الخضراء الفياضة بالخير هي سيدة الموقف، لون أخضر ممتد على مرمى البصر لا يستطيع من يقف في بدايته أن يرى نهايته، بل لا يعتقد أن له نهاية من الأساس .

هذه الأرض الخضراء مثلها مثل حياة البشر، يعتقد من فيها أنها ممتدة وليس لها نهاية؛ لذلك ينهمك بها من يحياها وعلى غير توقع تنتهي، كما هو الحال في الأرض الخضراء التي يخيم عليها السكون وعلى غير توقع ظهرت أيادي صغيرة من بين النباتات الخضراء، أيادي كانت مختبئة بين الزرع حتى لا يعثر أحد على أصحابها، فهذه كانت طقوس اللعبة، ظل الأطفال يلعبون تحت أشعة الشمس يضحكون تارة، ويبكون أخرى كحال جميع الصغار ولكن من بينهم ظهر صوت طفولي يقول لباقي الأطفال:

- "أنا مش هلعب معاكوا تاني أبدًا" .

قالتها هذه الصغيرة وأدارت وجهها عن زملائها وتركت مجلس لهوهم وذهبت لمنزلها وما أن وصلت الطفلة لمنزل والديها، حتى بدأت في نوبة بكاء لا تنتهي أقبل على صوتها والداها .

جلست والدتها بجانبها وهدأت من روع الصغيرة لتعرف ما هو سر بكائها، حتى قالت الصغيرة من خلف دموعها:

- "أنا قلت لأصحابي إني مش هلعب معاهم تاني" .
- "وليه قولتي كدا؟ حد زعلك؟"
- "عشان كنا بنلعب وكنا فريقين وأنا الفريق بتاعي خسر، فزعلت وقولتلهم مش هلعب معاهم تاني أبدًا" .
- "خلاص متزعليش وبكرة روحي العبي معاهم" .
- "لا أنا مش بحب أخسر" .
- "أنا هقولك على طريقة تكسبي بيها على طول" .

تنبهت الفتاة ونظرت لوالدتها باهتمام من سيستمع لسر عسكري لدولة من دول الأعداء مستمعة لما تقوله والدتها:

- "إنتي تروحي متأخر عن وقت اللعب شوية" .

- "ليه؟"

- "عشان يكونوا بدأوا اللعبة وظهر أنهو فريق فيهم اللي هيكسب" .

- "وبعدين؟"

- "وبعدين انتي تختاري تلعبي مع الفريق اللي هيكسب وكدا مش هتخسري أبدًا" .

اتسعت حدقتا الصغيرة وحاولت أن تستوعب ما تقوله والدتها لكنها نظرت لها سريعًا كأنها تنبهت توًا لأمرٍ ما:

- "بس في أوقات بيكون الفريق بتاعي كسبان في الأول، وفي نص اللعبة الفريق التاني بيبقى أحسن مننا، وبيكسب وكدا أنا هخسر برضه" .

هنا جاء الدور على والدها ليكمل لها الخطة التي بدأتها والدتها:

- "أول ما تلاقي الفريق التاني بدأ يكسب اتخانقي مع أي حد من الفريق بتاعك، وقولي عاوزة أغير الفريق وروحي للتاني" .

صمتت لثوانٍ كأنها تفكر، ثم قالت بصوت خفيض:

- "واسيب أصحابي وألعب ضدهم؟"

- "لو هما خسرانين يبقى تسيبيهم ولا تخسري معاهم؟ الأحسن تلعبي مع اللي هيكسب" .

أدارت الأم رقبة الفتاة لها وقالت:

- "خليكي دايمًا مع الكسبان ويبقى صاحبك اتفقنا؟"

ابتسمت الصغيرة ولمعت عيناها وقالت:

- "اتفقنا" .

صمتت الصغيرة وصمت والداها لكن صوتًا آخر قد أضاء بداخلها، صوت مبادئ والدها ووالدتها التي سمعتها وتعمقت بداخلها منذ الصغر، صوت يخبرها أنها لا يمكن أن تخسر أبدًا، صوت يخبرها كل ليلة أنها ما خلقت إلا لتنتصر وأن

الخاسرين في هذه الدنيا لا يوجد لهم مكان .
مرت السنوات على هذا البيت وازدادت فيهم الطفلة تعلقًا بهذا المبدأ الصغير الذي أعطتها إياه والدتها وأخذ ينمو يومًا بعد يوم، سنوات تذهب وتأتي غيرها حتى جاء هذا اليوم الذي تأكدت فيه الفتاة أنها أجادت حفظ مبادئ أسرتها .
فتحت باب منزلها وخرجت، إذا كان هذا فيلمًا سينمائيًا فمن المؤكد أن المخرج سيبدأ المشهد بتصوير قدميها تدق الأرض الخضراء، ثم إذا ارتفعنا قليلًا لا نجد شيئًا من الملابس، لا نجد شيئًا سوى سيقانها البيضاء المرمرية، ثم إذا ارتفعنا أكثر فأكثر سوف نصل لبداية ردائها الوردي القصير الذي يقف فوق ركبتيها مباشرةً .
ها هي الطفلة الصغيرة مرت عليها السنوات فلم تعد ذات الضفائر، بل أصبحت أجمل فتاة في أرض الشمال، فتاة أجمل من زهرة اللوتس التي اتخذها أهل الشمال رمزًا لهم، تمنى كل شباب الشمال لو قبلت بأحدهم زوجًا لها، ليضمها لمنزله كما يضمون زهور اللوتس فوق جدران المنازل، يعجب بها كل من رآها، تذكر أنني قلت كل من رآها ولم أقل كل من يعرفها .
فهم كانوا يغرمون بنعومة خصلات شعرها واخضرار عينيها الذي يشبه اخضرار حقول الشمال .
هل جربت يومًا أن تختار تفاحة حمراء ناضجة، وحين تتذوقها تجد أنها ماسخة تم وضع بذورها في تربة مالحة غير صالحة للزراعة؟ ففي كل زمان ومكان المظاهر دائمًا ما تخدع .
وصلت التفاحة، آسفة أقصد الفتاة، وصلت الفتاة إلى مكان يتعلمون فيه ركوب الخيل .
- "سمر" .
التفتت الفتاة ذات الفستان الوردي -سمر- إلى مصدر الصوت الذي تعلم جيدًا من هو، إنه زميلها في مدرسة الفروسية، وكان من المعروف لدى جميع زملائهم أن هذا الشاب معجب بسمر بل يحبها، وعلى عكس شباب الشمال الذين أعجبوا فقط بمظهرها كان هذا الشاب يعلم عيوبها ويرضى بها، وعلى الناحية الأخرى لم تمنعه سمر، بل كانت تبادله ذات الشعور هي الأخرى .

- "أيوة" .
- "ممكن نتكلم شوية؟"
- "إيه عاوز إيه؟"
أكثر من نصف ساعة مرت على هذا الشاب وهو لا يستطيع أن يتحدث بطريقة مباشرة، أخذ يلف ويدور ويحاول أن يلمح لها بما أراد بصورة غير مباشرة لكنها لم تفهم مراده أو تعمدت أن تتصنع الغباء .
من قال أن الطفل يتعلم التحدث في الصغر، فهناك مواقف لن نتعلم التحدث فيها مهما كبر عمرنا .
من الذي قال أن التحدث سهلًا؟ فما أصعب الحديث عن شيء تكتمه بقلبك وما أثقل الكلمات التي تخرج من أعماق أرواحنا .
- "يعني أنت عاوز إيه؟ أنا مش فاهمة منك حاجة" .
- "لأ يا سمر إنتي فاهمة، كل زمايلنا عارفين إني معجب بيكي وعاوز أتقدم لك وإنتي كمان عارفة" .
صمتت سمر للحظات وضحكت ضحكة ساخرة ثم قالت:
- "أه عارفة بس وبعدين؟"
- "وبعدين إنتي أهلك عارفين أهلي ومش هيرفضوا،
سمر إنتي ساكتة ليه؟"
- "أنت بتتكلم بجد؟ على أساس إيه الكلام دا؟"
- "على أساس إني بحبك، دا مش كفاية؟"
- "هو أنت تعرف أنا بنت مين؟"
كانت الإجابة المنطقية لهذا السؤال هي (لأ)، لأنها ليست ابنة لأحد من الذين يتكبر بهم أبنائهم، فوالدها يمتلك أرضًا ليست بالكبيرة ويعيش من محصولها كما هو حال الطبقة المعتدلة من أبناء الشمال، فلم تكن أسرتها من الطبقة الفقيرة التي تعمل في زراعة أراضي الغير، لكن أيضًا لم يكن هناك داعي لهذا التكبر والتعالي، لا توجد إلا صلة القرابة التي جعلتها تظن أنها تسير فوق رؤوس الناس .

فقد كان والدها والشوام أبناء عمومة فرفع هذا من سقف طموحها آلاف الأمتار، أخذت تسير بين الناس تخبرهم أنها من عائلة الشوام التي تحكم الشمال، لم تفتخر بأسرتها نفسها أو بعمل والدها، بل تفخر بنسبها الذي ترى أنه سيفتح لها أبواب النعيم .

- "لأ عارف إنتي مين بس" .

- "لأ مش عارف أو مش فاكر،

أنت ناسي إني قريبة زعيم بلدك؟ هتعيشني في المستوى اللي بحلم بيه؟ هتعرف تجيب لي بيت زي بتاع عمي الشوام؟ هتعرف تجيب لي هدوم زي اللي بتلبسها سوسن؟ آخرك هتعيشني مع أهلك في نفس البيت" .

- "يا سمر دي ظروفي وإنتي عارفاها" .

- "عارفاها ومش قبلاها ومتزعلش بس أنا مش هتجوزك ونعيش في نفس المستوى دا، أنا من عيلة كبيرة ولما أتجوز لازم أتجوز واحد يطلعني فوق مش نفضل في مكاننا" .

ذاق الشاب التفاحة وتأكد أنه اختار فاكهة نضجت في تربة مالحة أفسدت زرعها، أخرجته جميل الشكل لكن داخله لا يمت لمظهره بصلة .

ترك الشاب مجلسه وترك ذات الشعر الأصفر غارقة في حلم الوصول لمستوى عائلة الشوام أو أعلى، تركها بعد أن تأكد أن قلبه أخطأ في الاختيار، أما هي فجلست راضية عن كل كلمة قالتها بل ومقتنعة بها أيضًا، كانت ترى أنها تستحق أفضل معيشة وأفضل مستوى وأفضل مظهر، كانت تطمع في الأفضل من كل شيء .

ما هي إلا ساعة حتى وصل ما فعلته سمر إلى صديقتها، فذهبت هذه الصديقة لسمر حتى ترى سبب ما فعلته، عساها تسمع منها كلمة تطيب بها قلب الشاب الذي كسرته سمر دون رحمة، ودون أن تشعر بأي ذنب كأنها جزار اعتاد على أن يذبح القلوب .

- "إيه اللي عملتيه دا يا سمر؟"

- "أنا مش غلطانة هو اللي بيبص لفوق" .

- "حرام عليكي دا بيحبك جدًا وإنتي كمان كنتي بتحبيه" .
- "الحب دا رفاهية، حاجة وجودها حلو بس غيابها ميضرش" .
- "بس مهم" .
- "وأنا عندي ألف حاجة مهمة أكتر منه، لما أوصلهم ممكن ساعتها أبقى أحب"
- "أسلوبك دا هيخسرك كتير" .
- "الحب هو اللي بيخسر وبيعطل وأنا اتعودت مخسرش، في أي لعبة لازم أكون كسبانة" .

لم تستطع أن تنطق هذه الصديقة بل تمنت أنها لم تأت من الأساس حتى لا تسمع منها هذه الكلمات التي سقطت على قلبها كالحجارة، وسوف تسقط على قلب الشاب كأن النيران قد اشتعلت في صمامات قلبه .

- "متستغربيش كدا بس أنا دلوقتي هدفي حاجة أكبر بكتير" .

طريق الحياة مليء بأشياء مغرية، قد يضع الإنسان تركيزه على شيء واحد، ويضعه أمام عينيه لا يرى غيره وفي طريقه إليه قد يخسر أشياء أخرى أغلى وأثمن من الذي يسعى إليه، قد يخسر أشخاص كانوا يمثلون أعمدة حياته، قد يخسر شعوره بالآخرين، قد يخسر إحساسه بكل جميل حوله، وقد يذهب عنه الشعور بمرور الأيام فيجد نفسه في يوم قد توصل لما أراد لكنه خسر كل شيء، خسر الجمال بداخله، بل خسر ذاته .

ما هي حياتنا إلا سباق كبير .

بمجرد بدء السباق يبدأ المتسابق في الركض بأسرع ما عنده حتى يصل لغايته وهي خط النهاية .

يجري ولا يضع أمامه هدف سوى نقطة معينة، يتحرك كل شيء بجانبه بسرعة مرعبة ولا يتنبه لما يمر بجانبه مهما كان .

وهذا بالضبط ما يحدث في حياتنا .

يضع الإنسان شيء معين أمام عينيه، ولا يقبل بغيره وفي أثناء ذلك لا يتنبه لكثير من الأشياء التي قد تناسبه أكثر من ما يريد بسبب تركيز تفكيره كله على شيء واحد .

فكم من موجود ضاع في البحث عن المفقود .
وضعت الحكيمة فخر يدها على الكرة الزجاجية خاصتها فأطفأت نورها، هذه الكرة التي كانت تشاهد فيها للتو مشاهد من حياة (سمر)، منذ أن كانت طفلة تلعب في الأرض الخضراء .
لا تعلم لماذا بدأت بسمر، ربما لأنها لا تعلم عنها أي شيء، أو ربما لأنها هي أول من اعترض على شرط فخر، لكن الأكيد أن اعتراضها أثار فضول فخر، وشعرت أن هذه الشقراء تخفي الكثير خلفها، وبعد ما شاهدته تأكدت أن حدسها قد صدق كالعادة، وما زال هناك الكثير ستعرضه لها كرتها لكن ليس الآن، فعليها الآن أن تخلد للنوم قليلًا، فعلى الرغم من أنها الحكيمة فخر إلا أنها تخطت الخمسين فمجهودها أصبح أقل بكثير من ذي قبل .
طلبت من عدنان أن يخلد لنومه، فقد كان جالسًا بجانبها يشاهد ما تعرضه الكرة الزجاجية؛ ليشغل وقت فراغه بعد أن أنهى واجباته في خيمة فخر، نام عدنان واستلقت فخر على المرتبة التي وضعت فوق الحصيرة احترامًا لآلامها الروماتيزمية التي تعصف بفقرات ظهرها، أغمضت عينيها وهي تفكر فيما ستراه لاحقًا من حياة (سمر)، ففخر تؤمن دائمًا أن ما هو خفي لو كان عاديًا لما تم حجبه عن الأبصار .
فما خفي دائمًا غير مألوف، وما خفي كان أعظم .

قد ترى الحدائق ولا تنظر إليها،
لكن من المؤكد أنك ستنجذب لرائحة زهرة استقام عودها في أرض الصحراء،
سقيت بماء مالح ولم تفقد جمالها بل ازداد .

(الأولى للنبي والتانية لأيوب يا لالالي
والثالثة قسمتي، الرابعة المكتوب يا لالالي
والخامسة كنت غالب صبحت أنا المغلوب يا لالالي)
شق صوتها سكون الصحراء بنبرة غنائها المبهجة وضحكتها التي تبتسم معها السماء، كانت تغني وترد عليها زينب وتكاد الرمال أن ترقص معهما .
أما على الناحية الأخرى كانت سوسن تستمع لغناء ليلة ويذكرها بغناء زينب، الذي لطالما سمعته منذ سنوات تستمع لأنغام ليلة وتتذكر معها الليالي الخالية، فمن الممكن أن ترتبط معنا ذكريات الماضي بالمكان أو بحالة الجو أو برائحة الأشخاص، وعند سوسن ارتبطت ذكرياتها بصوت زينب .
بدأت صحراء إيڤانوس ترى ملامح الحياة، وبدأ يظهر عليها أنها تشهد حياة بشرية، ففي الأيام السابقة بدأ سكان إيڤانوس زراعة الرمال، أقصد بدأ سكان الشمال يزرعون الرمال لخبرتهم في الزراعة، التي يجهلها أهل الجنوب، في حين تقوم زينب وليلة بصناعة ملابس جديدة من الأقمشة الجنوبية، وصناعة الحصائر والمراتب لمنزلهم ولمنزل الشماليين .
يفعلون نفس الشيء كل يوم على أنغام زينب وليلة، وبالطبع لا يخلو الأمر من بعض المشاحنات والخلافات بين من غلب الأبيض على وجوههم ومن غلبت السمرة على ملامحهم .
أما جاكلين ورفيقها خالد كانا يذهبان كل يوم للصيد بلا جدوى، لم يعثرا إلى الآن على دجاجةٍ حتى .
لم يسبق أبدًا أن تخرج جاكلين للصيد ولا تجد صيدًا نافعًا تعود به، لم تقابل هذا الكساد إلا في هذه الأرض، لكنها لم تيأس فأخذت تخرج كل يوم مع خالد ورمحها على أمل أن تجد شيئًا ما، ثم تغرب الشمس فتعود خالية اليدين تشيعها أنظار سمر وعمار بالشماتة، لكن دائمًا شيء ما بداخلها يمنعها من الاستسلام .

احترق وجهها من أشعة الشمس وهي تبحث عن ما يرفع رأسها أمام أهل الشمال، تبحث عن ما يثبت لهم قدراتها، تخشى أن تعود فارغة اليدين كآخر كل نهار .

- "أنا سامع صوت" .

قالها خالد غلامها الوفي الذي لا يتركها أبدًا، فتأهبت جاكلين واستقام ظهرها وسحبت رمحها من حافظته المعلقة خلف ظهرها، وما هي إلا لحظات حتى صدق حدث خالد وتقدمت غزالة صوبهم تقدم الفرج حين يهل على أهل الكرب، وكانت تسير على مهلٍ مطمئنة لهذا المكان الذي لم تشهد فيه خطر على حياتها من قبل، كانت تسير ولا تعلم أن حضورها كان إنقاذًا لقدرات جاكلين التي شكك بها الشماليون، وفي ذات الوقت لم تكن تعلم أن حضورها يعد بمثابة خط النهاية لحياتها المليئة بالركض، إذ اخترق رمح جاكلين رقبة الغزالة التي لم تقترف ذنبًا في حياتها سوى أنها مرت في أرض الجائعين .

هل جربت يومًا أن تكون في موضع الغزالة التي تلقى مصرعها لمجرد وجود أسدٌ جائع؟ هل جربت يومًا أن تدفع ثمن طيبتك وحسن نيتك فقط لأنك قد خلقت وسط جماعة لا تقدر ما بداخلك من جمال بل رأوك صيدًا سهلًا؟

وكيف تدفع أنت ثمن جمالك فقط لأنك لست بشع مثلهم!

كيف تكون أنت من يتحمل مسؤولية قبح الآخرين، ويصبح الجاني هو البرئ والظالم هو صاحب الحق .

لا تتعجب يا صديقي قد تتحمل غرامة الجمال الذي بداخلك لأنك خلقت في غابة .

رفعت رأسها الذي وضع بعناية فوق عنقها الطويل كي يظل مرفوعًا دومًا ولا ينحني أبدًا، تقدمت بخطى واثقة ومن خلفها خالد يحمل الغزالة كأنه يزفها إلى عريسها لا إلى إناء الطبخ .

بمجرد دخولهما الساحة التي تتوسط المنزلين حتى تهللت أسارير الجميع، فدخولهما ومعهما الغزالة كان إشارة إلى عشاء دسم بعد أيام من العيش على فتات الطعام .

أخذت زينب الغزالة من فوق يدي خالد وذهبت هي وليلة وسوسن لإعدادها وبقي في الساحة كل من علي وعمار وجاكلين فقال عمار:
- "لقيتيها فين دي؟"
كانت الأيام قد هدأت من ثورة جاكلين على عمار فأجابته قائلة:
- "في الجزء الشرقي من الصحراء، أعتقد في تاني" .
- "هههههه وعرفتي منين بقى بتتوقعي زي فخر؟"
ما بال هذا الذي أثار استفزازها منه كلما هدأت، كأنه كان يتعمد إضافة البنزين كلما هدأت النار، ابتلعت جاكلين سخافته وأرادت أن تخرسه بخبرتها في الصيد، فأحيانًا يكون أفضل رد على السفهاء هو استخدام حكمتنا .
- "لأ عشان دي غزالة طفلة وأكيد أهلها لسه موجودين، وكمان إنها تخرج لوحدها معناه أن أهلها قريبين من هنا" .
كالعادة لا يربح عمار في أي مناقشة، كان أفضل فرسان أرضه بالسيف والقوس، كان أفضل محارب في الشمال، يخشاه كل من يقف أمامه ويسمع صوت سيفه، لكنه كان لا يجيد فن الحديث والمناقشات بل كان فاشلًا في هذا النوع من المعارك .
أثارت خبرة جاكلين فضول علي، فلطالما سمع في شماله عن رمح ولي العهد الذي لا يفلت منه كائن حي مهما كان نوعه .
فمتى يطلق يصيب فتشجع وقال لها:
- "في مانع لو رُحت معاكي بكرة؟"
- "وأنت بتعرف تصطاد أصلًا؟!"
- "لأ بس خلصت شغلي في الزراعة هنا، والزرع هياخد وقت لحد ما يطرح وعاوز أتعلم حاجة جديدة" .
أطرقت جاكلين لثوانٍ اعتصرت فيها رأسها حتى تجد سببًا يجعلها تعترض فلم تجد:
- "مفيش مانع" .
قالتها ورحلت قبل أن يفتح أحدهم مجالًا آخر للحديث، فهي لا تكره شيئًا

قدر كرهها للحديث معهم حتى وإن كانوا يتحدثون حول ارتفاع ثمن الجزر في السوق .

ابتسم عمار ابتسامة من يعلم بواطن الأمور ولكم أخاه في كتفه قائلًا:

- "لأ دا أنت طلعت صايع أهو أومال عامل نفسك أهبل ليه؟"

- "مش فاهم تقصد إيه؟"

- "لكن أنا فهمت قصدك، فهمت إنك هتروح مع البت عشان تعرف أسلوب استخدامها للرمح عشان لما نحارب معاهم تبقى فاهم هي بتعمل إيه، صح؟"

ابتسم علي كابتسامة أخيه وقال:

- "صح" .

غمز عمار لأخيه الأصغر وقال:

- "كدا أنا بدأت أطمن عليك" .

فعل واحد قد يُفهم بأكثر من طريقة، الكلمة الواحدة لها الكثير من المعاني، قول واحد قد يحمل ألف مقصد، حروف جامدة تصاغ لتكوين الكلمات كل يفهمها بطريقته، فالأقوال ثابتة لكن المقاصد تتغير .

كما أن الأرض ثابتة ومواقف من عليها تتغير .

كانت جاكلين تجلس بجانب ابنة عمتها ورفيقة صباها ليلة فوق حصيرتها تتحدثان كعهدهما، فعلى الرغم من اختلاف الشخصيات كانت جاكلين وليلة أكثر من الأخوات، جمعت بينهم تربية زينب لكن كل منهما تأثرت بالتربية بطريقةٍ مختلفة .

- "يعني إنتي ناوية على إيه؟"

- "عارفة يا ليلة، لولا إني لو كسرت المعاهدة اللعنة هترجع وهتقضي على كل اللي في الجنوب أنا كنت قتلتتهم" .

- "قتلتي مين يا مجنونة انتي هو في حد بيجري ورا الحرب" .

- "أنا من غير المعاهدة دي كنت سقيت الصحراء بدمهم من أول يوم زي ما قتلوا أمي وأم الغلبان خالد" .

- "انتي عرفتي مين اللي قتلها؟"

- "عرفت ومش هنام وارتاح غير لما انتقم منه، أنا لسه مستنية فرصة" .
أدركت ليلة أنها لو قضت لياليًا من الحديث وصبت آلاف الكلمات على مسامع جاكلين لن تغير وجهة نظرها، فمنذ متى وآراء الركاب تغير وجهة السفينة؟ ورغم كل شيء جاكلين ما زالت ولي العهد، الذي خلقت رأسه من حجارة أكثر تحجرًا من جبال صحراء إيڤانوس، فرأت ليلة أن تغير دفة الحديث إلى بعض اللهو وقالت:
- "بس سيبك من الكلام دا سوسن مخلفة قمرين، مش حرام الأبيض الحلو دا يتقتل" .
نظرت لها جاكلين ولوت شفتيها وقالت:
- "إحنا في إيه وانتي في إيه دلوقتي؟"
- "يا حبيبتي أنا في أي حاجة متجيبليش وجع الدماغ" .
- "طيب قومي قبل ما أصحي خالد يقتلك زي الغزالة" .
نهضت ليلة من مجلسها وركلت الحصيرة بقدمها وهي تتحدث بلهجة سريعة غير واضحة:
- "جاتكوا الأرف كلكوا أنا إيه اللي خلاني أسيب الفرفشة في بيتنا وآجي لحرب وقرف!"
ضحكت جاكلين من حديث ليلة ومن تقلب مزاجها المعتاد .
دائمًا تتعجب من أسلوب ليلة البسيط في التعامل مع المشكلات، تحل كل شيء بلا مبالاة ليس لها نظير، على الرغم من أن هذا الأسلوب يجعلها هوائية بعض الشيء إلا أنه يجعلها تنام كل ليلة مرتاحة البال لا يشغل عقلها سوى ما تغنيه في اليوم المقبل في دار زينب، وهذا أجل ما تحتاج إليه جاكلين، تحتاج لراحة البال والهدوء، تحتاج أن تنام بذهن نقي لا يحسب الأيام ليأخذ بالثأر لوالدتها، تنام دون أن تخشى الاستيقاظ على نبأ قتل أحد أو قيام الحرب، تود لو أن يخلو ذهنها من التفكير في أهل الجنوب وتوفير احتياجاتهم وغذائهم، ألم أقل لك أنها عمود الجنوب الذي إذا سقط وقع سقف المعبد على من به .
لكنها تمنت لو خلقت لا تعبأ بشيء ولا تهتم بشيء سوى سعادتها، لكنها سرعان

ما تراجعت عن هذه الأمنية، فهي راضية عن ذاتها كما هي، حتى وإن كانت تعاني لكن يكفيها شعورها بأنها ذات قيمة يكفيها الشعور بأنها ولي عهد الجنوب .

خلقنا جميعًا من طين .
وإن كان طين الأرض واحد لكن نفوس البشر متغيرة .

في أي زمان وفي أي مكان لا يوجد من يترك فرصة تمر من بين يديه مرور الكرام، ماذا لو أن هذه الفرصة هي القدرة على اختراق الحواجز الزمنية وحواجز البشر، معرفة كل ما تكتمه النفوس وكل ما انطوت عليه الأيام .
ماذا لو أن بإمكانك معرفة الأحداث التي نسيها حتى أصحابها، لكن كرة فخر لا تنسى أبدًا .
لم تمض سنة على يوم رفض سمر للشاب زميلها حتى بدأت السير في ما أطلقت عليه (حاجة أكبر)، ومن في الشمال أكبر من عمار؟! كل من في الشمال يعلم أن عمار سيصبح زعيم الشمال بعد الشوام، من غيره سيكون وارثًا لسلطة أبيه؟
وكما أخبرتك يا صديقي لا يوجد بيننا من يترك فرصة تمر من بين يديه دون أن يستغلها، وبالنسبة لسمر لم تجد فرصة أفضل من عمار .
تقربت سمر ووالداها للشوام وكثرت زياراتهم لمنزله، ازداد التصاق سمر بكل من في منزله حتى يعلم الناس أنها من عائلة الزعماء ومن يحكمون الشمال .
فعلت كل ما بوسعها لتجعل عمار يطلبها زوجة له لترتقي سلم الرفاهية دون عناء، أما عمار فلم يكن يمانع ولم يكن متحمس، فموضوع الارتباط والزواج هذا لا يثير اهتمامه بقدر كبير، بل كان أكثر ما يشغله هو عمله في الشمال والترتيب لليوم الذي سيصبح فيه الزعيم، لكن دائمًا النفس تميل لمن يسعى إليها .
بمرور الأيام أصبح تقرب سمر لعمار يشبع غروره ويرضيه، وتأكد أنه قد ضمن الزوجة وضمن الزعامة، لكن مخطئ من يأمن تقلب الأيام وتغيرها، مخطئ من يظن أنه قد ضمن شيء في المستقبل، فكل شيء يتغير بين ليلة وضحاها .
كانت سمر تعلم أن علي ابن الشوام معاقب على فعلة ارتكبها، لكنها لم تكن تعلم ما هي ولا أحد يعلم ما الذي جعل الشوام يعاقب ابنه الأصغر، وما الذي جعله يرضى عنه مرة أخرى .
ذات يوم أشرقت الشمس كعادتها لكنها أشرقت وشهدت على تغير حال منزل

الشوام .
خرج الشوام من منزله وتوجه لمنزل والد سمر لأول مرة ، فلم يكن من المعتاد أن يقوم الزعيم بزيارة الرعايا في منازلهم حتى وإن كانوا أقاربه، وصل الشوام لمنزل والد سمر وبدأ الحديث معه:
- "بنتك سمر عاملة إيه؟"
- "كويسة الحمد لله هو في حاجة يا شوام؟ أول مرة تزورني في بيتي" .
- "في موضوع مهم عاوز أقُلهولك بس دا سر" .
- "قُل يا شوام سرك في بير" .
تنحنح الشوام وأطرق للحظات ثم قال:
- "أنا قررت أتنازل عن الزعامة لابني وعاوز أخطب له سمر" .
تهللت أسارير الرجل، ها هو النعيم يفتح أبوابه على مصارعها لتدخل ابنته بيت الشوام وتسكب النعيم على الأسرة كلها، لم ينتظر حتى أن يفكر لكنه قال واللهفة تظهر من بين حروفه:
- "وماله يا شوام عمار يستاهل كل خير وأنا مش هلاقي لبنتي أحسن منه" .
صمت الشوام قليلًا ثم قال بهدوء:
- "أنا هتنازل عن الزعامة لعلي وعاوز أخطب سمر لعلي" .
- "علي؟ ليه كدا دا عمار الكبير" .
- "في أسباب تمنعني من إني أتنازل لعمار عن الزعامة" .
وقفت الكلمات في فم الرجل يحاول أن يفهم ما هي الأسباب التي قد تمنع عمار من أن يصبح الزعيم رغم أن هذا ما كان يتوقعه كل أهل الشمال .
أراد الشوام أن يقطع عن الرجل حيرته فقال مستطردًا:
- "علي طالع لسوسن في كل حاجة، عشان كدا لازم أختار له زوجة شبهي عشان يحكموا بنفس أسلوبي أنا وسوسن" .
سمر طموحة وعاوزة تبقى في مكان أحسن ودا المطلوب، عشان أكون صريح معاك أنا بدور لابني على واحدة تبقى زيي لأن أسلوب سوسن وعلي ميحكمش بلد .

- "وأنا موافقة" .
قالتها سمر دون استئذان وهي تخترق مجلس والدها والشوام فنظرا لها باستغراب فأكملت الفتاة كأنها تسمع كلمات حفظتها عن ظهر قلب:
- "أنا موافقة أتجوز علي يا زعيم" .
نظر لها الشوام وابتسم بجانب واحد من وجهه وقال:
- "بس الخطوبة هتبقى قبل ما أتنازل عن الزعامة بشهور" .
لم تتمهل سمر وقالت دون تفكير:
- "وماله، أنت أكيد مش هترجع في كلامك مش كدا ولا إيه؟"
نظر الشوام لوالدها وقال:
- "مش قولتلك عاوز واحدة شبهي" .
لم تمر عشرة أيام حتى وجد علي نفسه مقيد بخاتم خطبة سمر، التي لم يخترها قلبه ولا عقله، بل اختارها منطق والده، ووجدت سمر في يدها خاتم الخطبة التي ستفتح لها أبواب الجنة لتدخل إليها وتأخذ من أنهارها ما أرادت .
ها هي سمر تخسر كل شيء في سبيل الوصول للرفاهية، خسرت شاب أحبها بصدق وخسرت صديقاتها اللاتي اعترضن على أسلوبها في السعي وراء ما تريد، خسرت أيام قضتها في محاولة لفت انتباه عمار وحين انتبه لها وأعجبه تقربها له تركته وأصبحت خطيبة أخيه .
ليست خطيبة أخيه بل خطيبة الزعيم، ترتب للزواج بالمال والسلطان وكرسي الزعامة فقط، فلو قالوا لها أن الشوام ذاته سيستمر في الحكم ويريدها زوجة له لما ترددت لحظة واحدة .
أخذت مبادئها تتساقط واحدًا تلو الآخر حتى أصبحت كالشجرة التي سقطت أوراقها في عواصف الخريف .
ها هي تلك الشقراء التي أحبها شباب الشمال .
من قال أن كل ما له مظهر جذاب سوف يضيف لحياتك شيء أفضل؟
من الممكن أن يأتي صاحب الوجه الجذاب ليزيد قبح حياتك .

من منا يعلم المخفي؟ من منا يعلم ما يوجد بداخل القلوب وما يختبئ خلف الأستار .

نسير بجانب بعضنا في طريق الحياة المزدحم لا نعرف بعضنا البعض، لا نعرف شيئًا عن من حولنا سوى وجوههم فقط، لا نرى سوى ملامحهم دون أن نعلم ما تخفيه هذه الملامح، لا نعلم ما مر به الآخرون حتى وصلوا للشخصيات التي نراها الآن .

لكن بيننا من يحاول أن يفتش في سطور الماضي ليفهم حكايات الآخرين .

يحاول أن يدرك ما الذي مرت به هذه الفتاة؟

ما الذي رأته جاكلين لتتقبل كونها ولي العهد وتترك حياتها كفتاة، لذا قرر المحاولة، قرر أن يجعل نفسه جزءًا من حياتها الغامضة حتى لو رفضت هي ذلك، حتى لو رفضت أن تجعله جندي مرابط على حدود حياتها، سيفعل كل ما بوسعه ليفهم سر هذا الوضع، وأول خطوة لتنفيذ قراره كانت طلبه بأن يذهب معها للصيد، رغم أنها حرفة ليس لها قيمة في الشمال لكنه أراد أن يتحدث معها تحت أي مسمى كان .

استيقظت جاكلين من نومها وارتدت ذات الشيء الذي ترتديه ليلة دومًا، يشبه الفستان من الأعلى ويشبه البنطال من الأسفل لكن على عكس ليلة التي تفضل الملابس العارية ارتدت جاكلين له أكمام وسيقان مغطاة، ثم عقدت شعرها فوق رأسها وأخذت رمحها وخرجت من المنزل متسللة قبل أن يستيقظ أحد، وعلى الأخص قبل أن يستيقظ الفتى الشمالي الذي يطلق عليه أهل الشمال زعيم .

خرجت من المنزل في خفية وسارت بضع خطوات هادئة قبل أن يقوى نور الشمس، لعلها تتخلص من طلب علي، لم تستطع أن ترفض ما طلبه أو حتى أن تناقشه، فعلى الرغم من كرهها لكل من له لون أبيض لكن موقف علي أمام فخر وأمام الشماليين حين اكتشفوا كونها فتاة ألقى فوق عاتقها جميل يجب أن ترده .

- "أنا جاهز" .

التفتت جاكلين لمصدر الصوت فوجدته هذا الزعيم الأبيض، فتمنت لو أن سقف

المنزل قد وقع عليها أثناء نومها .
- "انتي كنتي بتهربي ولا إيه؟"
قالها وهو على يقين أنها كانت تحاول التهرب، فأجابته محاولة أن تداري حقيقة أنها كانت تهرب فعلًا .
- "لا أنا فكرتك نسيت" .
- "لو مضايقة إني هاجي معاكي ممكن أرجع" .
- "لأ عادي دا حتى خالد تعبان ومش جاي معايا" .
كانت تكذب وهو كان يعلم أنها تكذب، لكنه تقبل الوضع وأخذ يحاول أن يفتح معها مجالات للحديث، وما أن تحدث في موضوع حتى أغلقته بإجابات مقتضبة لا يجد بعدها ما يقوله، حتى وصلا إلى الأرض التي سيبحثا فيها عن باقي أُسرة الغزالة الصغيرة فوجد علي موضوعًا من الممكن أن يجمعهما في الحديث فقال لها:
- "هو مين خالد دا؟"
فهمت جاكلين أنه ما زال يبحث عن شيء لتتحدث عنه، لكن هذه المرة كان اختياره موفق بعض الشيء فأجابته:
- "ممكن تعتبره أخويا الصغير" .
- "بس هو مش أخوكي، مين دا؟"
- "واحد من الجنوب وأنا بثق فيه" .

نفذ صبر علي ولم يقو على تحمل هذه الردود الجافة مرة أخرى فآثر الصراحة وقال:
- "إنتي ليه بتعملي كدا؟"
رأت جاكلين أن هذا أفضل سؤال سأله لها منذ أن قرر أنه سيرافقها هذا الصباح، فرأت أنه من الأفضل أن ترد بصراحة هي الأخرى:
- "عشان مش لاقية مبرر واحد يخليك تتكلم معايا، واحنا مفيش حاجة مشتركة بينا غير إننا أعداء" .

- "واحنا ليه أعداء؟ ليه قررتي أن احنا أعداء واحنا منعرفش بعض؟"
- عشان احنا عمرنا ما هنكون غير كدا، احنا أعداء غصب عننا أنا وأنت ولاد ناس عايشين عشان يقتلوا بعض وكل واحد فيهم ليه دم عند التاني" .
- "مش إنتي بتحبي أهل الجنوب وعاوزة مصلحتهم؟"
- "مفيش حاجة بعملها غير عشان مصلحتهم" .
- "لو دخلنا في حرب ومات ناس من أهلك هتكوني مبسوطة؟"
لم يتلق منها أية إجابة فأدرك أن حوارهم بدأ يأخذ مجراه الصحيح فاستكمل:
- "ليه نكمل في حرب هما اللي اختاروها واحنا ملناش ذنب فيها، ليه ناس تدفع ثمن حاجة ملهاش دعوة بيها؟"
لم يتلق منها رد هذه المرة أيضًا فأكمل:
- "أنا دايمًا كنت بسمع عنك، قصدي عن ولي العهد يعني، وكنت عارف إنك أكثر حد تهمه مصلحة الجنوب، لو تهمك مصلحة الأرض فعلًا فكري،
أنا متأكد إنك ناضجة، ولو فكرتي هتعرفي أن الحرب هتبقى خراب ليا وليكي" .
نظرت له وشبح الابتسامة يظهر فوق شفتيها وقالت:
- "هفكر عشان مصلحة أهلي مش أكتر" .
تنفس علي الصعداء وشعر أن خطته بدأت تسير على الطريق الذي أعده لها، فعاد لحديثه السابق بابتسامته المعهودة:
- "مين بقا خالد دا؟"
اتخاذ أي قرار سيكون أسهل إذا وجدت من يشجعك عليه، أي فعل تقوم به تحتاج فيه لمن يؤكد لك أن هذا هو الصواب، القرار الحكيم الذي ما زال في عقلك يحتاج لمن يشعرك أنه هو الأفضل، النضج الذي في تفكيرك يحتاج لمن يشجعه والجمال بداخلك يحتاج لمن يبحث عنه .

****

-٢- النضج وضيق الفكر

النضج هو أن ترى في العقبات فائدة، وضيق الفكر هو أن ترى في العقبات نهاية المطاف .

إذا كانت العقبات هي الحجارة في منتصف طريق الحياة، فالشخص الناضج هو الذي تعرض لمواقف تفوق قدرته على التحمل ولم ينهار، هو الذي استخدم تلك الحجارة لبناء سلم يصعد فوقه ليرى ما لا يراه من يقف على الأرض .

أما ضائق الفكر ما أن يرى عقبة أمامه حتى يتعثر بها ولا يحاول النهوض مرة أخرى، بل يرى في كل عقبة نهايته .

يكرر أخطاءه ولا يتعلم منها، يقع كل يوم في ذات الحجر ألف مرة، ثم يجلس وحيدًا يندب حظه ويتساءل لماذا أنا؟ يتساءل دون أن يجد إجابة .

خلاصة القول النضج هو أن تجد في العقبات قوتك .

النضج يضيف لعمرك سنوات لم تعشها، وضيق الفكر يسرق من عمرك سنوات .

****

هناك أوجه أخرى للعالم لم ترها ما دمت لا تفكر،
وهناك متع خفية لن تجربها ما دمت لم تحب .

هل جربت أن تتحدث مع عقلك حتى يرهقك التفكير؟ هذا بالضبط هو الحال الذي قضت به جاكلين ليلتها وبضع ليالٍ مقبلة، تفكر في ثأر والدتها وتفكر في نهر الدماء الذي يسري بين الشمال والجنوب، لكن كلام علي أثر فيها سواء اعترفت بذلك أم لا، فكرت في حديثه وحديث زينب من قبله، ماذا لو طال الموت أهل الجنوب أو طال زينب أو ليلة!

ليالٍ من التفكير لم تصل فيها لأي شيء، مرهق هو هذا التفكير المليء بالأسئلة التي ليس لها إجابة، تضع علامة الاستفهام أمام السؤال وتترك مكان الإجابة خاليًا .

على كل حال هدأ الوضع كثيرًا على الرغم من عدم توصلها للقرار، لكنها رأت أن لا مانع من تعمير الأرض الآن وتجنب الحرب قليلًا، لكن تأخيرها لا يعني إلغاءها فحتى مرور الأيام لن ينق الدم ولن يجففه .

مرت الأيام على سكان صحراء إيڤانوس شاقة تارة ومرهقة تارة أخرى، مرت أيام نام فيها علي دون أن يشعر من العمل طوال اليوم في الزراعة، ومرت أيام أخرى على جاكلين دون أن يغمض لها جفن من التفكير .

شقت العيدان الخضراء أرض الصحراء الجافة، واخضرت الأرض، عثر خالد وجاكلين على بعض الدجاجات والماعز، فأعطوها لزينب لتربيها ويأكلون من خيراتها، بحيرة إيڤانوس لا تجف ماؤها ولا تنضب، بمعنى أصح تعمرت الأرض إلى حد ما وبدأ وجود ملامح للحياة البشرية هنا .

جميل هو ذاك الوقت الذي يتم فيه تغليب مصلحة الجماعة على الصراعات الشخصية .

حل ليل يوم من الأيام وجاءت الحكيمة فخر لتراهم وترى أحوالهم مثلما فعلت بضع مرات سابقة، تفقدت أحوال الأرض مع عمار حتى توصلت للحلقة التي يجلسون فوق حجاراتها حول شعلة النيران، وطلبت من عمار أن يجمع

لها سكان الصحراء، فما هي إلا دقائق وقد ارتص كل من فيها فوق الحجارة يستمعون لحديثها المعتاد، ثم أدارت وجهها لسمر دون مقدمات وسألتها:
- "لو رجعتوا الشمال يا سمر ناوية تعملي إيه؟"
جاء رد الأخرى كأنها قد ضمنت المستقبل وعلمت خباياه وقالت بثقة:
- "أكيد هنتجوز أنا وعلي" .
- "وبعدين هتعملي إيه؟"
ضحكت الأخرى ضحكة صغيرة وقالت:
- "لا أنا مش هعمل هيكون في ناس تانية هي اللي بتعمل هههههه" .
أدارت فخر وجهها عنها وهي تقول في داخلها (كرتي لا تكذب أبدًا) .
- "وانتي يا ليلة؟"
- "هرجع دارنا أغني لأهل الجنوب" .
- "انتي متجوزة يا ليلة؟"
- "لأ أنا متجوزة الغنا" .
أرادت سمر أن تصبح خفيفة الظل ولكنها كالعادة لا تفرق بين خفة الظل وانعدام الذوق، فنظرت إلى ليلة وقالت:
- "أنا مش عارفة إزاي بتتجوزوا وتخلفوا أطفال لونهم أسود من يوم ما يتولدوا كدا؟"
قالتها وتبعتها بضحكة قصيرة متقطعة، فنظر الجميع لـ ليلة منتظرين اشتعال شجار جديد، لكن ليلة ابتسمت ورفعت حاجبها ودقت بكعبها في الأرض فرن خلخال قدمها، وقالت بنغمة صوتها المرحة:

- "دول عايروني وقالوا لي يا أسمر اللون يا لالالي
صحيح أنا أسمر وكل البيض يحبوني يا لالالي
يا عود قرنفل ما بين النهد شبكوني يا لالالي" .
ردت زينب أنغام ابنتها وأخذت تشاركها الغناء، بل وتشاركها أيضًا في رنة الخلخال .

كانت هذه هي طريقة زينب وابنتها في رد العداء، ما أن واجهتهم عقبة حتى ابتسمتا لها وانتصرتا عليها دون الدخول في معارك وجدالات، تنتصران وسلاحهما الوحيد هو التبسم والمرح .

فمن وجد منفذ للخروج من همومه نام مرتاح البال .

مهما ازداد ملكك وكثرت الناس من حولك لا شيء يستحق الحفاظ
عليه أكثر من الجمال بداخلك .
فكل شيء زائل ولا يدفع الثمن إلا أنت .

في غرفة نائية على أطراف الجنوب كانت هناك امرأة تنازع الألم، صوت صراخها يشق سكون الليل الهادئ وينذر بوجود خطر ما، ما الذي يجعل امرأة تصرخ بهذا الألم؟ وما الذي أتى بامرأة هنا من الأساس؟

إذا اقتربنا قليلًا من هذه الغرفة الخشبية سنتبين ملامح المرأة بوضوح، إنها ليست امرأة عادية، إنها زينب!

إنها زينب لكن منذ ثلاثين عام، نفس ملامحها وسمارها الجذاب، لم تغيرها السنوات ولم تتبدل ملامحها، لكن في هذا الموقف كان الألم يطغى على وجهها، كانت تصرخ بصوت كادت أن تنشق له أحبالها الصوتية، أخذت تصرخ دون أن تجد من يغيثها أو ينقذها فمن الذي سيأتي لهذه الصحراء لينقذ امرأة لا أحد يعلم بوجودها هنا، لكن لا شيء يختبئ على هذه الأرض .

فتح باب الغرفة ودخل رجل طويل القامة ضخم البنية عيناه يخرج منهما شرارة الغيظ والحنق، ما أن وضع قدمه في الغرفة حتى صمتت زينب وسكن صراخها كأنها أخذت تبتلع الصرخات دون أن تخرجها من حلقها .

أخذت تتصبب عرقًا دون أن تنطق بكلمة، فاقترب منها الرجل دون أن يتحدث، لكن صمته هذا زاد الخوف بداخلها، لم تكن خائفة بل كانت أوصالها ترتعد من الرعب .

- "أرجوك سيبني لساعة واحدة، وبعدين اعمل اللي أنت عاوزه" . قالتها من بين أنفاسها المتقطعة وكأنها تركض منذ سنوات، لم تتلق منه ردًا حتى عينيه لم تكن تنظر إليها، بل كانت شاخصة في الفراغ، فأخذت تتوسل إليه:

- "أرجوك ساعة واحدة بس" .

- "وبعدين؟"

خرج صوته من بين أسنانه كأنه لم يفتح فمه منذ أن خُلق وصدأت أسنانه، تلهفت زينب حين فتح فمه فخرجت منها الكلمات غير مرتبة:

- "ساعة واحدة بس هولد، وبعدين هعمل كل اللي أنت عاوزه، بس أرجوك انقذني" .

خرج الرجل وبعد دقائق دخلت الغرفة امرأة أخرى أرسلها الرجل لتنقذ زينب، فعلى الرغم من أنها كانت تلد والأمر ليس خطيرًا إلا أنها كانت في حالة سيئة، وتنبأت الداية التي أرسلها الرجل بوفاة زينب أو مولودها، أخذت تصرخ دون توقف، تهدأ لحظات لتلتقط أنفاسها ثم تستكمل صراخها أقوى من ذي قبل، حتى شاء القدر وشاركها في الصراخ بكاء طفل صغير لم يفتح عينيه بعد، ما أن سمعت زينب صوت صغيرها بجانبها حتى هدأ روعها، صغيرها أو صغيرتها هي لا تعلم، فقد قامت الداية بتغطية الطفل بالأقمشة ووضعته بجانبها دون أن تخبرها ما نوعه .

أنهكت زينب وخارت قواها بعد هذا المجهود، الذي يشبه في عنفه تسلق أعلى قمة جبلية، وبدأت عيناها تغلقان ويسيطر النوم عليهما، لكن قبل أن تذهب بوعيها دخل الرجل وقال كأنه يسمع جملة قد سبق وحفظها كثيرًا:

- "هتباتي هنا النهاردة، ومن بكرة كل حاجة هتتغير، دي آخر ليلة" .

حركت زينب جفونها دون أن تنطق، فما تبقى لها من قوة يعينها على التنفس فقط، فقام الرجل بتكرار جملته:

- "بفكرك تاني دي آخر ليلة" .

أُغلقت عينا زينب وهي ترى أقدام الرجل تغادر الغرفة وبعد ذلك لم تر شيء، ذهبت إلى عالم آخر، عالم الكوابيس والذعر الذي لا ينتهي .

ما مصير الطفل أو الطفلة النائم بجانبها؟

هل حقًا وضعت طفل أم طفلة؟

ما الذي سيفعله بها هذا الرجل؟ هل تسرعت في قبول شروطه قبل أن تعلمها؟ لكن ماذا كانت ستفعل غير ذلك؟ حتى لو ضحت بحياتها كلها مقابل أنفاس هذا الصغير بجانبها لن تحزن، يكفيها أنها ستضحي بحياتها مقابل حياة جزء منها .

لكن المؤكد أن أخاها سينقذها، لن يتركها أيوب هكذا، ما كل هذه الكوابيس

والأفكار التي لا تتركها، هذا الكم من الكوابيس من الممكن أن يوزع على ليالي العام بأكمله لا أن تحظى به كله في ليلة واحدة .
لكنها ليست أي ليلة، إنها آخر ليلة .
- "اصحي بقا كفاية" .
فتحت عينيها بتثاقل ونظرت حولها فتذكرت ما حدث ليلة الأمس، وقالت للداية الجالسة بجانبها:
- "في إيه؟!"
- "إنتي طول الليل بتقولي كلام مش مفهوم، كنت خايفة منك" .
- "بعد اللي شوفته الأيام اللي فاتت مبقاش في حاجة تخوف" .
ثم تذكرت زينب أنهما ليستا بمفردهما، بل هناك أنفاس صغيرة تشاركهما هواء الغرفة .
- "هو أنا خلفت إيه؟"
أمسكت الداية بالجسد الصغير الملتف في الأقمشة وأعطته لزينب وقالت:
- "جبتي بنوتة زي القمر، هتسميها إيه؟"
فكرت زينب للحظات نظرت على جدران الغرفة المحيطة بها وأمسكت بالصغيرة واقتربت منها وهمست في أذنها:
-" أنا هسميكي ليلة" .
حتى وإن خسرت كل شيء، حتى وإن دفعت حياتها ثمنًا لحياة هذه الصغيرة ستكون راضية، ستضحي بكل شيء مقابل تلك الصغيرة النائمة على صدرها، فإن كان الله قدر أن يبعث الحياة في هذه الطفلة من روح والدتها، فوالدتها ستدفع حياتها ثمنًا لحياة الصغيرة .
أن كانت هذه آخر ليلة، فزينب الآن لديها ليلة ستحيا كل يوم .

"ومين بإيديه يعرف بكرة شايل إيه!
ومن إمتى يدوم الحال، فمن دلوقتي أرضى بكل الأحوال" .

مرت الأيام أو السنوات على أرض الجنوب، ليال وأيام لا يعلم أحداثها إلا من عاشها .

إذا أردنا الدقة هم سبع سنوات بالتحديد منذ ذلك اليوم الذي وضعت زينب فيه صغيرتها، سبع سنوات مروا بعد أن ازدادت أنفاس البشر بأنفاس ليلة، تغير كل شيء .

أصبحت زينب وابنتها أكثر تقربًا لأيوب، افتتحت زينب دار جديدة بعد أن احترقت دارها الأولى بدون سبب واضح، تم تحريم الرقص في الجنوب باعتباره جريمة يعاقب صاحبها بأقصى العقوبات، لم يعلم أي من في الجنوب سبب تحريم الرقص، وآخر التغيرات السريعة كانت انعقاد المقاطعة مع أرض الشمال بدون سبب واضح أيضًا .

وهكذا حياتنا، هناك أشياء كانت وستظل مجهولة لا نعلم لها سبب، هناك قرارات لا نعلم لماذا اتخذت، حتى أصحابها لا يعلمون .

وفي هذه التغيرات غير المبررة نشأت الصغيرة، حتى وصلت لسن السابعة، لكنها لم تكن تعلم أن هناك أشياء لا يوجد لها أسباب، وهناك أسئلة ليس لها إجابة فكثيرًا ما سألت خالها أيوب:

- "هو أنا أبويا فين؟"

فيأتيها نفس الرد في كل مرة:

- "أبوكي مات في الحرب ضد الشمال قبل ما انتي تتولدي" .

حزنت الصغيرة كثيرًا لهذه الإجابة، لكن أيوب أقنعها أنه يحل محل والدها الذي ضحى بحياته مقابل مصلحة الجماعة، وكثيرًا ما أثبت لها أيوب أنه يراها ابنته التي لم ينجبها، فعلى الرغم من حدة طباع أيوب إلا أنه كان يحنو على ليلة كما لو كان والدها حقًا .

فنست الصغيرة السؤال عن والدها أو تناست عمدًا .

مرت السنوات اللاحقة هادئة على ليلة وعلى والدتها في دارهما تقضيان نهارهما نائمتين ولا يبدأ يومهما إلا بغروب الشمس .

أليس لكل عصر أذان؟ كانت زينب وابنتها هم أذان الليل، تغرب الشمس فتجهز ليلة الدار لاستقبال أهل الجنوب الراغبين في الاستمتاع بأنغام زينب وهي تشق أحبالها الصوتية وتملأ الفراغ من حولها بالبهجة، وفي كل يوم تقف الصغيرة في ركن الدار لا تنظر لأحد سوى والدتها ولا تسمع صوتًا سوى صوتها، تقف بذهن صافي وكأن عينيها كاميرة مراقبة ترصد كل ما تفعله والدتها وتحفظه عن ظهر قلب، ثم تجلس في غرفتها بعد انتهاء اليوم وجلاء زوار الدار تقلد ما كانت تفعله والدتها؛ لعلها يومًا تصبح مثلها حتى جاء يوم وسمعت جملة أرقت ذهنها من التفكير، حتى قررت أن تسأل والدتها، دخلت الصغيرة غرفة زينب مساءً فوجدتها تجلس فوق سريرها فسألتها الصغيرة:

- "إنتي بطلتي ترقصي ليه؟"

- "أنت عارفة أن الرقص ممنوع" .

- "أنا سمعت واحد من اللي بيسمعوكي وانتي بتغني بيقول إنك زمان كنتي بترقصي والرقص مكانش ممنوع، ليه أيوب منع الرقص؟"

تنهدت زينب وعلمت أن أي كذبة ستقولها لصغيرتها لن تتقبلها، وستظل تبحث حتى تصل لإجابة مرضية على الرغم من أن لا أحد في الجنوب يعلم إجابة هذا السؤال غير القلائل، ففضلت أن تتحدث مع ليلة كأنها تتحدث مع شخص ناضج كالعادة:

- "اسمعي يا ليلة، مش كل حاجة مسموح لنا نعرفها" .

- "يعني إيه؟"

- "يعني مش كل حاجة نسأل فيها، في حاجات لو عرفناها ممكن منقدرش نعيش بعدها والأحسن أنها تفضل مستخبية" .

- "طيب ليه . . . ."

لم تنتظر زينب أن تسمع سؤال صغيرتها بل قاطعتها وقالت:

- "بطلي تسألي أسئلة ملهاش إجابة، لا أنا ولا انتي ولا أي حد هيعرف إجاباتها،

اللي لازم تعرفيه أن احنا ربنا خلقنا نغني ونبسط الناس بس" .
تنبهت الصغيرة ذات الأربعة عشر عامًا لكلمة زينب وقالت مستفهمة .
- "إحنا؟"
- "أه إحنا، أنا عارفة إنك بتحبي تغني في الأوضة آخر اليوم، إيه رأيك تعملي كدا قدام الناس؟"
- "أنا مش فاهمة حاجة، إزاي هعمل كدا قدام الناس، أيوب هيوافق؟"
- "أيوب ملوش دعوة، إنتي كل يوم هتغني معايا قدام الناس وانتي وشطارتك بقى، لو الناس حبتك هتكملي معايا، حافظة الأغاني بتاعتي؟"
لم تجيبها ليلة، بل سرحت بخيالها تتذكر كم ساعة وقفت في ركن الدار تحفظ كلمات والدتها، وكم ليلة قضتها دون نوم لتسمع ألحان والدتها بصوت خفيض، تقف على سريرها كأنها المسرح وتغني ألحان والدتها أمام عرائسها لعلها تقف يومًا وتغني أمام بشر لهم آذان تسمعها حقًا، لكن لم يخطر ببالها أبدًا أن هؤلاء البشر سيكونون جمهور زينب الذي يسعى لدارها من كل أنحاء الجنوب .
مرت الساعات التالية على ليلة دون أن يغمض لها جفن، كيف تنام وهي التي ستقف أمام الجمهور وتضع قدميها فوق المسرح لأول مرة، قضت ليلتها ببال منشغل به ألف سؤال، لكنها حتى وإن انشغلت ستظل ابنة زينب، التي ورثت طريقتها في التفكير، فآثرت أن لا تبحث عن إجابات للألف سؤال ببالها، وأن تبحث عن سعادتها فقط لعلها تجدها على خشبة مسرح زينب .
"حلوة الدنيا لكن في صراعها،
رغبة بتحيا ورغبة تموت،
وخلايق تايهة في أوضاعها
المتشقلب والمظبوط من أوجاعها تعب متعها،
يا اللي عشقت الشجرة اطلعها قبل ما يخلص موسم التوت،
قبل ما يخلص موسم التوت" .
كانت تغني مغمضة العينين متخيلة أنها تغني لعرائسها كالمعتاد .
وما أن توقفت عن الغناء حتى فتحت عينيها على صوت التصفيق المدوي من

كل من يجلس أمام المسرح .
في هذا اليوم سرت في جسدها قشعريرة النصر، هذا الإحساس الذي ينتابك حين تشعر أنك وجدت ذاتك ووجدت ما يلائمك، حتى وإن كانت أحلامك وآمالك تعتبر تافهة بالنسبة للآخرين يكفي أنها تسعدك، يكفي شعورك بأنك وجدت المكان المناسب لك، يكفي شعورك بالرضا وأنت تفعل ما تحب .
منذ أن سرى بجسدها هذا الشعور لم تسمح له أن يغيب، توالت الأيام وهي تقف على المسرح كل ليلة، تخرج كل ما تشعر به في الغناء حتى علا نجمها، وأصبح لها جمهور خاص بها يأتي ويطلبها بالاسم .
وبمرور السنوات أفسحت زينب الطريق لابنتها التي أصبحت مغنية الجنوب الأولى وعاش كلاهما سعيد .
سعدت زينب وهي ترى أن ما رسمته لحياة ابنتها يسير كما أرادت، كانت تسعد حينما ترى أن حياة ابنتها لا يوجد بها شيء سوى الغناء والطرب، حياتها خالية من الصراعات التي حرمتها من والدها، وحرمت كل أهل الجنوب من التعامل مع من أرادوا وعلى الناحية الأخرى كانت ليلة سعيدة بهذه الحياة، تنام طوال النهار وتستيقظ قبيل المغرب لتعد ما ستفعله على المسرح وتعد نفسها أيضًا، تعتني بشعرها الغجري المجعد وببشرتها السمراء الناعمة، ثم ترتدي أحد فساتينها القصيرة وكثيرًا ما تفضل اللون الأحمر، تطلق شعرها دون رباط ثم تضع أحمر شفاهها، وتخرج للمسرح فينجذب كل من يراها لرنة خلخالها ولوشم قرني الغزالة، الذي يحتل كتفها المكشوف، ثم يزيد انجذابهم لها حين تطلق أنغامها فتأثر القلوب بهذا الشجن في صوتها .
أجل ما كان يجعلها تبدع في الغناء هو أنها لا تحب شيئًا كما تحبه، وهذا ما يحدث حين يجتمع العمل والموهبة في أن واحد .
فإذا كان عملك هو تنفيذ لموهبتك فأهلًا بالإبداع .

إذا يومًا وجدت شيئًا يجعلك سعيدًا لا تتخل عنه مهما كانت الظروف٠٠ حتى وإن كان طريق الوصول لما يسعدك صعب٠٠ لا تتوقف في المنتصف فإن نقطة الانتصار تستحق أن تتعب من أجلها٠٠٠

يكفيك لحظة السعادة التي تقضيها في فعل شيء تحبه٠٠٠

الأشياء المعنوية لا نستطيع تحجيمها في شكل معين، أو أن نرمز لها برمز ثابت .
ومن أنقى المفردات المعنوية هي "الحرية"، تستطيع أن تلمس الحرية في كل ما تفعله، كل ما تؤمن به، كل معتقداتك وأفكارك، كل ما تكتسبه في حياتك من خبرات يندرج تحت مسمى الحرية .
أنت من تختار ما تؤمن به، وتختار ملامح شخصيتك، وتختار من تكون والاختيار حرية .
أنت من يرى كل شيء أمامه ويفكر حتى يصل لوجهة نظر ورأي ثابت، حتى وإن كان خطأ يكفي أنك توصلت إليه بمفردك فالتفكير حرية .
مخطئ من ظن أن الحرية تكمن في أن يكون الإنسان طليقًا أو أسيرًا، إنما تكمن الحرية فيما يوجد داخل الفرد، ومن رأى الأشياء المعنوية في كل ما هو مادي تجنب الكثير من أخطاء التفكير وشعر بحريته .
وعلى هذه الأرض لا يوجد من يشعر بالحرية أكثر من جاكلين، كانت دومًا حرة لأنها كانت دومًا تمتلك حرية الاختيار .
كانت دومًا تختار من تكون، اختارت أن تتخلى عن الحياة الطبيعية التي تحياها أي فتاة وأن تصبح ولي العهد، اختارت أن تفضل مصلحة أهلها ومصلحة الجنوب وتجعلها فوق أنوثتها، جعلت الأخذ بثأر والدتها فوق كل شيء، اختارت متى تصبح أنثى أمام زينب وليلة، ومتى تصبح ولي العهد الذي تهتز له الأرض أمام أهل الجنوب .
حتى وإن كانت تحيا حياة مرهقة لا تتحملها فتاة، فإنها كانت تتحمل دومًا نتيجة اختياراتها حتى النهاية، حتى حين جنحت لتأجيل الحرب كان هذا القرار صادر من عقلها فقط دون سواه .
اقترب علي منها وهي تجلس أمام البحيرة كعادتها وجلس هو الآخر على الرمال بجانبها دون استئذان بعد ما أدرك أنه إذا استأذنها في أي شيء سيجد الرفض،

حتى وإن كان يطلب منها أن تعطيه كوبًا من الماء .
- "بتعملي إيه؟"
نظرت له جاكلين وهي لا تعلم من أين أتى هذا الأبيض، فحين تغرق جاكلين في تفكيرها لن تنتبه لما يحدث بجانبها، حتى وإن تصدع أحد الجبال المحيطة بها وسقط أرضًا .
- "بتفرج على البحيرة" .
- "هو أنا ممكن أسألك على حاجة؟"
- "أسئلتك كترت أوي" .
- "معلش استحملي شوية أنا لسه زعيم جديد وبكتشف" .
نظرت له بعدم فهم وقالت:
- "يعني إيه زعيم جديد؟"
هل أدركت مقدار الخطأ الذي ارتكبه كل من أيوب والشوام؟ هل أدركت أن عدائهم الدائم جعل أبناء الوطن الواحد لا يعرفون شيئًا عن بعضهم فضلًا عن شق الأرض التي تأويهم إلى شقين .
من عيوب المقاطعة أنها جعلت كل أرض في عزلة عن الأخرى، فحتى وإن كانوا أعداء من الخطأ أن ينعزلوا عن بعضهم .
عليك أن تعرف صديقك لتفهمه وتعرف عدوك لتحظره وفي الحالتين أنت المستفيد .
- "يعني أنا بقيت الزعيم قبل ما نعمل المعاهدة بأقل من يومين؟!"
نظرت له بسخرية كنظرة طلاب الثانوي لأطفال المرحلة الابتدائية، وقالت بابتسامة عابثة:
- "يعني أنا عملت معاهدة عشان تتحكم في مصير الأرض مع زعيم مكملش يومين في الحكم!! مش عيب؟"
تقبل علي سخريتها منه بصدر رحب، فإذا كان أهل الجنوب قد ورثوا حدة الطبع فإن جاكلين ورثتها مرتين، مرة لها ومرة لولي العهد .
- "ومش عيب إني أعمل معاهدة معاكي وانتي أصلًا نائب مش زعيم" .

- "أنا زعيم من يوم ما اتولدت، مش محتاجة تنازل من أبويا عشان أكون زعيم الجنوب" .
- "إنتي جايبة الغرور دا منين؟"
- "في فرق كبير بين الغرور والثقة في النفس" .
أطرق علي للحظات وقرر أن يسايرها في الحوار؛ لعله يكتشف هذا الغموض الذي حولها:
- "خلاص هغير السؤال وإزاي واثقة في نفسك أوي كدا؟"
- "عشان أنا شايلة حمل لو شاله جبل كان اتهد، أنت زعيم بقالك فترة قصيرة صح؟ تقدر تقولي حاسس بإيه؟"
فكر علي للحظات حاول فيها الوصول لما يشعر به فأدرك أن هذه الزعامة صرفته عن نفسه فأصبح لا يدري ما بها كأنه شخص غريب عنها:
- "حاسس إني مضغوط وشايل مسؤولية كبيرة، حاسس إني باخد قرارات هتأثر في ناس كتير ودي حاجة مرعبة" .
لم تنظر له بل ظلت محدقة في مياه البحيرة كأنها تتحدث مع نفسها وقالت:
- "الوضع اللي أنت فيه دا أنا عايشة فيه بمزاجي من وأنا طفلة، حروب ومعاهدات ومقاطعات واتفاقيات وقرارات بتأثر في شعب كامل،
شعب كامل مسؤوليته فوق رقبتي، شعب كامل لازم يكون شبعان وراضي، لو واحد منهم بس بات جعان هيعمل ثورة" .
لم يقاطعها علي ولم تكن تنتظر منه أن يتحدث، فبعض الكلمات لا تحتاج من يرد عليها، تحتاج فقط لمن يسمع .
التقطت جاكلين أنفاسها وأكملت:
- "واثقة في نفسي عشان شايلة مسؤولية أكتر من أي حد، أنا طول عمري بجري في سباق مش مهم آخره إيه، ولا بسابق مين، المهم إني مش هقف في النص" .
- "وإيه اللي جابرك على كدا؟"
- "أنا اللي اختارت كدا، وأنا عمري ما بختار حاجة وأسيبها قبل ما تكمل للآخر، حتى لو الحاجة دي صعبة المهم أكون راضية عن نفسي،

لما بكون راضية عن نفسي بكون بالثقة اللي أنت شايفها دلوقتي دي" .
صمتت وصمت علي مبهورًا من كلماتها، التي لا تليق على فتاة أبدًا، لكنه قرر أن يكمل الحديث الذي بذل مجهودًا كي يبدؤه وقال:
- "وأنا اللي كنت فاكر إني شايل مسؤولية وأنا لسه مكملتش شهر مكان الشوام!"
- "لأ أنا اتعودت، شيلت حمل لو كان شاله جبل من اللي حوالينا دول كان اتهد، وأنا متهدتش،
وبتسألني واثقة في نفسي ليه؟ اسأل الجبل أنت لسه واقف ليه؟"
قالتها وقامت من مجلسها وأدارت ظهرها له وسارت، أنهت الحوار دون أن تنذره أو تمهد لذلك .
تحدثت على قدر ما تريد، وحين انتهت كلماتها انتهى الحديث أيضًا، فهي من قرر أن يجيب على حديثه وهي من قرر إنهاء الحوار .
فولي العهد دائمًا وأبدًا كان صاحب القرار .
كان يراقب موضع قدمها فوق الرمال وهي تسير نحو منزل الجنوبيين، كانت ملامحها جذابة وهادئة كالفتيات، شعرها ناعم وطويل كالحسناوات، حتى آثار أقدامها فوق الرمال تشير إلى أن هناك فتاة قد مرت من هنا وهناك قدم أنثوي غاص في هذه الرمال .
لكن جاكلين لم تصغ يومًا لشهادة جمالها ونعومة شعرها وتأثر الرمال بموضع قدمها، حتى وإن شهدت لها كل هذه الأشياء وأقسمت أنها فتاة لن تقتنع جاكلين إلا بكونها ولي العهد .
ألم أقل لك أنها دائمًا وأبدًا كانت صاحبة القرار؟
ألم أقل لك أيضًا أن الاختيار حرية وهي زعيمة الأحرار؟
- "وكيف علمت أنك تمتلك كل هذه القوة بداخلك؟"
- "رأيت نفسي أتخطى عقبات كان من المفترض أن أسقط خلالها، رأيت نفسي وأنا أقاوم أمواج البحر وأهزمها، رأيت نفسي وأنا أتحمل ما أن وضع فوق جبل لانشق وتصدع،
أدركت مدى قوتي حين رأيتني أستيقظ مبتسمة بعد ليلة ذاب فيها قلبي ألمًا،

علمت ما يكمن بداخلي من قوة حين رأيتني أبدأ من جديد بعد النهاية، أقف بعد التعثر وأحيا بعد الموت» .

ما من أحد يستطيع أن يوقف تعاقب الأيام ولا أن يقلل من سرعة مرورها، ما من أحد يستطيع أن يتحكم في شروق الشمس ودبورها كل يوم، لكن ما يهون علينا مرورها هو أننا لا نعلم ما بها .

كثير منا يعتقد أنه سيستريح إذا علم ما تخفيه لنا الأيام، لكنهم مخطئون .

إذا علم الإنسان أن شيء جميل قادم إليه سيفقد ما بين يديه في انتظار هذا الجميل، أما إذا علم بقدوم شيء سيء يقضي حياته خائفًا من الآتي فيفقد حاضره خوفًا من مستقبله .

وككل البشر كان أهل صحراء إيڤانوس، لا يعلمون ما تخفيه لهم الأيام، فكاذب من ظن أنه عليم بما سيحدث بعد شروق شمس الغد .

أشرقت الشمس وكالعادة كانت جاكلين تمشط الصحراء بحثًا عن ما تصطاده مثل كل صباح .

ربطت خصلات شعرها فوق رأسها وسحبت رمحها من خلف ظهرها وتأهبت لتطلقه صوب فريسة اليوم، وبجانبها خالد غلامها المخلص الذي لا يتركها مهما حدث .

- «مش ملاحظة إنك تعبانة النهاردة؟»

قالها خالد لجاكلين وهو واقف بجانبها بعد أن لاحظ ذبولها واللون الأسود المحيط بعينيها فنظرت له وقالت:

- «منمتش كويس امبارح» .

- «ليه؟»

- «ولا حاجة كنت بفكر كالعادة» .

- «جاكلين ارحمي نفسك شوية كدا كتير» .

فتحت جاكلين فمها لتخرج منه الكلمات فقاطعها خالد قبل أن يسمع ما تأهبت لتقوله:

- «انتي بتتعبي نفسك زيادة في الشغل هنا، دي صحراء يا جاكلين واحنا هنا

ضيوف، آخر الحكاية دي هيكون إيه؟
أنا عارف آخرها، هنخرج من هنا بعد ما نقتلهم أو هنخرج مقتولين، وفي أحسن الأحوال هنعمل صلح وكل واحد يرجع أرضه، والمكان اللي انتي تاعبة نفسك بالشغل فيه دا هيرجع صحراء تاني، ارحمي نفسك شوية" .
أطرقت جاكلين للحظات ثم قالت:
- "هقولك حاجة مكونتش متوقعة إني ممكن أقولها، أنا . . . ." .
تحجرت عيناها وتوقفت الكلمات في حلقها وعيناها مصوبتان نحو نقطة ثابتة لا تتحرك .
استدار خالد ووجه بصره حيث تنظر جاكلين؛ ففتح فمه دون مقاومة من هول الصدمة، ودون اتفاق ركب كل منهما فوق ظهر حصانه وضربه بالسوط فأطلق حصان كل منهما صهيلاً ينذر بوجود خطرٍ ما .
تناثرت الرمال وتضخمت شبورة الغبار حوَل أقدام الخيول التي تسير بأسرع ما لديها لعلها تنقذ الموقف .
أي موقف؟ لم يصدق أيٌّ منهما ما رآه، بل أسرع من خطوات حصانه؛ لعله يصل سريعًا ويجد تكذيبًا لما رآه، تمنى كل منهما لو أخطأ الظن وأنه حين يصل سيجد شيئًا مخالفًا لتوقعاته .
هل جربت يومًا أن تركض عكس عقارب الساعة؟ تسير عكس التيار أو تسبح ضد الأمواج؟
جميعها محاولات تبوء بالفشل لكننا نقوم بها على أمل أن تنجح، لعلنا نوقف القدر أو نعطله لبضع دقائق فقط، كلما اقترب كل منهما من المكان المقصود ازدادت ضربات قلبيهما أو سار الوقت بسرعة أقل وازداد يقينهما من ما رأياه، ما أسوأ الشك الذي يتحول ليقين في حين ترجوه أنت أن يصبح سرابًا .

كثيرًا ما تشعر حولك بالفوضى .
لا تخشى الأيام على قدر ما تخشى السرعة المرعبة التي تمر بها الأيام .
استمر في الصراخ بأعلى ما تمتلكه من صوت حتى تخفض الدنيا من سرعتها قليلًا،
أو حتى لتشعر بوجودك .

ما أسوأ العين التي ترى مشاهد لا يصدقها العقل ويحزن لها القلب ويقف عندها الزمان .
وما أسوأ ما رأياه، كان الدخان الأسود هو سيد الموقف، النيران مرتفعة تكاد تصل لأبواب السماء، ألسنة اللهب تسير مسرعة وتلتهم كل ما في طريقها، لم تترك شيئًا دون أن تضع بصمتها فوقه، النيران مشتعلة في كلا المنزلين وما بهما، الجدران والحصائر، الأخشاب والستائر، حتى الزرع الأخضر اشتعلت به ألسنة اللهب .
أصوات صهيل الخيول ترتفع خوفًا من ما تراه، ويمتزج معها أصوات صراخ أهل الصحراء .
أهل الصحراء! ألم يعودوا أهل الشمال وأهل الجنوب؟ لا بل جمعت بينهم ألسنة اللهب .
بل جمع بينهم الصراخ والذعر .
كانوا يصرخون ويركضون صوب بحيرة إيڤانوس وفي أيديهم أواني أنقذوها من النيران، كان عمار يصرخ بأعلى صوته حتى يسرعوا ويبتعدوا عن النيران التي تسير خلفهم كالغول الذي يطارد فرائسه .
دون تفكير نزل خالد عن جواده وركض صوب البحيرة، ومن خلفه جاكلين وانضما لأهل الصحراء يملؤون الأواني بالماء ويسكبونها على النيران دون جدوى، يسكبون المياه فوق النار فتصدر صوتًا يدل على موت المياه في أحضان النيران .
هل جربت يومًا أن تحاول إنقاذ أحدهم من الهلاك فيكون مصيرك أسوأ من مصيره؟ هل جربت أن تدخل بقدميك في الوحل لتنقذ أحدهم فتغرق أنت ولا تجد من ينقذك؟
هذا بالضبط ما كان يحدث للماء، كانت قوة النيران أكثر وطأة من قدرة المياه على الإنقاذ .

هل جربت يومًا أن تفتك اليد التي حاولت مساعدتها؟
محاولات عديدة قام بها كل من في الأرض لإخماد الحريق لكن بلا جدوى، فكيف تنتصر أواني من المياه على نيران مشتعلة في بيوت خشبية .
صراخ وركض وبكاء وأصوات الخيول ترتفع حتى جاء صوت سوسن هادئًا من بين كل هذا:
- "خلاص مفيش فايدة" .
توجهت صوبها الأنظار الخائفة من هول المشهد الذي تراه فقال لها عمار .
- "يعني إيه؟"
- "يعني احنا مش هنعرف نطفي النار، دي أكبر مننا ومن أي حاجة نقدر نعملها" .
كان حديثها صادمًا لكل من سمعه، كيف يتركون الحرائق تأكل كل ما على الأرض دون مقاومة منهم، كيف يستسلمون لألسنة اللهب التي لا يعلمون مصدرها حتى الآن .
على قدر غرابة حديث سوسن إلا أنه كان واقعيًا، أدرك البعض أن هذا هو الحل المناسب ورأى البعض الآخر أنها سلبية لا تريد أن ترهق ذاتها في الإصلاح فرأت أن الخراب أسهل .
نظرت زينب لجاكلين وقالت بصوت ملأته الحيرة:
- "اللي هتختاريه هنعمله" .
نختار؟ وكيف يكون الاختيار حين يكون بين أمرين كلاهما يؤدي إلى الخراب . كيف تختار بين أن ينقذوا الأرض وقد يموت أحدهم في إنقاذها وأن يموت مجهود ليالٍ طوال أمام عينيها .
ألم يقل السابقون (مجبر أخاك لا بطل)؟ هذا هو الحال حين تكون في اختياراتك مسير ولست مخير .
- "الست سوسن كلامها صح، النار لازم تنطفي لوحدها، محدش مننا هيقدر يقف قصادها" .
قالتها جاكلين وجلست أرضًا جاعلة ظهرها للبحيرة ووجهها للبيوت، كانت ولم

تعد، فجلس الجميع مثل جلستها كإشارة منهم عن رضاهم عن قرارها، جلس الجميع أبصارهم شاخصة على الضوء الأحمر المتوهج أمامهم دون أن يحركوا ساكنًا، يشاهدون في سكوت ومن خلفهم شمس النهار تنخفض في أحضان البحيرة في طريقها للغروب .

لو أن أحدًا غريب عن هذه الصحراء مر ورأى هذا المشهد لظن أنهم أموات لا حياة فيهم .

لكن ماذا يفعلون!

هناك مواقف تمر بحياتنا لا يمكننا الوقوف أمامها أو محاربتها، بل عليها أن تأخذ وقتها وتنتهي بمفردها، مواقف يجب أن تمر بها دون أن تقاومها، هناك فترات في حياتك يجب أن تحياها كاملة، ليست القوة أن تقومها وتحاربها، بل القوة هي قدرتك على الصمود حتى تنتهي هذه الفترة ويعود كل شيء حيث كان .

يجب أن يأتي لك يوم وتعترف أنك تعاني أو تنهار .

يجب أن تبكي حين يتطلب الأمر ذلك، يجب أن تأخذ وقتك في البكاء والحزن والاكتئاب والانعزال عن الناس، إن لنفسك عليك حق، ومن حقها أن تحيا فترة معاناة كاملة حتى تبدأ من جديد مرة أخرى .

هناك مواقف يجب أن تأخذ وقتها حد الانتهاء، لتبدأ من بعدها مرحلة أخرى، لن تستقيم علاقتك بمن حولك ما دمت تخفي عنهم بعض الكلمات، لن تسعد في حياتك ما دمت تمتلك بعض الدموع في عينيك لم تخرجها بعد، لن تبدأ قصة حب جديدة قبل أن تُخرج قصتك القديمة من داخلك .

لن تبدأ مرحلة جديدة حتى تنهي السابقة .

لن تبني المستقبل قبل أن تقطع خيوط الماضي .

لن تخط حرفًا في صفحتك الجديدة حتى تطوي صفحتك القديمة .

لن يبنوا بيوتًا جديدة قبل أن تنتهي إيقانوس القديمة .

لا يوجد عمار سيأتي إلا بعد انتهاء الخراب .

وكلما رأيت شيئًا يسقط من حولي أسرعت لإنقاذه، لكن أخشى أن
أنهار أنا ولا أجد من يصلح تشققات روحي .

أسدل الليل ستائره الحزينة فعم الظلام إلا من ضوء القمر الذي يتوسط السماء فوق البحيرة، حتى الضوء الصادر من نيران الحريق قد خبا، ولم يبق منه إلا الأدخنة بعد أن أكلت النيران الأخضر واليابس، المنزل الشمالي والجنوبي، الأقمشة السوداء والبنية، طغت على كل شيء وبدلًا من أن يتأمل أهلها في مشهد الخراب هذا، غط كل منهم في نوم عميق إلا هي وهذا ليس بالغريب، فهي قليل ما تنام، وإن نامت تنام عيناها لكن عقلها أبدًا لا ينام، فهي مريضة بمرض دائم ليس له علاج عند أطباء الجنوب بل عند أطباء الأرض جميعًا .

فهي مريضة بداء التفكير الذي يشارك المرء حياته نومًا ويقظة .

جلست وأعطت وجهها للبحيرة مرة أخرى وعيناها شاخصتان على صفحة الماء التي تنعكس فوقها صورتها، عيناها الواسعتان وفمها المرسوم بدقة وشعرها الكثيف المرفوع فوق رأسها كعادته، صفحة الماء تعرض ملامحها بصورة دقيقة، لكن أبدًا لن تعكس الهم المتراكم فوق عنقها وانشغال بالها وتشتت أفكارها .

أحست جاكلين بحرارة جسد بشرية تقترب وتجلس بجانبها فوجدته علي، كعادته يحضر في أوقات تأملاتها مع نفسها، كعادته يحاول أن يسمع الصوت الذي تحدث به ذاتها في أوقات خلوتها، وكعادتها تحاول أن تخفي هذا الصوت، لكن الصادقون فقط هم من لا يحتاجون لكلمات لفهم العبارات التي تقولها دون صوت، عباراتك التي تقولها عيناك .

- "بقالك ساعتين سرحانة بتفكري في إيه كل دا؟"

على القدر الذي يظهر به أن هذا السؤال بسيط إلا أنه يدعو للتوقف لحظات، هل اكتملت تطفلات أبناء آدم وتدخلاتهم في أقوالك وأفعالك حتى يتدخل أحدهم بينك وبين ذاتك طامعًا في معرفة ما يجول برأسك؟ هل اختفت كل حواجز الخصوصية ليتدخل البشر في الكلمات التي تتردد على عقلك؟ أم هي محاولة بريئة من أحدهم لمعرفة خباياك والغوص بداخلك، وهل يحاول هذا

الشخص معرفتك ومعرفة أفكارك ليحسن فهمك أم لتكون سلاحًا ضدك .
فمن يعلم عنك أكثر مما يعلمه الآخرون إما صديق يسعى للحفاظ عليك، وإما عدو يحفر لك قبرك بيديه .
وهل من يسعى لمعرفة ما برأسك سيفهم ما تفكر به؟ سيتقبل ما بداخلك؟ سيفهم هذه الفوضى التي تعصف برأسك؟ ما كل هذا؟ ألف سؤال مر أمام عينيها بسبب سؤال (علي) لها، ولو لم تتوقف لظلت تفكر لساعات في هذا السؤال، ألم أخبرك أن جاكلين مصابة بداء التفكير؟ ها قد ظهرت أعراض المرض .
- "هكون بفكر في إيه؟"
- "أنا اللي بسألك!"
- "أنت غريب أوي" .
قالتها بحاجب مرفوع ورثته من زينب، مثلما ورثته ليلة، فنظر لها الآخر باهتمام وقال:
- "غريب إزاي يعني؟"
- محسسني إننا كنا بنلعب مع السمك في البحيرة طول اليوم، بص وراك كدا" .
كاستجابة لا إرادية من علي نظر خلفه فرأى الدخان الكثيف الذي عبأ السماء، وقبل أن ينطق بكلمة أكملت حديثها قائلة:
- "البيوت اتحرقت، الزرع اتحرق، كل حاجة راحت، كل المجهود اللي بنعمله راح بسبب شوية نار محدش يعرف سببها، أنت مش مدرك إننا في كارثة" .
- "شايفة الجبل اللي هناك دا؟"
قالها مشيرًا إلى جبل ضخم على يمين البحيرة، بعيدًا عن أنظارهم لكن ضخامة حجمه تجذب إليه الأبصار .
لم تفهم جاكلين سؤاله وعلاقته بحديثها فوجهها فضولها لمعرفة مقصده فقالت:
- "ماله؟"
- "تعرفي الجبل دا ثابت ليه ومش بيقع؟"
شعرت بأنه يستهزئ بها فلم تعطه إجابة فقال:
- "عشان أرضه مستوية، الجبل واقف على أرض ثابتة عشان كدا مش بيقع" .

- "وإيه علاقة الجبل بكلامي؟"
- "في علاقة قوية قوي بينهم، احنا عمرنا الصحرا دي بنفس مش راضية، كان كل فريق فينا هدفه يكون أحسن من التاني، محدش كان بيحاول يعمل شغل كويس عشان مصلحتنا، لا كنا بنشتغل عشان نكون أحسن من بعض .
كلماته جذبتها للخوض في الحديث معه فقالت معبرة عن وجهة نظرها:
- "وإيه الغريب؟ دا طبيعي، أنت ناسي احنا هنا ليه؟ تنكر إنك لو قتلتنا كلنا ورجعت الشمال الشوام هيفرح بيك؟"
صمت علي للحظات وأكمل حديثه:
- "بس أنا مش الشوام" .
- "أنت عاوز توصل لإيه؟"
- "عاوز أفهمك إن اللي بيتبني على غلط بيقع، الأرض دي احنا عمرناها واحنا في نيتنا الحرب،
بنعمرها ليه واحنا هنحارب وندمرها تاني، الأرض اتحرقت عشان أساسها غلط زي الجبل الواقف على أرض مش مستوية، مسيره يوم هيقع" .
- "ودلوقتي إيه الحل؟ مبقاش قدامنا غير الحرب" .
نظر لها علي نظرة استنكار ثم قال:
- "مفيش حد هيحارب" .
- "مفيش حل غير الحرب، احنا هنا عشان كدا" .
- "مفيش حد هيحارب" .
كيف سمح لذاته أن يعطيها تعليمات ويملي عليها أوامره كأنها أحد جنوده؟ كيف نسى أنها ولي العهد الذي يطبق أوامره على كل من في الجنوب حتى حبات الرمال، كيف استفزها بكلماته لهذا الحد:
- "كلامك يمشي على أهلك لكن مش هيمشي عليا" .
- "عيبك إنك مش بتستغلي دماغك، إنتي عندك قدرات فظيعة حرام تضيع وانتي ماشية ورا كلام ناس تانية،
مش فاهمة إنك هتضيعي حياتك في الجري ورا شعارات كذابة" .

- "أنا مستعدة أضيع حياتي كلها عشان أوصل لهدف معين" .
- "مش لما يكون الهدف دا هدفك إنتي؟"
نظرت له ولم تخرج الكلمات من حلقها، أدركت أن هذه الأرض قد أنجبت أحد بارع في الحديث مثلها .
- "أي حاجة في الدنيا ممكن تتصلح لو احنا عاوزين نعمل كدا، لو احنا عاوزين نعمل كدا هيكون الجبل واقف على أرض مستوية" .
قالها ورحل قالها وتركها في حيرتها، كيف يزعزع يقينها في كل ما آمنت به طوال عمرها؟ كيف لا يرغب بالحرب مثلها .
هي لا تريد الحرب من أجل الدمار، بل إنها تريد الإصلاح وترى أن كل ما حولها فاسد فمن الأفضل أن تقضي الحرب على كل هذا، ثم يبدأ الإصلاح بعد القضاء على كل ما هو سيء .
ففي حياة كلٍ منا يوجد (علي) وتوجد (جاكلين) يوجد من يحاول إصلاح الفاسد ويوجد من يحاول أن يقضي على كل شيء ليبدأ من جديد، يوجد بيننا من يحاول أن يبدأ بداية جديدة في كل يوم ويوجد من يرى أن البداية لا تأتي إلا عقب النهاية .
ماذا عنك؟ هل ترى أنك بإمكانك أن تبدأ حياتك الجديدة مع شروق الشمس أم تنتظر الموت لتبحث عن حياة أخرى؟
نظرت أمامها لترى تتابع أمواج البحيرة بفعل شدة الهواء والرياح وأخذت تحدث ذاتها .
لم أر طريقة ليعبر بها الإنسان عن نفسه أفضل من أن يرمز لكل شيء في حياته بالطبيعة .
أشعر أن معظم أحلام البشر وأحلامي بشكل خاص تشبه أمواج البحر، في بدايتها تكون كبيرة وعالية وبمرور الوقت تتضاءل وتتضاءل حتى تنتهي في لحظة الوصول للرمال، تستطيع أنت أن ترى الأمواج من بعيد، ترى آمالك وهي تصبح أصغر كلما اقتربت منك، تستطيع أن تسير متعمقًا في البحر محاولًا إيقاف الموجه من الوصول للرمال والانتهاء، وحينها سوف تسحبك الأمواج معها

دون مقاومة لتصلوا للرمال معًا وتنتهوا معًا ولا يبقى من الموجه إلا صوتها .
من المؤكد أن صوت الأمواج هذا ليس مجرد صوت مياه البحر .
من الممكن أن يكون صوت اصطدام أحلامك وكل ما كنت تنتظره برمال الواقع،
أو قد يكون صوت صراخك أنت كمحاولة منك لإيقاف الأمواج .
لا أدري، ربما تكون الرمال تتألم من كثرة الاصطدام بها وهذا صوت صرخاتها .

ارتفع عن الأرض وانظر لكل شيء من أعلى،
فإن للأمور بواطن لن تدركها من مكانك .

من قال أن عقارب الساعة تسير بطريقة منتظمة، من قال أنها تسير بخطى ثابتة، فعقارب الساعة لا تستقر على حال حتى وإن كان مظهرها يقول عكس ذلك .

عقارب الساعة تسير ولا تعود يومًا للخلف، كل دقة تختلف عن السابقة وكل دقة تحمل مشاهد جديدة، أشخاص جديدة، كل عقرب ساعة يحمل معه حيوات أخرى لم ترها من قبل ولن تراها مجددًا .

وحين مرت عقارب الساعة أشرقت الشمس على الأرض بحال جديد لم تعهده من قبل .

في اليوم السابق أشرقت الشمس على نباتات خضراء ومنازل صغيرة واليوم تشرق على رماد ولا شيء سوى الرماد .

- "أعتقد مفيش حاجة ناخدها معانا" .

قالها عمار لسمر وسوسن وهم واقفون بين أنقاض المنزل، الذي كان خشبي ولم يعد، وعلى الناحية الأخرى تقف زينب وليلة وخالد أمام منزلهم يبحثون عن أي شيء سليم لم تطله النيران .

وقد كان ذلك حين استيقظ علي وأقبل عليهم قائلًا:

- "بتعملوا إيه؟"

لم يترك عمار مجالًا للرد من أحد غيره فقال بلهجة حازمة:

- "بنشوف لو في حاجة سليمة ناخدها واحنا ماشيين" .

- "ماشيين فين؟"

قالها علي بتعجب واندفاع فأكمل عمار:

- "هنرجع الشمال يا علي" .

سمعها علي والتفت لينظر للصوت الآتي من الناحية الأخرى حيث كانت زينب تقول:

- "احنا كمان هنرجع، مبقاش في حاجة نقعد عشانها" .
وقف (علي) بين المنزلين ليرد على من يتحدثون شمالًا وجنوبًا:
- "والمعاهدة؟ واللعنة؟"
اندفع عمار مرة أخرى وقال:
- "المعاهدة مش هتعملنا حاجة لو موتنا من الجوع" .
جاء صوت ليلة هي الأخرى من الناحية الجنوبية:
- "احنا قبلنا المعاهدة عشان ننقذ أهلنا لكن كدا احنا اللي هنموت" .
ثم جاء الحديث مرة أخرى من عمار:
- "هنرجع أرضنا ولو كلام فخر صح واللعنة رجعت نبقى نحارب" .
- "مفيش حد هيحارب دلوقتي" .
التفت الواقفون لمصدر الصوت الذي خرج من خلف حطام المنزل الجنوبي فأكملت جاكلين:
- "احنا عملنا المعاهدة ولازم نلتزم بيها للآخر، أنا المسؤولة عنكم وعن باقي أهل الجنوب ومش هسمح إن حد فيكوا يتأذى" .
لم تسمع جاكلين أي جواب على حديثها، لم تسمع سوى صوت أمواج البحيرة، فبعض الحاضرين كانوا ينتظرون بقية حديثها، والبعض الآخر متعجبون من ما سمعوه، فأكملت لترضي فضول البعض وتزيد حيرة البعض الآخر:
- "أنا مش عاوزة أشيل ذنب حد، قرار الحرب هيكون في وقته، لكن دلوقتي مش الوقت المناسب" .
تشجع علي هو الآخر وأكمل علي حديثها:
- "ولا أنا قابل الحرب، لسه في فرص كتير قدامنا" .
تحدثت سمر هي الأخرى من الطرف الشمالي معترضة:
- "هنموت من الجوع" .
- "لأ مش هنموت، هنعمر الأرض تاني، بس المرة دي هنعمرها عشان نعيش فيها كلنا، ولو موتنا من الجوع هيكون أهون من رجوع اللعنة وموت كل الناس" .

اندفع عمار للمرة الألف وقال بعصبية:
- "أنت بتاخد القرارات دي على أي أساس؟"
التفت علي لأخيه بنظرة خالية من التعبير وقال:
- "على أساس إني الزعيم،
وبما إني الزعيم فأنا قررت إننا هنعمر الأرض تاني" .
قالها الشمالي فأكملت حديثه الجنوبية قائلة:
- "وأنا موافقة" .
وما هي القوة إلا أن تقرر أنك ستعمر بعد الخراب، تحاول بعد الهزيمة وتنهض بعد السقوط .
ما هو الإصرار إلا أنك تحاول أن تحيي بعد الموت .
فدائمًا البدايات تكون جميلة أما البقاء فهو للصادقين فقط .
وها هم يحاولون أن يعمروا أرضًا بعد سنوات عجاف .

"تدور وترجع وجع واعتكاف،
وتطبع عليك السنين العجاف،
وأول ما حبك يقابلك يسيبك،
وأول ما حبك يسيبك تخاف" .

كان علي يستمع لأنغام ليلة، التي تغني وهي تجلس فوق أنقاض منزلهم، وهو يفكر في موقفه أمام أهل الأرض، وكيف وقف أمامهم وأجبرهم على استكمال ما بدأوه .
كان يفكر ويحدث ذاته بصوت لا يسمعه إلاه .
كيف تمنحهم القوة وأنت الذي تفعل المستحيل لتحمي نفسك من السقوط، كيف تجذبهم من سقطاتهم وأنت الذي على حافة الهاوية؟
كيف تمنحهم الضياء رغم كل هذه الظلمة بداخلك وهذه البرودة التي تسيطر على قلبك؟
كيف تكون أنت من تمنحهم الثبات والقوة والضياء وأنت الذي تحتاج لمن يجمع أشلاء روحك، فما زلت تفعل المستحيل لتمنحهم القوة وما زلت لا تريد

غير من يمسك بيدك ويخبرك أن كل شيء سيكون بخير .
تمد لهم مصدر للضوء ولا يرى الظلمة بداخلك إلا الله .

"تدور وترجع وجع واعتكاف،
وتطبع عليك السنين العجاف،
وأول ما حبك يقابلك يسيبك،
وأول ما حبك يسيبك تخاف" .

يومٌ يمر وآخر يأتي،
قمرٌ يهل وشمسٌ تطل،
حياة متغيرة لا تستقر على حال،
ولا يحيا فيها إلا من يرقص فوق الذكريات .

ربما عليك أن تقف للحظات وتنظر حولك، لحظات تحاول أن توقف فيها عقارب الساعة وتفتح عينيك وتتساءل كيف مر علي الزمان؟ متى مرت هذه السنوات؟ متى تسربت الأعوام من بين أصابعي؟ كنت يومًا طفلة صغيرة أقصى همها هو أن والدتها حرمتها من الحلوى، أقصى ما تخشاه هو أن تكثر في اللعب تحت حرارة الشمس فتحترق بشرتها، كيف تبدلت الدفة التي تسير بها حياتها؟ كيف تغير وجه الأيام هكذا؟ فبداية حياتها كانت عند نقطة ما وهي الآن عند نقطة أخرى لا تمت إليها بصلة وما بين النقطتين هو خط مستقيم وخطوط أخرى منحنية لا تعلم ما الذي حدث خلالها، بل هي تعلم وتتناسى، فبداية حياتها لا تشبه الحال التي وصلت إليها اليوم أبدًا، على كل حال هذا لا يهم .
فهي الآن امرأة في منتصف عهدها بالخمسين، هي الآن الحكيمة فخر، حكيمة أرض إيڤانوس التي لا تخفى عليها خافية ولا يستعصي عليها أمر .
أكملت فخر في سيرها في الصحراء فوق ظهر حصانها تحت أشعة الشمس، فإذا كانت فخر تعلم أين تخفي النملة أولادها ألن تعلم بحريق تغير له لون السماء؟
على الناحية الأخرى كان عدنان غلام فخر الأبكم قد وصل لصحراء إيڤانوس ليُعلم من فيها بقدوم سيدته .
ذهب خالد غلام جاكلين لاستقبال عدنان، وعلى عكس ما اعتاده عدنان من سوء معاملة الجميع له أو حتى تجنبه، كان خالد يعامله بلطف، كم كانا يشبهان بعضهما، كلاهما صغير السن، كلاهما له سيدة هي صاحبة الشأن، كلاهما اختار له القدر حياة محددة ليس بوسعه أن يغيرها .
لكن ما يفرقهما أن خالد يعبر عن رأيه بالطريقة التي تحلو له، أما عدنان فقد كتب عليه الزمان أن لا يسمع له صوت .
ما هي إلا دقائق ووصلت فخر إلى مجلسهم ومرت أمامهم وسط نظراتهم

المترقبة، فجميعهم يعلم أن زيارة فخر لن تمر مرور الكرام، لكن مؤكد أنها تحوي الكثير في جعبتها، فدائمًا هناك ورقة تغير موازين اللعبة، وفخر دائمًا تمتلك كل الأوراق .

جلسوا في حلقتهم المعتادة فوق الرماد الذي كان يومًا مليء بالحصائر والمجالس الخشبية وقررت فخر أن تختصر فترة الصمت وبدأت حديثها:

- "في وقت تاني وفي ظروف تانية مكنتش هبقى موجودة هنا لكن أنا عندي ليكوا سؤال" .

تنبهت لها أنظار الجالسين:

- "حد عنده تفسير للحريقة؟"

خفضت ليلة رأسها وكأنها تشعر بالخجل من ذاتها ومن ما ستقوله، ثم قالت بصوت خفيض وجل:

- "كان في شمع في أوضتي نسيت أطفيه ممكن يكون السبب" .

هنا وجدت سمر فرصة لذاتها كي تمارس هوايتها المفضلة وهي إزعاج الآخرين، هل تعلم من يصطاد في المياه العكرة؟ كانت سمر تعشق هذه الهواية فتحفزت وقالت:

- "يعني في الآخر الحريقة بسببكوا؟ هو انتوا مش بييجي من وراكو حاجة غير الخراب؟"

توجهت الأبصار صوب ليلة منتظرين ما ستقوله، بعضهم كان يتمنى ظهور أي دليل على براءتها من هذه الجريمة التي ارتكبتها سهوًا وليس عمدًا، وبعضهم تخرج شرارة الغضب من عينيه ساخطًا عليها وهي لا تعلم ماذا تقول، لا تعلم أيضًا هل كان ذلك خطؤها أم لا، هل هي المذنبة أم لا، هل الشمعة التي أشعلتها لتضيء غرفتها هي التي جلبت لها الخراب؟

قبل أن يتحدث أحدهم أدارت فخر دفة الحوار صوب علي وسألته بشيء من التبسم:

- "هي سمر تقرب لك إيه يا علي؟"

تثاقل علي في الرد فرفعت عنه سمر عبء هذه الإجابة وقالت بعنق مرفوع

وحاجب متخذًا وضع رقم ثمانية:
- "أنا خطيبة الزعيم" .
لم تعطها فخر أي اهتمام بل أعادت دفة الحديث لوجهتها مرة أخرى وقالت:
- "الحريقة كانت بفعل فاعل مش صدفة" .
هل جربت يومًا أن يسكب أحدهم فوق رأسك دلوًا من الثلج في شتاء فبراير؟ كان كل منهم يشعر بصدمة الثلج فوق رأسه .
لحظات من الصمت ينظر فيها كل منهم للآخر بعين الشك، كل منهم يضع كل الاحتمالات لمعرفة من الذي أشعل الأرض الساكنة من الذي أحال العمار لخراب أسود .
هكذا أنت أيها الإنسان نضع كل الاحتمالات لمن سيدمر حياتك، من الذي أحال اخضرار حياتك لصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، من الذي سيلقيك أرضًا بعد أن حلقت في السماء؟ فيتبادل البشر الاتهامات والشكوك وبين هذه الظنون تضيع الكثير من المحبة .
وأنت لا تدري أن هناك مجهول هو من غير موازين حياتك .
شبح خفي يسمى القدر .
كل الحاضرين يحاول أن يصل لمرتكب الجريمة في نفس الوقت الذي يضعه فيه الآخرون موضع الاتهام .
فجميعهم هنا ينصب المحاكم للآخرين وجميعهم متهم .
دون أن تنطق فخر أشارت لعدنان غلامها الصغير، فذهب لحصانها وأخرج من حقيبة فخر كرة قماشية وأعطاها لها، ثم جلب حجر كبير ووضعه في منتصف مجلسهم على مرأى من جميع الجالسين .
قامت فخر من مجلسها وأخرجت كرتها الزجاجية من الغلاف القماشي، وحركت عليها بيدها بحركات دائرية، ثم وضعتها فوق الحجر، فتوهجت الكرة واشتعل ضوئها بين ترقب الجميع ثم بدأت الكرة في عرض مشاهد .
مشاهد لم يرها أحد، مشاهد لم يرها إلا صاحبها .
تحت أشعة الشمس الحارقة تحرك هذا الجسد المتخفي بعناية في ملابسه

السوداء بين أشجار النخيل .
جسد لا يدل على نوع من يرتديه سواء أكان ذكرًا أم أنثى، يرتدي ملابس سوداء من أعلى رأسه حتى أسفل قدميه، حتى وجهه مختفي خلف وشاح له لون أسود مثل ملابسه .
تقدم الشخص متخفيًا ومتسللًا بين الأشجار والنخيل حتى وصل لمسافة قريبة من المنزلين ثم توقف للحظات ليراقب الموقف .
عرضت الكرة ما كان يراقبه هذا الشخص، كان كل من في الأرض ذاهبون للحصول على المياه من البحيرة عدا سوسن لم تظهر من بين الذاهبين .
ما هي إلا ثوانٍ وأخرج هذا الغامض زجاجة وحبل من ملابسه وسكب ما في الزجاجة على كومة من الخشب بجانب منزل الشماليين ووضع طرف الحبال داخل الكومة والطرف الآخر ممتدًا بعيدًا عنهم، ثم فعل الشيء ذاته عند منزل الجنوبيين وأشعل النار في الحبل ثم عاد للمنزل الشمالي وأشعل النار في الحبل الآخر .
أخذت النيران تأكل كل من الحبلين وتتقدم حتى وصلت للكومة الخشبية فاشتعلت أكثر وطالت المنزلين في نفس اللحظة .
اشتعلت النيران في المنزلين معًا وأخذت تعلو وترتفع بشكل سريع، من المؤكد أن ذلك بسبب السائل المجهول الذي كان في الزجاجة .
النيران تعلو والأدخنة ترتفع في السماء وفي الخلفية الصوتية ارتفع صراخ أهل الأرض من جهة البحيرة وعلى الناحية الأخرى صوت صراخ سوسن التي خرجت من المنزل بصعوبة ملطخة باللون الأسود فوق بشرتها ناصعة البياض، بينما يقف الشبح الأسود بعيدًا يراقب الموقف بثبات لا يدل على أنه للتو قد أشعل النيران في أرض خضراء، وأشعل الفتنة في النفوس .
أخذت النيران تأكل كل ما يعترض طريقها ويتوهج ضوؤها أكثر فأكثر ثم خبا ضوء الكرة التي تعرض مشاهد الماضي .
هب عمار واقفًا وقال بصوته الغليظ:
- «أنا كنت متأكد أنهم هيعملوا كدا» .

حدقت جاكلين في هذا الواقف أمامهم ثم قالت:
- "وإيه أكد لك إن حد مننا هو اللي عمل كدا؟"
تحمس خالد غلام جاكلين هو الآخر وتحدث:
- "الكرة مش واضح فيها مين كان عند البحيرة، ليه ميكنش أنت؟"
نظرت له سوسن وخرج صوتها هادئ كهدوء صاحبته المعتاد:
- "هيحرق البيت وأنا موجودة فيه؟ هيموت أمه؟"
- "مش عاوزة كلام كتير" .
قالتها فخر دون أن تنظر لأحدهم أو تهتم بحديث أحدهم وأكملت:
- "أنا لسه معرفش مين اللي عمل كدا، ولحد ما أعرف مش مسموح لحد يتكلم في الموضوع دا" .
قالتها ورحلت .
رحلت بعد أن زرعت بداخل كل منهم شك تجاه من يجلس بجانبه .
ما هو الشك؟
لم أجد قوة تستطيع تدمير الإنسان أكثر من الشك .
الشك هو أن تقف عاجزًا في عرض البحر بين ضفتين .
أن لا تستطيع أن تختار لأي الجهتين تذهب .
أن تعتصر نفسك بين قوتين متضادتين .
تتمنى النجاة من بحر الشكوك والظنون، لكن تخشى أن تلتقط أنفاسك على الضفة الخاطئة .
أتذهب إلى ضفة المنطق والظروف؟ أم تذهب حيث يميل قلبك؟ وتظل أنت بداخل هذه الدوامة من التناقضات إلى أن تأخذك الرياح إلى أحد الضفتين .
لكن كثيرًا ما نفضل الغرق في بحر الشكوك على أن ننجو على ضفة اليقين الخاطئ .
وبين الضفتين تبقى الحقيقة مجهولة أو غارقة تحت رمال القاع، فالحياة يا صديقي هي مجموعة احتمالات متتالية ولا يوجد بها يقين .
الحياة يا صديقي شكوك لا تنتهي .

إذا كان البقاء وعد، فوعد الحر دين عليه حتى يلقى ربه،
فسلام على من يبقون، وعلى من على الوعود يحافظون .

من الممكن أن تجد الهدوء وأنت بين مئات الأشخاص في حين أنك من الممكن أن تشعر بالضوضاء أثناء وجودك بمفردك .
فكلها أشياء نسبية مصدرها الوحيد داخلك أنت .
أما هي كانت الفوضى بداخلها تكفي لإزعاج كواكب المجموعة الشمسية أجمع، وليس فقط كوكب الأرض، لذلك كانت تعشق أن تقف منفردة بذاتها .
كانت حياتها مليئة بالأحداث السريعة المترابطة التي لا تنتهي وكلما ثقل عليها الحمل مالت للوحدة أكثر .
كلما شعرت بالازدحام حولها لجأت للانفراد بذاتها بضعة أيام ترتب فيها أوراقها وتستعيد فيها سلامها النفسي، ثم تعود مرة أخرى بعد أن أعادت فهم ذاتها .
فأنت لن تفهم نفسك إلا حين تجلس معها منفردًا، لن تفهم ذاتك إلا حين تكون وحيدًا، فالوحدة يا صديقي متعة لن يدركها المنهمكون في سباق الحياة .
وها هي تقف وحيدة فجرًا تراقب أشعة الشمس التي تحاول أن تتسلل من مخبأها لتشق ظلمة الليل معلنة عن صباح يوم جديد، كانت جاكلين تقف أمام البحيرة ومن خلفها يظهر المنزلان اللذان أعيد بناءهما مرة أخرى بعد الحريق وتشاهد لحظة الشروق، كان تداخل المشاعر بداخلها يشبه تداخل النور مع الظلام في هذه اللحظة .
رفعت جاكلين يدها إلى خصلات شعرها التي لطالما تعلقت واختفت فوق رأسها وأطلقت لها العنان والحرية لعلها تتنفس قليلاً، فقام الهواء بهذه المهمة على أكمل وجه، فتسلل بين خصلات شعرها السوداء وأخذ يرفعها لتتطاير من خلفها، كان هذا شيئًا صغيرًا لكنه أسعدها وجعلها تتبسم في ارتياح .
فمهما جربت من ملذات الدنيا قد تسعدك أشياء صغيرة لم تجربها من قبل .
وفجأة وبدون أي مقدمات شعرت بوخز قوي لا تعلم مصدره وفقدت توازنها وتهاوى كل شيء بجانبها وضعفت الرؤية ثم سقطت، سقطت وارتفعت الشمس

شيء يظهر وآخر يختفي شيء يعلو وآخر يسقط وهكذا نحيا في هذه الدنيا .
فلا يوجد شيء يبقى على حاله، الحزن ليس دائم والسعادة ليست كاملة ودائمًا وأبدًا، لا شيء يبقى .

"حن ع القلة دا الغريب حن، حن ع القلة دا الغريب حن،
خلاخيلي دول اللي أنا لبساهم، هم دهب ولا أنا رسماهم،
يادي الدلع ياللي أنت وياهم،
شبان بلدنا اللي أنا فايتاهم، حنوا،
حن ع القلة دا الغريب حن" .

هل تعلم من يخرج الشربات من الأسماك العفنة؟ هذا بالضبط ما كانت تفعله ليلة كل يوم، تغني وهم يعيدون البناء بعد الحريق، تغني وهي تعمل، تغني في وقت راحتها تغني ما دام صوتها يرن في حنجرتها، وها هي الآن تغني وهي تعد العجين لصناعة الخبز لأهل الجنوب، تجلس وتضع إناء العجين بين ساقيها العاريتين حتى فخذيها كالعادة وأمامها تجلس سوسن تعد العجين لأبناء الشمال، فحتى وإن كانوا في فترة هدنة لم يتوصلوا إلى أن يأكلوا معًا من نفس الطعام، بالإضافة إلى أن من أشعل بهم النيران ما زال مجهولًا يحيا بينهم ويأكل من طعامهم كل يوم .

- "وقفتي غنا ليه؟"

قالتها سوسن إلى ليلة، فانتبهت ليلة من شرودها متعجبة من سؤال سوسن فقالت بدهشة:

- "حضرتك كنتي بتسمعيني؟"

- "بلاش حضرتك دي قولي لي يا ست سوسن" .

تبسمت ليلة وأومأت برأسها موافقة فقالت سوسن:

- "بطلتي غنا ليه؟ صوتك حلو قوي" .

- "بجد؟"

- "مالك مستغربة كدا ليه؟ متعرفيش إن صوتك حلو؟"

زاد تعجب ليلة أكثر! فقد تستمع إلى ساعات من المدح والحديث المزين، لكنها لا تساوي كلمة إعجاب واحدة من شخص لم تتوقع أن تسمع منه كلمة طيبة .

- "مش مستغربة من كلامك على قد ما مستغربة أن إنتي اللي بتقوليه" .
كانت سوسن تعلم أن كلماتها يجب أن تثير تعجب ليلة، فقد كانت سوسن نفسها متعجبة من ذاتها وهي تتحدث لكنها أجابت:
- "انتي متعرفينيش، لما تعرفيني كويس هتعرفي إني بحب أدي كل واحد حقه" .
ابتسمت ليلة ومن داخلها كانت تتساءل، هل حقًا من الممكن أن تجد من يحبك في وسط هذا الكم الهائل من الكره؟ هل ممكن أن تجد من يستمع لغنائك وسط أصوات الحرب؟
هل تنبت زهرة في صحراء؟
- "فين جاكلين؟"
قالها خالد الواقف أمام ليلة فرفعت له رأسها وهي جالسة على الأرض وقالت:
- "هي مكانتش معاك وأنت بتصطاد؟"
- "لأ أنا استنيتها الصبح عشان نروح ولما اتأخرت رحت أنا لوحدي" .
سمعت ليلة كلماته ولم تعطه ردًا، بل قامت من جلستها ودلفت إلى غرفة جاكلين، فلم تجدها في سريرها، فخرجت بوجه قلق وملامح مضطربة وقالت:
- "مش موجودة!"
كان ذلك في لحظة عودة زينب، ومن خلفها سمر محملتين بمياه البحيرة، فلاحظت زينب الاضطراب على وجه ابنتها، فتساءلت عما بها فقالت ليلة:
- "جاكلين مختفية من الصبح محدش شافها" .
أطرقت زينب للحظات لتفكر أين من الممكن أن تذهب جاكلين دون أن تخبر أحد فقطعت سمر تفكيرها وقالت:
- "هي مش صغيرة، كمان جاكلين دي مش متوقعة، يعني هو حد كان يصدق أن ولي العهد يكون بنت" .
لم تجيبها زينب بل لم تسمعها من الأساس، فقد كان بالها منشغل في التفكير حول سلامة ابنة أخيها، وتضع آلاف الاحتمالات لمكان وجودها أو سبب اختفائها لكنها لم تصل لإجابة .
فالقدر يصنع الأشياء والبشر يتوقعون الأسباب .
والحقيقة دومًا مجهولة .

تسلل علي في ظلام الليل بعد أن خلد الجميع إلى نومهم، وخرج من منزله وسار بعض أمتار حتى وصل إلى كوخ خشبي صغير، بناه كي ينفرد فيه بنفسه إن أراد، وحرم دخوله على أي كائن حي خلقه الله حتى الحشرات .

أغلق علي باب صومعته جيدًا وجلس أرضًا وأسند رأسه على الجدار من خلفه، وأخذ يفكر في حياته القديمة التي لا يعلمها إلا القلائل، حتى وصل بتفكيره إلى يوم معين كان كالبرزخ الذي يفصل بين البحر المالح والنهر العذب فما بعده لا يشبه أبدًا ما قبله .

توقف علي عند هذا اليوم وأخذ يفكر:

"لا أعلم كم من الوقت مضى منذ ذلك اليوم، لا أستطيع أيضًا أن أحدد له موعد، ربما لم يكن هناك يوم يحدد البداية،

فبداية الشيء ليس بالضرورة أن تحدد بيوم .

ربما بظروف، ربما بأحداث أنا لا أعلم .

ما أعرفه حق المعرفة إنني تغيرت كثيرًا، ولنكن أكثر دقة فقد أصبحت أكثر نضجًا من ذي قبل، أصبحت أكبر عقلًا وأوسع خيالًا وأكثر قدرة على حل مشكلاتي، أصبحت مكتفي بذاتي إلى حد كبير، تسيل على لساني الكلمات كعجوز السبعين عامًا التي تنطق بلسان مليء بالخبرات .

فأنا الذي يوجد فاصل زمني بيني والثلاثين أصبحت أكثر اعتمادًا على نفسي، أكثر ترفعًا عن صغائر الأمور، التي كانت تجذب انتباهي سابقًا، أضفت لقاموسي كلمات جديدة كالانتظار والفقد والتغير والنسيان، أصبحت أؤمن بقوة الأيام في تغيير كل شيء .

لم تعد تغريني علاقات المراهقين الهوائية السهلة التي تأتي دون عناء وتذهب دون بقاء .

صرت أميل للعلاقات المستحيلة الآن، الممكنة لاحقًا .

صرت -ولا أعلم كيف- أكثر قدرة على الانتظار .
سابقًا كنت أظن أنني امتلكت كل ما يستطيع أن يمتلكه إنسان من قوة أما الآن، ها أنا ذا اعترف لذاتي إنني كنت مخطئًا، فأنا الآن أمتلك أضعاف قوتي السابقة، كأن الشرخ الذي انشق في روحي سابقًا التأم بمادة غير قابلة للكسر مرة أخرى، وكأني بت ليلتي فاستيقظت على قوة لا أعرف مصدرها، لكنها تسري بداخلي، متى أصبحت أفهم نفسي هكذا؟
متى نضجت لهذا الحد؟ لا أعلم غير أنها سنة واحدة بحساب الأيام .
فأنا في السنة الماضية كبرت سنوات .
في السنة الماضية مر علي عمر" .
ثم نظر علي بجانبه فوقعت عيناه على هذا الجسد النائم، هذه العين المغلقة وهذا النفس المتقطع، وسرح لثوانٍ لا يعلم عددها حتى تحرك هذان الجفنان بتثاقل شديد، وفتحا ببطئ لم يمكنها من رؤية ما حولها إلا بعد ثوانٍ، شيئًا فشيئًا اكتملت الرؤية من حولها رأته! إنه هو! ما الذي أتى بها إلى هنا!
- "جاكلين، الحمدلله على سلامتك" .
انتفضت ورفعت جسدها من نومتها وحاولت أن تجلس:
- "أنا إيه اللي جابني . . ." .
لم تستطع أن تستكمل جملتها من الألم، فصرخت وخارت قواها وسقط جسدها المتعرق على الحصيرة مرة أخرى رغمًا عنها، ناظرة لعلي نظرة تحمل الكثير من الحيرة والغضب وعدم الفهم لكن ما كان يسيطر عليها الآن هو الألم، فتحدث علي حتى يرفع وطأة الحيرة من فوق أكتافها:
- "إهدي عشان الجرح" .
قالها علي ونظر لكتفها المغطى بالشاش الأبيض فنظرت له هي الأخرى، وتذكرت وقوفها أمام البحيرة وهذا الألم الذي شق كتفها فجأة وتهاوى كل شيء من حولها، ثم الستائر السوداء التي أسدلت أمام عينيها، فظهرت ملامح الغضب أكثر على وجهها وقالت بنبرة تجاهد الألم:
- "أنت إزاي تجرؤ تعمل كدا؟"

تعجب علي من حديثها وقال:
- "مش أنا اللي . . . . " .
قاطعته ورفعت صوتها المرهق قائلة:
- "لأ أنت، عاوز تموتني عشان تحكم الأرض كلها" .
هل تعلم نقطة المياه الزائدة التي هدمت السد؟ حديثها هذا كان بمثابة النقطة التي أنهت صبره عليها، فرفع صوته هو الآخر وقال بعصبية لم تعهدها منه:
- "بطلي ظن سيء بقى، لو كنت عاوزك تموتي مكنتش أنقذتك" .
- "أنقذتني!"
- "أنا اللي خرجت السهم من كتفك وربطت الجرح" .
شعرت جاكلين بالخجل من ظلمها له، فهدأ روعها وقالت بصوت منخفض مليء بالألم:
- "إيه اللي حصل؟"
نظر لها علي بذات النظرة الغاضبة، لكنه لاحظ تراجعها فخفض هو الآخر من صوته وقال:
- "معرفش أنا لقيتك عند البحيرة والسهم دا في كتفك" .
قالها وأشار لسهم قصير مخضب بالدماء فنظرت له ثم أعادت نظرها إلى علي الذي أكمل قائلًا:
- "كنتي فاقدة الوعي وجيت بيكي هنا، وعالجتك وفضلتي نايمة طول اليوم" .
- "عالجتني إزاي يعني؟"
- "أنا درست حاجات كتير في الشمال منهم الطب" .
أطرقت جاكلين للحظات اعتصرت فيها عينيها من ألم الجرح المفتوح، فقال لها علي بصوت هادئ:
- "إهدي عشان متتعبيش تاني" .
قاومت جاكلين ألمها وقالت بصوت أنهكه الألم:
- "ليه مقولتش لحد من أهلي؟"
- "عشان هيقولوا أن أنا اللي عملت كدا فيكي، زي ما انتي قولتي بالضبط" .

قالها علي بنبرة لوم أدركتها جاكلين، فنظرت إلى كتفها المصاب وأطرقت لحظات ثم قالت:

- "شكرًا" .

نظر لها علي وابتسم، لأول مرة تشكره على شيء، لأول مرة تنطق بكلمة تناسب الفتيات .

فتيات! نعم فعلى الرغم من هذا الطابع المتمرد الذي تتركه في نفوس الناس هي ما زالت فتاة، ولمن يدقق النظر هي فتاة جميلة، لكن جمالها مدفون خلف مسؤوليات ولي العهد مثل محار البحر الغارق في القاع مغطى بالرمال، لكن بداخله لؤلؤ أبيض لا يعلم قيمته إلا ذو الذوق .

نظر لها علي بهدوء ثم قال:

- "أول مرة أشوف شعرك مفرود من يوم ما عمار شال الوشاح من على وشك" .

أدارت جاكلين رقبتها فوجدت شعرها متناثر على الوسادة حتى كاد سواد شعرها أن يخفي بياض الوسادة، فحاولت أن تجمعه بيدها غير المجروحة لكن علي أوقفها قائلًا:

- "سيبيه عادي مش هيحصل حاجة" .

نظرت له جاكلين نظرة شك ممزوج بتعجب فاستطرد علي:

- "انتي ليه بتعملي كدا؟"

- "بعمل إيه؟"

- "ليه بتخبي أي حاجة حلوة جواكي؟ ليه بتخبي جمالك وبتتعمدي تبعدي الناس عنك؟ ليه بتتعاملي على إنك ولد مع إنك جميلة؟"

لم تنطق جاكلين ولم تعطه أي رد فعل، بل ظلت محدقة به وعيناها تكاد تخرج من محجريهما فحاول علي أن يطمئنها قائلًا:

- "اتكلمي أنا عاوز أسمعك" .

لحظات من الصمت مرت عليه كسنوات ومرت على جاكلين كقرون حتى خرج صوتها من بين شفتيها كصوت موتور سيارة لم تعمل منذ خمسين عامًا وأصابه الصدأ:

- "القوانين هي اللي عملت فيّ كدا" .
لم يفهمها علي فتساءل بتعجب:
- "قوانين إيه؟"
نظرت جاكلين في الفراغ كأنها لا تتحدث إلى أحد، بل كانت وكأنها تردد كلمات لطالما حفظتها:
- "قانون إيڤانوس اللي بيمنع إن بنت تحكم الأرض، وقانون الناس اللي مش هيقبلوا يحكمهم ست، بس يقبلوا يحكمهم واحد مغطي وشه بوشاح من غير ما يعرفوا مين مستخبي ورا الوشاح دا" .
شعر علي ببعض الراحة حين سمعها ولأول مرة تشاركه الحديث بكلمات تخرج حقًا من داخلها، فما أصعب أن تكون أنت من يفعل كل شيء لشخص آخر، أنت من يقترب، أنت من يسأل عنه، أنت من يشغلك أمره، أنت حتى من تبدأ بالحديث، أنت وفقط أنت من يفعل كل شيء دون مقابل .
وما أجمل أن يبدأ هذا الشخص في مشاركتك أي شيء حتى لو كان مجرد كلمات مجرد كلمات لكنها ستسعدك، فمن يقدم كل شيء مقابل سعادتك سيرضى بالقليل الذي ستقدمه، هذا إن حدث وقدمته .
- "وليه إنتي؟ ليه تبقي الزعيم وتحكمي على نفسك تعيشي مسترجلة؟"
أطرقت جاكلين للحظات ورد فيها على لسانها جميع جمل الإهانة والكلمات العنيفة الموجودة في قاموسها لترد على سؤاله، لكنها لم تستطع أن تقول أي منها، لم تقدر هذه المرة على المعركة القائمة بين قلبها وعقلها، فانهزم عقلها وبدأ قلبها في الحديث:
- "تعرف إيه أنت عن حياتي؟ تعرف بموت كام مرة في اليوم وأنا شايفة حياتي بتضيع مني؟ تعرف بحس بإيه وأنا حاسة إني مش زي البنات؟ تعرف إيه الظروف اللي وصلتني لكدا؟"
كان من الأفضل أن تقول ظروف وتصمت، هذه الكلمة تكفي لتكون ردًا على أي سؤال ليس له إجابة .
فهناك ظروف ستظل ملازمة لك طوال عمرك تؤثر في حياتك، اختياراتك

وقراراتك، هناك ظروف لن تستطيع أن تتخلص منها مهما بذلت من مجهود، فقد خلقكما الله معًا وغير مقدر لكما الافتراق .
هناك اختيارات ما كنت لتختارها لولا الظروف .
هناك قرارات ما كنت لتتخذها لولا الظروف .
لا تحكم على تصرفات أحدهم دون أن تعلم ظروفه والأفضل أن لا تحكم مطلقًا فلولا الظروف لكنا بشر غير الموجودين الآن .
- "أنا بسألك عشان أعرف إيه اللي أجبرك تعملي كدا" .
كان سؤاله بمثابة ريح عاتية تعصف بروحها وذاكرتها حتى أصابتها بألم في رأسها، رجعت جاكلين بذاكرتها للخلف حتى توصلت ليوم لم تنسه أبدًا، ولم يغب عن بالها لحظة رغم مرور أربعة عشر عامًا عليه .
فتاة صغيرة لا تبلغ من العمر سوى سبع سنوات تركض وتلعب مع ابن خادمة أمها في الأرض الرملية المجاورة لمنزلهم الجنوبي، حيث لم يكن من المسموح لها أن تغادر الأسوار الملتفة حول المنزل والساحة الرملية المجاورة له .
كانا يلعبان حتى سمعت الصغيرة أصوات مختلطة، صراخ وصهيل خيول، أصوات سيوف ترتفع فارتفع معها خوف الصغيرة التي لطالما سمعت من والداها كلمة حرب، لكنها أبدًا لم تفهم لها معنى غير أن هذه الكلمة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بهذا الصوت الذي يخترق أذنها الآن وتهتز له ركبتاها .
لم تستطع الصغيرة أن تقاوم خوفها أكثر من ذلك، فنادت على ابن خادمة أمها قائلة بنبرة مذعورة:
- "خالد، خالد لازم نرجع البيت دلوقتي" .
أمسكت الصغيرة بيد خالد الذي يصغرها بأربعة أعوام، وبدأت في الركض فعلى الرغم من أنها طفلة إلا أنها كانت تتحمل مسؤوليته .
ركض الصغيران في الأرض الرملية مسرعان وملامح الخوف تغطي وجهيهما، وكلما اقتربا من المنزل ارتفع صوت الصراخ والسيوف أكثر، حتى وصلا أخيرًا لظهر المنزل حيث البوابة السرية التي لا يعلمها غير سكان هذا المنزل من عائلة أيوب والخدم المقيمين فيه .

فتح الصغيران هذا الباب وصعدا السلم الضيق حتى وصلا إلى باب صغير يعلمان جيدًا إلى أين سيوصلهما .

فتحت الصغيرة الباب فوجدا خلفه غرفة أيوب، حيث كانت والدتها (نجمة) تقف مع خادمتها المخلصة، فركض كل طفل صوب والدته واختبأ في حضنها، لكن جاكلين سألت والدتها في ذعر:

- "إيه الصوت دا؟ أنا خايفة" .

ضمت الأم صغيرتها في حنان وقالت:

- "مفيش حاجة متخافيش" .

اطمأنت الصغيرة قليلًا لكنه أمان لا يدوم، فسرعان ما ارتفع هذا الصوت الصاخب وأخذ يقترب كالغول الذي يهاجم فرائسه الخائفة، بكى الطفلان بخوف فأمسكت الأم برأس صغيرتها وقالت:

- "جاكلين، اسمعيني كويس، استخبي ورا الستارة دي واوعي تخرجي مهما حصل،

لو الناس دي مسكتك هيعذبوكي، وانتي مينفعش تتكسري أبدًا" .

- "يا ماما . . ." .

حاولت الصغيرة أن تتكلم لكن قاطعتها والدتها قائلة وهي تدفعها بعيدًا:

- "مفيش وقت لازم تستخبي" .

- "استني" .

قالتها خادمة والدتها فنظرت لها جاكلين فاستطردت الخادمة:

- "خدي خالد معاكي واوعي تسيبيه" .

أومأت الصغيرة برأسها وأمسكت بيد خالد فارتفع الصوت أكثر وأكثر، بالإضافة إلى صوت طرقات على باب الغرفة فاختبأ الطفلان خلف ستارة ثقيلة لا تظهر ما خلفها في حين وضعت الأم يدها على بطنها المنتفخة، نعم فقد كانت السيدة نجمة زوجة أيوب في آخر شهور الحمل .

توقفت جاكلين عن الحديث حين سالت دموعها وهي تقص على علي ما حدث في هذا اليوم، كانت دموعها تسيل وكأنها تعرف طريقها جيدًا على وجنتي

السمراء، كانت تسيل دموعها دون أن يظهر عليها أثر للبكاء أو حتى يهتز لها رمش لم يهتز سوى صوتها فصمتت، لكن علي لم يتركها وصمتها بل تحدث هو:
- "وبعدين يا جاكلين حصل إيه؟"
أغمضت عينيها وابتلعت ريقها وكأنها تبتلع الألم ليسكن بداخلها، ثم قالت بصوت مهتز:
- "هحكي لك" .
لم يتحمل باب الغرفة هذا الطرق المستمر عليه فانهار ولم يستطع الصمود، فُتح باب الغرفة ودخل من خلفه رجال لهم لون أبيض يرتدون ملابس سوداء ذات أحزمة خضراء، وسأل أحدهم السيدتين:
- "فين أيوب؟"
كان أيوب في رحلة صيد أثناء هجوم الشمال على الجنوب فأجابت زوجته:
- "معرفش" .
- "لو مقولتيش هتموتي" .
قالها ووجه خنجره نحو صدر زوجة أيوب، فوضعت جاكلين يدها على فمها ويدها الأخرى على فم خالد، من خلف الستائر في حين تقدمت الخادمة ووقفت بين سيدتها والخنجر وقالت:
- "أنا اللي هموت مش هي" .
ابتسم الرجل وغرز الخنجر في بطنها ثم أخرجه فسقطت على الأرض دون حراك، في حين صرخت زوجة أيوب صرخة مدوية مذعورة من هول المشهد، أخرجت جاكلين رأسها من خلف الستائر على أثر صرخة والدتها ويا ليتها ما أخرجتها .
رأت جاكلين الخنجر وهو يهوى في الهواء مرة أخرى ثم ارتكز في صدر والدتها فتناثرت قطرات الدماء حتى لامست وجه الصغيرة .
أطلقت والدتها صرخة مكتومة ثم سقطت على الأرض فنظر الرجل ذو البشرة البيضاء للجسدين الملقيين أرضًا بابتسامة رضا، ثم غادر الغرفة برجاله وترك خلفه بقعتان من الدماء اتسعتا حتى التحمتا ببعضهما، فامتزجت دماء السيدة

المخلصة لأرضها بدماء الخادمة المخلصة لسيدتها، ومن خلفهم طفلة تراقب المشهد في صمت يشبه صمت الأموات، يشبه صمت السيدتين المقتولتين .
رحل وترك من خلفه خنجر ارتكز في صدر الأم، وحسرة ارتكزت في صدر ابنتها، كانت دموع جاكلين تسيل دون توقف وهي تستكمل ما حدث في هذا اليوم لعلي، كانت تتحدث وكأن هذا اليوم محفور في ذاكرتها لم تطغ عليه السنوات .
ابتلع علي ريقه وقال بصوت متأثر:
- "وبعدين حصل إيه؟"
أجابته جاكلين من خلف دموعها:
- "قتلوها هي وأم خالد، قتلوها وهي في بطنها ابنها، قتلوها وقتلوا ابنها وسابوني أنا وخالد نعيش زي الميتين،
يا ريتهم موتونا معاهم" .
استمرت جاكلين تذرف دمعًا وكأنها تنعي والدتها للمرة الألف، وحين رأت نظرة الشفقة في عيني علي جاء التحول .
دب بداخلها شعور يخبرها بأنها لا يمكنها أن تظهر بهذا الضعف أمامه أو أمام أي أحد، إنها ولي العهد .
مسحت جاكلين دموعها وقالت لعلي بنظرة أكثر تماسكًا:
- "عرفت بقى بعمل كدا ليه؟ أنا بجيب حقها، حتى لو بضيع حياتي أو بتعب مش مهم،
أنا هفضل عندي طاقة وهعمل اللي عليا للآخر ومش هتعب بسرعة، حتى لو بعمل حاجة مفيش فيها أمل أو بدون مقابل، هفضل أحارب عشان ماجيش في يوم وأقول كان في حاجة في إيدي ومعملتهاش، هفضل بحاول بكل طاقتي بس وحق اللي ماتت يوم ما أجيب أخري محدش هيعرفني وهنتقم، عشان اللي بيقدم كل اللي عنده دا لما اللي عنده بيخلص قلبته بتكون أسوأ رد فعل ممكن حد يشوفه" .
شعر علي بكمية الألم الرهيبة التي في صوتها، فحاول أن يخفف عنها فمد يده وربت على يدها، وهم أن ينطق بكلمات مواسية، لكنها سحبت يدها بعنف

حيث شعرت بأن الضعف لم يخلق لها، ولا يمكن أن تسمح له بأن يشفق عليها اعتدلت جاكلين وتثاقلت على ألمها ووقفت وسط ذهول علي ثم اتجهت نحو الباب وقالت:

- "يا ريت متنساش أنت مين وأنا مين، ومش عشان سمعتني في لحظة ضعف يبقى تتعامل معايا بطريقة أنا مسمحتلكش بيها" .

حاول علي أن يخبرها بأنه كان يحاول مواساتها ليس إلا أو يشرح لها مقصده، لكنها لم تترك له فرصة ليخرج حرفًا واحدًا من فمه، بل فتحت الباب وهمت بالخروج لكنها توقفت وقالت:

- "وياريت محدش يعرف إني كنت هنا" .

- "طيب استني للصبح كدا الجرح هيوجعك" .

رفعت جاكلين عنقها لأعلى كما كان، وقالت بنبرة قوة لا تعلم من أين أتت بها:

- "أنا مبتوجعش، أنا ولي العهد" .

هم علي ليرد عليها لكنها قاطعته مرة أخرى وقالت:

- "على فكرة، اللي قتل أمي وأم خالد يبقى الشوام، أبوك" .

قالتها جاكلين ولم تنتظر أن تستمع إلى رد من علي الذي كان يشعر بألف شعور متناقض في ذات الوقت .

فكثيرًا ما سمع من والده حكايات عن انتصاراته وقتله للكثير من أبناء الجنوب، لكنها أول مرة يستمع فيها للحكاية من الجانب الآخر، أول مرة يستمع للحكاية من ابنة أحد المقتولين الذين يتباهى بهم والده .

فما أسوأ الحرب، قاتل ومقتول وألف مظلوم .

أما هي، خرجت من الكهف تركض فوق الرمال متثاقلة على ألمها حتى وصلت لمنزلها الذي نام كل أهله، فتسللت من بينهم ووضعت جسدها المنهك فوق مضجعها وخبأت وجهها بالوسائد وأخذت تبكي .

بكت كثيرًا كأن بكاءها أمام علي لم يكفيها، كأن بكاء الليل بأكمله لم ولن يكفيها، لو كانت وضعت بذور القمح على وسادتها لكانت قد طرحت سنابل قبل حلول الصباح، لكن كيف ينمو نبات أخضر مروي بمياه مالحة!

من السيء أن تكون شخصًا كتوم يحتفظ بكل مشاعره لنفسه يخشى أن يخبر ما به للبشر من حوله فلا يفهمونه .
يخشى أن يلجأ للشخص الخطأ .
يخشى السقوط أو الإخفاق .
فما أسوأ أن تبوح بما في داخلك للشخص الخطأ، وما أسوأ المشاعر التي يعلمها الآخرون رغمًا عنك لأنها خرجت منك في لحظة ضعف .
فكل ما نقوله ليلًا نندم عليه بمجرد ظهور الشمس، وكأن الليل يحمل سحرًا يجعلنا غير قادرين على تحمل ما في قلوبنا بمفردنا .
فما أغرب ما نكتمه، وما أسوأ الضعف .

٣- رفض

رفض الصداقة، رفض التجارب الجديدة، رفض الاقتراب من الأشخاص الجدد، رفض البوح بما بداخلك للآخرين، رفض العلاقات العاطفية .

كل رفض يكون سببه الخوف .

الخوف يمنع الإنسان من الإقدام على أي شيء .

الخوف من الخيانة، الخوف من الفشل، الخوف من عدم الانسجام، الخوف من عدم تقبل الآخرين، الخوف من الألم والجرح والحزن .

أو الخوف من الوحدة .

جميعها مخاوف تمنع الإنسان من أن يستمتع بحياته، تجبره على الرفض للخوف من نتائج التجربة .

فجمال الحياة لن يراه الإنسان إلا إذا اطمأن .

****

الراحة لمن لا يتوقعون أي شيء، فإن ظنهم لن يخيب أبدًا،
ولكن هل يتوقف العقل عن التفكير؟!

هل تعلم، حياتنا تشبه الكتب كثيرًا، وأيامنا هي الصفحات، الصفحة التي تجتازها لن تعود إليها وإن عدت ستعود لتتذكر سطورها لا لتكتب سطورًا جديدة، فقد نعود لأيامنا الماضية فقط لنتذكر أحداثها لا لنعدلها، ومن بين أوراق الكتاب هناك صفحات كتب عليها أن تبقى مطوية، أيام كتب عليها أن تجلس في حجرة مظلمة في ذاكرتك .

صفحات لا تجرؤ على قراءة سطورها مرة أخرى، لكن لا تستطيع أن تقطعها، بل تفضل أن تطويها حتى تتجنب رؤيتها ولا تنساها في ذات الوقت .

وها هي تطوي هذا اليوم من كتاب حياتها، لا تريد أن تتذكر بكاءها أمامه وضعفها الذي ظهر في كلماتها وفي عينيها .

إنها ولي عهد الجنوب وولي العهد لا يضعف .

في اليوم التالي لعودتها من كهف علي، أخبرت زينب وليلة وخالد بما حدث، لكنها لم تخبرهم سوى أن مجهول أصابها وأن علي طيب جرحها، وآثرت أن تحتفظ بباقي التفاصيل لنفسها، ولم تتحدث عن مساعدة علي لها أمام أهل الشمال .

لم تخرج جاكلين في هذا اليوم من المنزل بسبب إصابتها، لكنها كانت تتعلل فليس هناك إصابة تمنع جاكلين من العمل، والحقيقة أنها كانت تتجنب رؤية علي، لا تريده أن يراها ويرى عينيها بعد أن رأى الدموع فيها، لا تقدر على أن تظهر ضعيفة أمام أحد فهي تتحمل أي شيء عدا الضعف والفشل .

أما علي فلم يتوقف عن التفكير، ألف سؤالًا يعصف برأسه حتى كادت أن تنفجر، يسأل ولا يجد من يجيبه .

كيف تحملت جاكلين كل هذا؟ وما الذي حملها على أن تحكي له من الأساس؟ لما لم تكمل له حكايتها ولما غضبت فجأة ورحلت؟

من الذي أصابها ومن منهم الذي أشعل الحريق بالأرض؟ هل هو نفس الشخص

أم أن لهم أعداء لم يعرفوهم بعد!
لا يعرف، إنه لا يعرف ولا يعلم كيف سيعرف .
ولا يعلم أيضًا سبب هذا الشعور الدفين بداخله الذي يخشى حتى أن يعترف به لذاته .
سمع علي طرقات متقطعة على الباب أخرجته من شروده فقال بصوت فاتر:
- "اتفضل" .
فتح الطارق باب الغرفة وظهر من خلفه، فإذا بها سمر خطيبته الشقراء المدللة، اقتربت منه سمر وجلست بجواره وقلبت شفتيها كالأطفال وقالت:
- "أنا زعلانة منك" .
هل مرضت يومًا وأخذت المضاد الحيوي الذي يتكرر كل ست ساعات؟ كانت سمر تقوم بدور المضاد الحيوي في حياة علي، تكرر جملة (أنا زعلانة منك) كل ست ساعات وفي بعض الأوقات تقولها (زحلانة) بالحاء حتى تكون رقيقة لكنها كانت تثير اشمئزازه .
- "ليه يا سمر مالك؟"
التفتت سمر لعلي بقوة وبدأت تسمع الكلمات التي تحفظها عن ظهر قلب لتبث بها النكد في أركان حياته:
- "أنت مش مهتم بيا خالص، ومهتم بالزراعة والأرض بس" .
كان علي لا يتحمل من يحك له أنفه لكنه حاول أن يكون هادئًا:
- "عشان احنا مش مسافرين نتفسح يا سمر دا مصير الشمال" .
- "واخدتني معاك ليه لما أنت مش فاضي" .
- "معرفش" .
قالها علي سريعًا دون تفكير ثم شعر أنه يقسو عليها بعض الشيء، فعلى الرغم من كل شيء هي لم تؤذه ولم تغضبه عن عمد، هي خطيبته وستكون زوجته بعد انتهاء هذه الفترة إن انتهت .
حاول علي أن يصلح الوضع بعض الشيء فقال:
- "قصدي إن دا غصب عني، أنا شايل مسؤولية كبيرة قوي لازم أكون قدها" .

هبت سمر لتجادله لكن هناك طرقات على الباب أنقذته منها، فأسرع علي وأمر الطارق بالدخول فدخل عمار من خلف الباب وتحدث قائلًا:
- "فخر برا، اخرج عشان شكلها عندها أخبار مهمة" .
أومأ علي برأسه فخرج عمار وسمر من الغرفة الخشبية المخصصة له بداخل منزل الشمال وتركاه ليرتدي ملابسه .
على ذكر اسم فخر تذكر علي الزجاجة المليئة بالأوراق التي أهدته إياها فخر، فشعر أنه بحاجة ليقرأ أحد أوراقها فأخرج الزجاجة من بين ملابسه، وأخرج منها ورقة وفضها وقرأ ما بداخلها:
(كل ما حولك مناسب للحياة العادية، كل ما حولك طبيعي ولكن منذ متى والطبيعي يلائمك؟)
شعر علي برسالة ما موجهة إليه لكن لا وقت للتفكير، بدل ملابسه وخرج للمجلس فوجد فخر في صدارة المجلس كالعادة فجلس وبدأ يستمع لحديثها .
- "شكيتوا في بعض طبعًا" .
نظرت فخر للجانب الشمالي وسألتهم:
- "شكيتوا في مين؟"
- "هي مفيش غيرها" .
قالها عمار مشيرًا برأسه إلى جاكلين، فأدارت فخر رأسها إلى الناحية الجنوبية، وسألتهم فأجاب خالد:
- "عمار" .
لم يكن خالد متأكدًا من اتهامه لعمار، لكنه أراد أن يرد له اتهامه لجاكلين، فهو لا يقبل إهانتها بأي شكل من الأشكال، هي من ربته وأعتنت به، فلا يقبل عليها هبوب النسيم إذا اشتد .
فمن الناس الذي إذا فعلت له معروف أنكره واعتبره واجب عليك، ومنهم من يقدر ما قدمته له ويحمله فوق رأسه حتى الممات، فيدفن وفي قلبه تقدير لك .
نظرت لهم فخر بعين ترى الحقيقة وقالت بنبرة واثقة:
- "عمار بريء، وجاكلين كمان بريئة" .

قالتها فخر حتى ترفع وطأة الاتهام من فوق عاتق كل منهما، لكنها جذبت انتباه الجميع بكلماتها، نظر لها كل الجالسين بتلهف ولم يقو أحد على أن يسألها، صمت كل شيء حتى الخيول صمتت عن صهيلها ومياه البحيرة صمتت عن صوت هديرها ليستمع كل الجالسين لما ستقوله فخر:

- "اللي حرق الأرض هو اللي حاول يقتل جاكلين، المعروف أن الخفافيش بتخرج بليل لكن الخفاش تجرأ وخرج في وضح النهار ودا معناه إن في خطر" .

كعادتها تتحدث بالألغاز، كعادتها تثير حيرتهم بكلماتها غير المفهومة وحديثها الغامض، ولأن سوسن كانت تعلم أساليب فخر في الحديث فسألتها:

- "مين دا وليه بيعمل كدا؟"

- "خفاش مستخبي من سنين، لابس أسود ومخبي وشه، لا هو أبيض ولا هو أسمر، لا من الشمال ولا من الجنوب، طول عمره بيسعى للخراب" .

- "انتي عارفة هو مين؟"

قالها عمار بهدوء غير معتاد فقالت فخر بثقة من يدري ماذا يقول:

- "الرحالة" .

خرجت مقلتا سوسن من مكانهما وشهقت زينب قائلة:

- "هم لسه موجودين؟!"

- "الرحالة سم مزروع بينا من يوم ما الأرض اتلعنت زمان، وطول ما اللعنة موجودة الرحالة هيفضلوا يسعوا للخراب" .

كان ثلاثتهم يتحدثون عن شيء يعلمونه بالفعل، لم يروه بأعينهم لكنهم سمعوا عنه كثيرًا، أما أبناء الجيل الجديد فلا علم لهم بهذا الحديث، لم يسمعوا هذا الاسم قط طوال حياتهم فقد منع الشوام وكذلك أيوب الحديث عن أسطورة الرحالة منذ بدأ عهد كل منهما، حتى نسي الناس هذه الحكاية .

لكن منذ متى ينسانا ما أردنا أن ننساه؟ منذ متى يبتعد عنا ما أردنا أن نتجنبه، من طوال خبرتي بالبشر أكاد أجزم لك يا صديقي أن ما تخشاه سيصيبك مهما طال الزمان ومهما تتابع الليل والنهار، والرحالة شر مثل أنياب الأسد، مهما طال به الوقت سيأتي يوم وينقض على فريسته .

تحدثت إحدى الفرائس، أقصد تحدث علي بضيق قائلًا:
- "ممكن تفهمينا انتي بتقولي إيه؟"
- "من يوم ما الأرض اتلعنت و . . ." .
- "اتلعنت ليه؟!"
قالتها ليلة باندفاع فنظرت لها فخر نظرة حادة وقالت:
- "كل حاجة مستخبية ليها وقت وهتظهر، وسؤالك دا لسه وقت إجابته مجاش، ولحد ما وقت إجابته ييجي اوعي تقاطعي كلامي تاني" .
شعرت ليلة ببعض الحرج فرفعت حاجبها في ضيق وهزت ساقها لتخفف من حدة التوتر، فأضافت نغمة خلخال قدمها موسيقى تصويرية للمشهد كأفلام الإثارة، فنطقت فخر مرة أخرى:
- "أنتوا فاكرين إنكوا على الأرض لوحدكوا، فاكرين إيڤانوس مقسومة شمال وجنوب بس، لكن في شعب تالت عايش معاكوا، جماعة عايشة في كهوف في الجبال، محدش يعرف مكانهم ولا يعرف يوصلهم، ولا حتى يعرف لونهم، زمان كانوا عايشين وسط الناس لحد ما جه يوم وسمهم بقى واضح زي الشمس في عز الضهر، اتطردوا من الأرض واتمنعوا من العيشة فيها" .
كانت جاكلين محدقة في فخر تسمع كلماتها وتحفظها، وحين توقفت فخر عن الحديث قالت جاكلين باهتمام:
- "وبعدين حصل إيه؟!"
- "الرحالة خرجوا من الأرض لكن شرهم مخرجش من جواهم، فضلوا سنين يحاربوا من غير حرب، يخرجوا وقت الليل يحرقوا البيوت، يسمموا ماية النهر، يموتوا المحصول، بيعملوا كل حاجة من غير ما يظهروا أو حد يشوفهم" .
توقفت فخر عن الحديث لحظات وهي محدقة في الفراغ، كأنها تسترجع مشاهد من الماضي وتعرضها أمام عينيها، ثم أكملت:
- "وبعدين اختفوا فجأة بدون سبب،
الناس نسيتهم واتحولت حكاية الرحالة لأسطورة، واتمنع الحديث عنها والكل افتكر إنهم انتهوا" .

كان الجميع يسمعونها دون أن يهتز لهم رمش أو ينشغلوا عنها لحظة واحدة، منهم من كان يستمع لهذه الحكاية لأول مرة، ومنهم من كان يمتلك معلومات غير كاملة عنها، وها هو يستكمل معلوماته من فخر ليكون صورة أكثر وضوحًا .

ابتلعت فخر ريقها وقالت بنبرة أكثر جدية من السابقة:

- "لكن سمهم وشرهم لسه موجود، ظهروا بقوة أكبر بعد ما كانوا خفافيش بتظهر في الليل، بس خرجوا تحت شمس النهار" .

أثار حديثها قلق علي فأخذه على محمل الجد وأراد أن يحصل على معلومات أكثر فتساءل:

- "عرفتي منين إن دول الرحالة؟ وفين مكانهم؟"

- "عرفت منين دي قدرة عندي مينفعش أقولها لحد، أما عن مكانهم فـ أنا معرفوش، عاملين حماية لنفسهم وكرتي مش بتقدر تعرف كل حاجة عنهم" .

ما هذا؟ هل حقًا أتت لتزيد من حيرتهم؟ هل حقًا أتت لتخبرهم بنصف الحقيقة ثم تتركهم ليخمنوا الجزء المتبقي؟

ما أسوأ أن تقف مكتوف الأيدي لا تعلم ما حدث، لا تعلم ما يحدث، لا تعلم ما سيحدث، كل ما تعلمه هو ما سمح لك الآخرون بمعرفته، فتقف عاجزًا غير قادر على فعل شيء، لا يبقى معك سوى عقلك الذي يعطيك ألف احتمال، ثم يأتي القدر وينفذ الاحتمال الألف وواحد الذي لم تتوقعه .

ما أسوأ أن يكون الشيء الوحيد الذي بوسعك فعله هو انتظار الخطر المتوقع .

ألم أقل لك لا تتعجب فالقادم دومًا سيكون أغرب!

لا تظن أن العالم سيتوقف عندما يحدث شيء سيء لك،
بل سيستمر، فقد يكون الأسوأ ما زال في انتظارك .

هل أدركت يومًا أنك صغير والعالم من حولك يتسع والسماء من فوقك ترتفع؟ كيف ستقدر على فهم كل هذا وأنت الذي لا تقدر حتى على فهم نفسك ولا تعرف ذاتك حق المعرفة!

حين رحلت فخر عن مجلسهم تركت كل منهم هائمًا على وجهه، لا يعلم ماذا سيفعل، أتركتهم فخر بعد أن تأكد كل منهم أن أعداءه قد ازدادوا واحدًا؟

لا ليس واحدًا بل جماعة، جماعة تنتعش خلاياها برؤية الحرائق، تسعد حين يعم الخراب، يجري في عروقها سم قاتل ويشربون من دماء القتلى، إنهم ليسوا مصاصو دماء بل هم من يسعون في الأرض فسادًا .

أما جاكلين، بعد أن علمت من الذي كان ينوي قتلها، أصبحت تشعر أنها ظلمت علي باتهامها له وقسوتها عليه حين كانوا يتحدثون في كهفه بعد أن طيب جرحها .

- "اعتذري له يا بنتي" .

قالتها زينب لجاكلين حين كانتا في منزلهم الجنوبي فتعجبت جاكلين وقالت:

- "اعتذر له! إزاي وليه؟"

- "عشان الراجل أثبت حسن نيته وأنقذك من الموت، وانتي اتأكدتي إن مش هو اللي عمل فيكي كدا" .

لم تجد جاكلين ما تقوله فأخذت تفكر في كلمات عمتها التي استكملت قائلة:

- "انتي أه بتكرهيهم وأه اتربيتي على إنهم أعداء، لكن برضه أنا ربيتك على إنك تحفظي الجميل، وهو له فضل عليكي، ويا بنتي انتي طول عمرك قلبك أبيض، القوي مش هو اللي مش بيغلط، لأ القوي اللي لما يغلط يعترف بغلطه ويتعلم منه" .

سمعت يومًا مقولة (أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة) وقد اقتنعت بها أشد الاقتناع، فمن عاش في هذه الدنيا أكثر منك ولو بلحظات قد رأى أكثر منك، قد

تعلم أكثر منك، قد مر في حياته أشخاص أكثر منك، أو قد تألم أكثر منك وحياتنا كالمدرسة خير معلم فيها هو الألم .

انتظرت جاكلين حتى خلد كل من في الصحراء إلى نومهم إلا علي كان يجلس أمام شعلة النار التي تتوسط المجلس، فاقتربت منه دون أن يراها، تعرقت يداها وسرى التوتر في أوصالها لكنها أغمضت عينيها لحظة واحدة استعادت فيها ثباتها ثم قالت:

- "أنا آسفة" .

اخترق صوتها سكون علي فنظر لها بتعجب ثم قال:

- "على إيه؟"

- "عشان أسلوب كلامي معاك آخر مرة، وعشان كنت شاكة إن أنت اللي حاولت تقتلني" .

توقفت لحظة ونظرت لكتفها المصاب ثم أكملت:

- "وشكرًا عشان أنقذت حياتي" .

ابتسم علي ثم قال لها مشيرًا إلى أحد المجالس الحجرية بجانبه:

- "اقعدي يا جاكلين" .

جلست جاكلين دون أن تعترض فبدأ علي حديثه:

- "بصي يا جاكلين، الناس نوعين، منهم يدوق الوجع فيتمنى يشوف كل الناس موجوعين زيه، ونوع يتمنى إن محدش يحس بالوجع أبدًا .

أنا اتوجعت لما شوفت ناس بتموت قدامي ومقدرتش أسيب أهلك يتوجعوا بموتك .

ودلوقتي الدور عليكي" .

تعجبت جاكلين من جملته الأخيرة فتساءلت:

- "يعني إيه الدور عليا؟"

- "الدور عليكي متوجعيش قلب الناس بموت حد عزيز عليهم قدامهم زي ما أمك ماتت قدامك، متوجعيش طفل هيعيش يتيم زيك انتي وخالد بسبب حرب ملهمش دخل فيها، ارحمي الناس من الوجع اللي انتي اتوجعتيه" .

كانت جاكلين تستمع لكلماته وتفكر، هل حقًا قد تؤذي الناس ذات الإيذاء التي تعرضت له دون أن تشعر؟ هل من ذاق طعم الألم سيتمنى لو أن جميع الناس معذبين أم سيحاول أن ينجيهم من الوقوع في مياه الألم التي شرب منها حتى ارتوى؟

هل الطائر المذبوح يستطيع إنقاذ باقي الطيور من قضبان القفص؟

هل الغريق يمكن أن يكون قشة نجاة يتعلق بها غريق آخر؟

قد تظن أنك مذبوح في حين أنك قد تكون طوق نجاة يتعلق به مذبوح آخر ليحيا .

لم تجد جاكلين ما تقوله لكنها ابتسمت ابتسامة رضا وأومأت برأسها ففهم علي أنها ستفكر فقال:

- "خلاص أنا مش زعلان منك" .

لم تجد جاكلين فرصة كي ترد عليه، حيث سمع كل منهما صوت أنغام تأتي من بعيد:

- "يا عزيز عيني وأنا بدي اروح بلدي،
ليلة نمت فيها وصحيت ملقيتش بلدي،
بلدي يا بلدي ويا عيني على بلدي،
بين أهلي وناسي وبقيت غريب يا بلدي،
عمي ياللي ماشي ظلمي مترضاشي، سافر قلبي ومجاشي يدور على بلدي،
يا عزيز عيني وأنا بدي اروح بلدي،
دا مش لون عينيكي ولا دية إديكي،
بدل ما أخاف عليكي بخاف منك يا بلدي" .

حين توقفت ليلة عن الغناء كان علي وجاكلين يقفان خلفها عند البحيرة حيث كانت تجلس متخفية في ظلام الليل .

- "بتحبيها؟"

انتفضت ليلة حين سمعت صوت علي من خلفها فنظرت ووجدت كلاهما خلفها فضحكت كعادتها فقال:

- "بلدك، بتحبيها؟"
ابتسمت ليلة وقالت:
- "بحبها بس؟ أومال أنا هنا ليه؟ دي القعدة في دارنا وصوت تسقيف الناس ليا لما بغني يرد الروح" .
توقفت ليلة للحظات ثم استكملت:
- "آه عمي أيوب بييجي عليا، وآه الجنوب فيه عيوب كتير، وآه الوضع اللي احنا فيه وحش . لكن بحبها حتى لو بتوجعني بحبها" .
كانت هذه أول مرة يتحدث فيها علي مع ليلة حديث بهذا الشكل، لم يستمع يومًا إلى وجهة نظرها، لم يستمع إلا لصوت غنائها ولصوت رنة خلخالها .
- "حتى لما بتوجعك بتحبيها؟"
- "بص يا علي، أنا مغنية ومليش في جو الحكم والزعامة والحاجات دي، أنا مغنية والغنا فن واللي يقدر الفن هو أكتر حد بيشوف الجمال، الجنوب دا زي أمي، أنا مخترتش أمي بس بحبها حتى لو فيها عيوب" .
تبسم علي من بساطة حديثها وسهولته فأكملت:
- "القرد في عين أمه غزال بقى" .
ضحك علي وضحكت جاكلين ومن فوقهم رنت ضحكة ليلة فقال لها علي:
- "انتي إزاي دايمًا بتهزري وتضحكي في كل الظروف كدا؟"
نظرت له ليلة ثم هزت قدمها وقالت:
- "أنا ضحكتي بترن طول ما خلخالي بيرن في رجلي" .
ما أغربنا نحن البشر، قد لا تميل أنفسنا إلى أشياء قد تجلب لنا الراحة، لكننا دائمًا ما نميل إلى ما يؤذينا ويؤلمنا، إنها طبيعة متأصلة بداخل الكثير منا، فبيننا من يعشق شيئًا يجلب له الألم، يسعى خلف شيء يتعب قلبه، يفعل كل ما بوسعه إكرامًا لشيء لا يقدم له الممكن .
بيننا من يسير بلادًا لشخص لم يخطو خطوة واحدة من أجله، يضحي بالسعادة الأبدية مقابل السعادة اللحظية التي يعطيها له من يحب، بيننا من يشرب المياه المسمومة ويسير على الأرض المليئة بالأشواك، ولا يشعر بالألم فقط لأنه

يفعل ذلك من أجل حبيب، حتى وإن كان هذا الحبيب لا يقدر أو لا يشعر .
هو لا يشعر بك وأنت أيضًا لا تشعر بكمية الألم التي تجنيها باقترابك منه .
لن تمل يومًا ولن تكف عن تقديم كل ما لديك، فقد أحببته وانتهى الأمر .
حتى وإن كان اقترابك منه يقتلك، فبعض البشر يستحقون أن ندفع حياتنا ثمنًا للاقتراب منهم .
حتى أنت أيها القارئ، تعشق أشياء تجلب لك الألم، وتحب أشخاص تؤذيك لكن ومنذ متى ونحن نختار ما نعشق؟
فيا صديقي يجب أن تعلم أن كل شيء بداخلك ملكك إلا قلبك ملكٌ لنفسه .

لا تظن أنك حر،
أنت فقط تمتلك حرية الاختيار من بين الخيارات التي أجبرك عليها القدر .

في مجلسهم المعتاد الذي تحضره فخر كل فترة أرادت فخر أن تغير مجرى الحديث ليسير في منحنى آخر فقالت متسائلة:

- "يعني إيه اختيار؟"

تعجب الجالسون من حديثها ومن سؤالها غير المتوقع، فلم يعطها أحد إجابة، ولم تكن تنتظر إجابة من أحدهم بل كانت ترمي بحديثها لشيء آخر، أدارت فخر رأسها ونظرت لخالد غلام جاكلين وقالت:

- "يعني إيه اختيار يا خالد؟"

ازداد تعجب خالد حين وجهت له سؤالها هو بالأخص، لكنه لم يبد تعجبه بل قال بوقار لا يتلاءم مع عمره:

- "مقدرش أقولك معنى حاجة مجربتهاش" .

- "يعني إيه؟"

- "يعني أنا مجربتش أختار حاجة عشان كدا معرفش يعني إيه اختيار" .

تعجبت فخر من أسلوبه في الحديث وإجابته غير المتوقعة فأرادت أن تستمع له أكثر فقالت له:

- "عرفنا بنفسك قولنا أنت مين؟"

تنحنح خالد وأحنى ظهره قليلًا فارتكز بمرفقيه على ركبتيه، وشبك كفيه في بعضهما وقال بهدوء:

- "أنا خالد، مساعد ولي العهد" .

- "بس كدا؟"

- "مفيش في حياتي حاجة تانية غير إني مساعد ولي العهد" .

هزت فخر رأسها في إعجاب ثم سألت مرة أخرى:

- "عمرك كام سنة؟"

- "عمري ١٦" .

- "مش شايف إنك صغير شوية على وظيفة كبيرة زي دي؟"
أدار خالد رأسه يمينًا ويسارًا أن (لا) ثم قال بذات الثقة في النفس التي تتحدث بها جاكلين:
- "صغير أو لأ دي بتتحدد على أساس أنا مقصر في الوظيفة أو لأ، ولو أنا بعمل مهمتي صح يبقى سني ملوش أي قيمة" .
- "أنت اللي اخترت الوظيفة دي؟"
هز خالد رأسه نافيًا ثم قال:
- "هي اللي اختارتني،
أنا عندي يقين إن أي حاجة بختارها بتكون جزء من مجموعة اختيارات مفروضة عليا" .
- "يعني إيه؟"
- "يعني لو أنا قدامي كذا اختيار وأنا اخترت حاجة منهم ميبقاش اسمي حر أو بختار بمزاجي، لأ، أنا اخترت حاجة من مجموعة خيارات مفروضة عليا .
أنا مؤمن إن في ظروف دايمًا بتأثر على اختياراتنا ولو الظروف دي اتغيرت أكيد هنكون ناس غيرنا وعايشين حياة مختلفة .
مفيش حاجة اسمها اختيار، دي خطوات مكتوبة لينا من قبل ما نتولد احنا بس بنمشيها" .
هل جربت يومًا أن تصف الدواء لطبيب؟
هذا بالضبط ما فعله خالد، كان يخرج من فمه كلمات حكيمة كإجابة على سؤال حكيمة أرض إيڤانوس .
أعجبت فخر بكلمات خالد أشد الإعجاب، كانت كلماته غاية في النضج والرشد على الرغم من أنها تخرج من بين شفتيه بمنتهى السهولة .
أرادت فخر أن تستمع أكثر لحديثة الهادئ فسألت مرة أخرى:
- "راضي عن شكل حياتك وعن اختياراتك؟"
- "كل حاجة حصلت لي وكل اختيار أخدته كان مناسب في الوقت اللي أخدته فيه، ولو رجع بيا الزمن هكرر اختياراتي من تاني لأنها مترتب عليها حاجات تانية

زي الدومينو، لو واحدة وقعت هتوقع باقي الصف" .
كان خالد صادقًا كل الصدق في كلماته .
فكل كلمة تقولها، كل فعل تقوم به، كل ما يحدث لك وكل قرار تتخذه في طريق حياتك يترتب عليه آلاف التفاصيل التي ستشكل مستقبلك، كل ما حدث سابقًا يشكل حاضرك اليوم، وكل ما يحدث اليوم سيشكل مستقبلك .
فيا صديقي هي مجرد خطوات مقدرة لنا قبل أن نولد، كل خطوة تؤدي للتالية وإذا اختفت خطوة منهم سينهار الطريق بأكمله، فنصيحة مني لا تحزن على اختيار خاطئ قد اتخذته أو فعل أحمق قد ارتكبته، ففي يوم من الأيام سيكون خطؤك جزء من نجاحك، أو على الأقل ستتعلم منه .
غادرت فخر مجلسهم متجهة إلى خيمتها ومن خلفها عدنان غلامها الأخرس، الذي لا يتركها، لم يكن يشغل بالها في الطريق غير كلمات خالد الصغير التي تدل على اتساع عقله أكثر من سنوات عمره، كيف لفتى في مثل عمره الذي لم يقترب من حاجز العشرين أن تخرج منه كلمات كهذه؟
ما الذي عاهده وعاشه حتى يكون بهذا الرشد؟!
لما تتساءل! إنها ليست مضطرة أن تسأل كي تعلم بل حالًا ستعلم .
وصلت فخر إلى خيمتها في الصحراء عند مفترق الطريق، وجلست فوق كرسيها العالي وكالعادة جلس عدنان على الأرض بجانبها، وبدأت رحلتها المفضلة بداخل النافذة الزجاجية التي تطل من خلالها على أيام الماضي، وترى أحداث عفا عليها الزمن وترى ما تخفيه النفوس وما تكتمه القلوب .
أضاءت الكرة الزجاجية ضوءها وبدأت في عرض المشاهد .
طفل صغير عمره ثلاث سنوات له بشرة سمراء مثل التي يمتلكها كل من يسكنون الناحية الجنوبية من إيڤانوس، يجلس بجانب والدته السمراء على سريرها في غرفة متواضعة إلى حدٍ ما، على الرغم من أن الغرفة توجد بداخل منزل أيوب زعيم الجنوب وأغنى رجاله إلا أن الغرفة كانت بسيطة، فدومًا غرف السادة تختلف عن غرف خدمهم .
وعلى الرغم من بساطة الغرفة إلا أن السيدة كانت فرحة بها، فهذا أول يوم لها

في غرفتها المستقلة، بعد أن أصبحت رئيسة الخدم وتركت الغرفة التي تنام بها خادمات المنزل كله .

ها هي اليوم ولأول مرة منذ أن وطأت قدماها أرض منزل أيوب تنام مع صغيرها في غرفة بمفردهما، وبالنسبة لها هذا كان أعظم أمنياتها، فدائمًا الأشياء البسيطة تسعد الفقراء، وكثيرًا لا تقدر أعظم الأشياء على إسعاد الأغنياء .

- "احكي لي حدوتة يا ماما" .

ابتسمت الأم واحتضنت صغيرها ثم قالت في حنان بالغ:

- "حاضر يا أستاذ خالد تحب أحكي لك إيه؟"

فكر الصغير بابتسامة خفيفة ثم قال ببراءة:

- "إحكي لي حاجة أول مرة تحكيها" .

توقفت الأم عن الحديث للحظات سألت نفسها سؤالًا واحد: هل جاءت اللحظة المناسبة؟ دون تردد قررت الأم أنها ستخبر الصغير بكل شيء:

- "هحكي لك حكاية حقيقية" .

ازداد حماس الصغير أكثر فبدأت الأم في إخراج ما بداخلها:

- "أنت عارف إحنا ليه بقى لينا أوضة لوحدنا؟"

هز الصغير رأسه نافيًا فقالت الأم:

- "باباك هو اللي عمل كدا" .

- "مش قولتي أن بابا مشي ومش هيرجع تاني؟"

- "باباك مات وهو بيخدم الجنوب، هقولك كلام ممكن متفهموش دلوقتي بس هتفتكره بعدين،

باباك كان من عساكر جيش الجنوب وفي ناس مجهولين قتلوه" .

- "عشان كدا مش هشوفه تاني؟"

أومأت الأم برأسها وهي تحاول أن تبتسم وتداري الأسى الذي بداخلها، فهي تعلم أن ما تقوله يفوق مقدرة صغيرها على الإدراك:

- "باباك بطل يا خالد وكان بيحبك أوي، عشان كدا الزعيم كرمني وخلاني رئيسة الخدم وبقى عندنا الأوضة الحلوة دي،

أنت كمان لازم تكون بطل زي باباك» .
لم يحزن الصغير لحديث أمه، بل لم يفهمه حق الفهم، فعمره الصغير لم يسعفه ليفهم حديث كهذا، كيف لطفل لم يبلغ الرابعة من عمره أن يفهم معاني مثل الحرب والدمار والموت واليتم! كيف له أن يستوعب هذه المفردات ويتعايش معها!
لا تتعجب ففي بعض الأوقات يكون عليك أن تتقبل أوضاع جديدة لا تعلم عنها شيء، تضيف لقاموسك كلمات جديدة لا تفهمها، في بعض الأوقات يتغير كل شيء رغمًا عنك وليس عليك سوى أن تتأقلم .
عاد الطفل لحديثه الطفولي مرة أخرى وقال:
- «هنكون أبطال أنا وجاكلين» .
كانت الأم تعلم مدى تعلق خالد بجاكلين ابنة أيوب، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم أن جاكلين أيضًا متعلقة بخالد إلا أنها كانت تخشى هذا التعلق .
كيف لابنة زعيم الجنوب أن تتخذ ابن خادمة والدتها صديقًا وأخًا، من المؤكد أن سبب هذا التعلق هو أن جاكلين وحيدة بلا أخوة وبلا أصدقاء، وغير مسموح لها بتجاوز أسوار المنزل، ليس لها إلا خالد وليلة، على كل حال والدة جاكلين ستلد قريبًا، ومن المؤكد أن المولود المنتظر سوف يحل محل خالد ويأخذ منه اهتمام جاكلين .
فكرت الأم في كل هذا وتمنت لو أن قلب صغيرها يظل بريئًا هادئًا دون أن يحطمه أحد، فهذا الصغير لن يقوى على فقدان الأب والصديقة معًا .
ابتسمت الأم لصغيرة وقالت:
- «هقولك حاجة امشي بيها عمرك كله، اللي يشتريك ويثبت لك إنه قد ثقتك فيه يبقى يستاهل تبيع عمرك عشانه، واللي يبيعك اوعى تسمح له يبقى في حياتك عشان اللي يبيعك مرة هيبيعك ألف مرة لو جات له فرصة» .
نقش الصبي كلمات والدته على جدران عقله على الرغم من عدم فهمه لها كاملة، لكنه كان يحب أن يستمع لوالدته قبل أن ينام كل ليلة .
لحظات وغفلت عين الصغير لكن عين والدته لم تنم، ظلت مدققة في ملامحه

الجذابة التي تشبه ملامح والده لكنها بصورة مصغرة، ملامح تجذب كل من نظر إليها، كم افتقدت زوجها الذي فقد عمره في صراعات لا ناقة له فيها ولا جمل، احتسبت زوجها بطلًا وشعرت أن الأيام تعوضها بخالد، هذا الصغير الذي سيكبر أمام عينيها ليأخذ مكان والده في جيش الجنوب .

توقفت الأم للحظات عند هذه الجملة التي خطرت ببالها .

هل تجعله مثل والده فتفقده كما فقدت والده! أم تحميه من هذه الصراعات وتجعله مجرد راعي أغنام في أرض الجنوب؟

كل منا يقف في حياته عند هذا السؤال، هل يحيا حياة المهمشين السهلة بلا فائدة أم يتحمل عناء الطريق وصعوباته ليحقق شيئًا يفتخر به أبناءه حين يصبح هو مغطى بتراب الأرض؟

كلها اختيارات نحاول أن نختار منها شكل حياتنا المستقبلية ولكن القدر دائمًا له الكلمة العليا .

أغمضت الأم عينيها وانطفأ معها ضوء الكرة الزجاجية .

أضواء ملونة مختلطة أخذت تظهر بداخل الكرة حتى اختفت الأضواء وظهر مشهد جديد ليوم جديد .

يوم تمنى الجميع لو أن شمسه لم تشرق ولو أن ليله لم يأت .

يوم كان كالمحطة التي يغير عندها القطار مساره .

كانت والدة خالد تقف في مطبخ منزل أيوب تشرف على إعداد الخدم لطعام الإفطار، حتى سمعت صوتًا يشبه الصراخ، فعلمت أن الوقت قد حان وأن زوجة أيوب ستلد الآن .

هل من بين كل الأيام ستلد السيدة في اليوم الذي خرج فيه أيوب لرحلة صيد؟ كم كان يتعجل الوقت ليأتي هذا اليوم، وكم يتمنى أن تلد زوجته صبيًا ليكون وليًا للعهد له .

ركضت والدة خالد على سلم المنزل حتى وصلت لغرفة أيوب وفتحت بابها فانتفضت السيدة وقالت:

- "في إيه يا أم خالد؟"

وجدت والدة خالد أن كل شيء على ما يرام والسيدة لا تظهر عليها آثار التعب فقالت معتذرة:

- "أنا آسفة يا هانم لكن سمعت صوت صراخ افتكرت حضرتك . . . ." .

لم تستكمل والدة خالد جملتها حتى تكرر صوت الصراخ مرة أخرى، لكنه كان أعلى من المرة الأولى، نظرت كل من السيدتين للأخرى بعين يملؤها الرعب، فقد أدركت كل منهما أن خطر ما يقترب، على الرغم من أن المقاطعة قائمة بين الاتجاهين لكن الخطر دائمًا لا ينقطع .

دقائق من القلق والتوتر اللذان يزدادان كلما اقترب الصوت، صوت خيول وصراخ وسيوف، لا بد أن هناك معركة تدور في الطابق السفلي بين رجال الشمال وحرس المنزل .

- "اهربي يا أم خالد، اهربي وربي ابنك وبنتي" .

- "أهرب! أهرب وأسيبك إزاي؟"

- "لو مهربتيش هتموتي هنا" .

- "أنا مش هسيبك، جوزي مات في مكانه وبقى بطل، وأنا مش هسيب مكاني وأهرب، أنا مشفتش في بيتكوا إلا كل خير ومش أنا اللي اتخلى عن الناس اللي وقفت جنبي،

وجنب ابني" .

الوقت لم يسعف السيدة لترد على والدة خالد الوفية، فقد فتح باب الغرفة السري ودلف منه الصغيران وركض كل منهما إلى حضن والدته، وحين اقترب الصوت أكثر وأيقنت كلاهما أن شيء سيء سيحدث، فأمرت السيدة جاكلين بأن تختبئ خلف الستائر فأوقفت والدة خالد جاكلين وقالت:

- "خدي خالد معاكي واوعي تسيبيه" .

اختبأ خالد بجانب جاكلين ولم ير ما حدث بعدها، بل كان يسمع ما يقال خلف الستائر دون أن يفهمه، حتى قالت والدته جملتها الأخيرة على مسرح حياته:

- "أنا اللي هموت مش هي" .

بكى الطفل كثيرًا حين خرج من خلف الستائر مع جاكلين فارتمي في حضن والدته

الساكنة، بكى دون أن يفهم لكنه كان يحتاج لأن يختبئ بداخل حضنها الذي لطالما ضمه ليلًا .
جميلة هي تلك الأشياء التي تعطينا الإحساس بالأمان .
وما أسوأ الأشياء الجميلة التي نحرم منها رغمًا عنا .
فلا يوجد أسوأ من شيء جميل تفعله للمرة الأخيرة .

لا يوجد ما يسمى بالصدفة،
كل ما حدث وكل ما سيحدث خلفه حكمة ما،
لكنك لم تدركها بعد .

لم تكن من المصادفة أن يلتحق والد خالد بجنود الجنوب فيقتل غدرًا من الأعداء فترتقي والدة خالد في عملها لتصبح ملازمة لزوجة أيوب، ولم يكن من المصادفة أيضًا أن يتقرب الطفلان لبعضهما تلقائيًا دون ترتيب .

لماذا كانا صديقين؟ لماذا كانا يقضيان وقتهما كله يلعبان معًا خلف أسوار المنزل؟ ما الذي جمع بينهما لهذا الحد؟

قد تجد في حياتك علاقات غير مفهومة، لا تعلم كيف بدأت أو أين، من الذي بدأها أو لماذا بدأت؟ لا تعلم أي إجابات لكنها أصبحت جزء أساسي لا تستقيم حياتك بدونه .

وكأن الله وضع بينكم قوة جذب لا يقدر عليها بشر ولا تمحيها الأيام، كأن الله ربط بين قلوبكم برابطة خفية مثل شجرتين منفصلتين لكن لهم جذرًا واحدًا ممتدًا تحت الأرض .

وهذا ما كان عليه خالد وجاكلين، كل ما حدث وكل الظروف كانت تؤهلهما ليكونا شجرتين لهما جذرًا واحدًا، جمع الله بينهما منذ الصغر ليكونا معًا حين يرحل الجميع .

وها هم قد رحلوا .

ألم أقل لك يا صديقي أن كل ما يحدث توجد خلفه حكمة ما؟

ألم أقل لك أنه لا يوجد صدفة؟

ها هما الصغيران قد كبرا معًا، لم تنس جاكلين يومًا أن والدة خالد وصتها به قبل وفاتها، لم تنس أنه أصبح في زمتها، ماتت والدتها قبل أن تلد لها أخًا وماتت والدته مثل والده، وتركهما القدر معًا كقشتين في مهب الريح .

منذ هذا اليوم وبإرادتهما أو رغمًا عنهما أصبحا أخوين، أصبح خالد ينام في غرفة من غرف المنزل بعيدًا عن مبيت الخدم، يحضر دروس الخيل والصيد والمبارزة مع جاكلين مثله كمثل أبناء الزعماء، كان أيوب يعد ابنته لتصبح ولي العهد

وجاكلين تعد خالد ليصبح مساعدًا ومعاونًا لها .
لم تتخذ قرارًا يومًا دون أن ترجع له وتشاوره وهو لم يفعل شيئًا دون أن يكون لها علم به، كل منهما يشجع الآخر ويساعده، كل منهما يقوي الآخر ويمد له يده حين يقع، كان لها نعم الأخ وكانت له نعم الأخت، كانت تفهمه دون أن يتحدث وتدرك ما بداخله قبل أن ينطق بكلمة، أما هو فكان دومًا بجانبها دون أن تطلب منه ذلك، فما مرا به معًا كان أكبر من أن يترك أحدهما الآخر، فقد جمعت بينهم الأيام وانتهى الأمر ولا يوجد من يقدر على قوة الأيام .
الآن وبعد أن رأت فخر كل شيء علمت سر تعلقهما ببعضهما، وسر مصاحبته لها في كل مكان، علمت أن جاكلين تنفذ وصية والدة خالد، وعلمت سر إصرار جاكلين على الأخذ بالثأر لوالدتها ووالدته، علمت الكثير من كرتها الزجاجية وأهم شيء أنها حصلت على إجابة لسؤالها اللحوح: ما الذي جمع بين شاب السادسة عشر وشابة في العشرين ليصبحا بهذا الترابط؟
فمن وجد له عونًا في هذه الدنيا بعد أن كان وحيدًا عليه أن يضعه في حجرة من حجرات قلبه .

قبل أن تفتح صفحة جديدة انظر خلفك،
هناك ورقات كثيرة مطوية لم تغلق بعد .

مر نهار اليوم هادئًا كسابقه ثم أسدل الليل ستائره فوق الأرض الصحراوية فنام كل من في الأرض وكان هذا هو المطلوب .

في الثلث الأخير من الليل وقبل أن يحل الفجر تحرك هذا الجسد بين المنزلين بخطوات هادئة واثقة، كأن صاحبها يعلم أين هو ذاهب ويعلم موقع كل شيء بل يعلم عدد حبات الرمال، أخذ يتحرك حتى وصل لشاطئ البحيرة التي تزين الأرض، توقف هذا الجسد أمام البحيرة، وفي ذات الوقت كان هناك جسد آخر يتسلل داخل منزل الشمال حتى وصل إلى سرير سوسن، فوضع يده على كتفها وهزها برفق ففتحت عينيها وقبل أن تنطبق بكلمة وضع يده على فمها كي لا تتحدث، ثم أشار لها فخرجت معه دون أن تنطق بكلمة أو تسأله إلى أين هي ذاهبة، تركها أمام المنزل ثم تسلل بداخل المنزل الجنوبي وكرر فعلته مع زينب، التي خرجت معه هي الأخرى فأشار هذا الغريب لسوسن وزينب فاتبعتاه حتى وصلا للبحيرة إلى الغريب الذي كان ينتظرهم، فاستدار هذا الغريب ونظر لهم فقالت سوسن بقلق:

- "في إيه يا ست فخر؟"

نظرت زينب لفخر الواقفة أمام البحيرة وبجانبها عدنان غلامها الذي أيقظهم من نومهم للتو وقالت:

- "من امتى وفي اجتماعات بتتعمل دلوقتي؟"

نظرت فخر لها وقالت بهدوء:

- "عشان اللي هيتقال دلوقتي مينفعش يتقال قدام حد" .

تنبهت السيدتان لحديثها، ففخر دائمًا لا تقول إلا كلمات مهمة وإذا كان الحديث موجه لسوسن وزينب على حدا فمن المؤكد أن هناك شيء خطير .

- "أنا مينفعش أتكلم قدامهم لكن انتو أكيد عارفين أنا هقول إيه، إذا كنتوا فاكرين إن اللي حصل زمان مات تبقوا غلطانين" .

تبدل وجه زينب ونظرت سوسن شزرًا وقالت:
- الموضوع دا اتقفل من زمان ومش هتكلم فيه" .
جاء رد فخر بحدة أكثر من حدة سوسن حيث قاطعتها وقالت:
- "لأ متقفلش، غلطتكوا لسه عايشة وموجودة وبتكبر كل يوم" .
حاولت زينب أن تغلق هذا الحديث الذي يذكرها بأيام تتعمد أن تنساها فقالت:
- "بس احنا اتفقنا زمان على إن اللي فات مات" .
- "اللي فات ما ماتش، اللي فات عايش جواكوا وبيموتكوا كل يوم، اللي فات مش هيموت طول ما غلطات الماضي لسه متصلحتش" .
كانت كلماتها بمثابة آلة زمنية عادت بهم للخلف ثلاثين عامًا أو أكثر، كلماتها ذكرت كلتا السيدتين بأيام كانتا تحاولان نسيانها، صدق من قال أن الأيام لا تموت .
فمن الممكن أن يموت الإنسان بين ليلة وضحاها لكن ما قام به، ما قاله، كل خطأ ارتكبه وكل ذنب اقترفه وكل يوم عاشه فوق سطح الأرض هو أثر لا يمحى، يفنى الشخص ولكن كل ما فعله أثناء حياته لا يزول .
فالأيام لا تموت حتى وإن فارق أصحابها الحياة .
ما الذي جعل فخر تقول هذه الكلمات اليوم؟ ما الذي جعلها تفتح دفاتر الماضي وتفتش فيها مجددًا؟
كانت سوسن تمتلك قدر عالٍ من الذكاء جعلها تدرك أن مجيء فخر اليوم وحديثها هذا له سبب ما لا ينبغي أن تغض بصرها عنه فهدأت من حدة نبرة صوتها وقالت:
- "إيه سبب الكلام دا دلوقتي؟"
نظرت فخر لسوسن وردت عليها بوقارها المعتاد وثبات من يدري ماذا يقول:
- "سببه أن ولادكوا بيدفعوا ثمن غلطة انتوا الاثنين اشتركتوا فيها زمان، العداوة اللي اتولدت بين ولادكوا بسببكوا لازم تنتهي" .
أطرقت كل من السيدتين لثوانٍ فأكملت فخر:

- "لازم تنسوا اللي حصل بينكوا زمان، عشان دلوقتي ظهر ليكوا عدو تاني، خطر الرحالة أكبر بكتير من الكره اللي بينكوا" .

توترت زينب وبدأت تدق بكعبها على الأرض سريعًا فأصدر خلخال قدمها جرسًا مسموعًا كخلفية موسيقية لهذا المشهد الذي لن يشاهده أحد ولن يعلم أحد ما دار فيه غير من حضره .

أدركت زينب أن فخر لن تستمع لحديثهما ولن تقبل النقاش بل جاءت لتأمرهما بشيء ما وليس بوسعهما عصيانها فسألت زينب في استسلام من ليس بيده حيلة:

- "إيه المطلوب مننا دلوقتي؟ انتو عارفين إني أكتر حد ضد الحرب، وهبقى أكتر حد متضرر منها، لو كنتوا ناسيين ف أنا أكتر حد قلبه هيتحرق لكن اعمل ايه وأنا أيوب مانعني من إني أقول رأيي لجاكلين" .

- "تساعدوا ولادكوا، ساعدوهم يقفوا قدام عدوهم الأكبر، انسوا العداوة اللي بينكوا وخافوا على ولادكوا،

قدامكوا اختيارين" .

تنبهت كل من السيدتين لآخر كلمة وازداد فضولهما .

منذ متى ويوجد خيار؟ منذ متى ونحن نمتلك زمام الأمور ونختار ما يحلو لنا؟ هل اختار أحدنا أبواه؟ قدره؟ مصيره؟ هل اختار أحدنا لون عينيه؟

فيا صديقي هذه الدنيا فتاة جامحة تفعل ما يحلو لها ونحن ما بأيدينا إلا الانصياع لرغباتها .

نحن فقط من يدعي الحرية .

أكملت فخر عرضها وقالت الاختيارين:

- "الاختيار الأول إنكوا تنسوا خلافاتكوا فترة وتساعدوا علي وجاكلين وتفهموا إن عدوكوا واحد وإن مصلحة الأرض دي أكبر منكوا وساعتها أنا هقف معاكوا، والاختيار التاني تفضلوا كدا مش شايفين العدو اللي مستنيكوا وهيتكرر المشهد اللي بيحصل من سنين، موت ودم وخراب وأنا مش هقدر أعمل حاجة .

وقتها الأرض هتتلعن لما تلاقي الأهل بيقتلوا بعض" .

لم تتحدث أي من السيدتين، فقد كانت كل منهما تعلم صدق كلمات فخر وأنها على حق، خطر الرحالة ليس بهين بل كان أكبر بكثير من الشجار القائم بين الشمال والجنوب لكن ما باليد حيلة .

كيف ينسون ما قد حدث سابقًا؟ كيف عليهم أن يصبحوا يدًا واحدة قبل أن يهل الفجر؟ كيف تبات ليلتك وأنت تعلم من يعاديك ثم تستيقظ وقد تحول عدوك لحليف؟

لا تستهن بالأمر يا صديقي فهو ليس مجرد شجار بين عائلتين، بل ما زال هناك العديد من الصفحات في رواية حياتهم لم تقرأها بعد .

وهذه هي إيڤانوس، رواية لا تنتهي، لا نظن أنك قرأتها، فدومًا هناك صفحات اتفق الأبطال على إخفائها .

اختارت كلتا السيدتين الاختيار الأول رغمًا عنهما حفاظًا على دماء أبنائهما، فوضعت فخر يدها أمامها وقالت:

- "كدا احنا اتفقنا، اللي قبلينا قالوا من آمنك لن تخونه ولو كنت خاين، وأنا الخاين عندي دمه رخيص وملوش دية .

متفقين؟"

وضعت سوسن كف يدها فوق يد فخر ومن فوقهما وضعت زينب يدها كعلامة على أنهن قد اتفقن، يد سمراء ويد بيضاء ويد قمحية قد اجتمع فيهن سواد البشرة مع بياضها .

لو كنا نصنع فيلمًا سينمائيًا لكان المخرج سيرتفع بالكاميرا لأعلى ليصور هذا المشهد من ارتفاع، مشهد التقاء هؤلاء الثلاثة ألوان معًا في لحظة نادرة .

أسود، وأبيض، وقمحي، كألوان الحياة التي لا تستقر على حال أبدًا، كبياض النهار وضيائه وسواد الليل وسحره واختلاط الضوء والظلام في لحظة الغروب .

فمن المعروف أن النهار والليل والغروب أبدًا لا يجتمعوا في وقت واحد لكنه قد حدث الآن، واخترق الثلاث نسوة قوانين الكون ألم أقل لك يا صديقي؟ لا تتعجب، فالقادم دائمًا سيكون أغرب ففي هذه الليلة نام أهل إيڤانوس ولا يعلمون أن هناك ثلاث نسوة مستيقظات لتحديد مصير الأرض .

فعلى هذه الأرض من أمضى ليلته مستيقظًا فاعلم أنه يفكر في النائمين .

الحديث يحيي بداخلك آلام كنت تحاول أن تقتلها لكنك لم تستطع
فكيف تقتل آلامك وأنت الذي فارقت الحياة منذ زمن!

وراء كل عظيم امرأة،
ووراء الشوام سوسن .
كانت فترة زعامة الشوام لأرض الشمال حافلة بالانتصارات، لكن إذا لم تكن سوسن في حياة الشوام لكانت إنجازاته لا تتخطى إنجازات مراهق في المرحلة الإعدادية، أقصى آماله هو التخفي لتدخين سيجارة أخذها خلسة من جيب والده أثناء نومه .
كانت سوسن من أجمل فتيات أرض الشمال، لكنه جمال متخفي لا يظهر للناظرين، جمال مختلط بوقار وهدوء ونضج لا يليق مع عمرها الذي لم يصل للعشرين حينها، كانت من أبناء عائلة الشوام التي تتولى زعامة الشمال منذ القدم، لكنها كانت أكثرهم ذكاءً ورصانة وأكثرهم تقربًا للشعب، وكان هذا شفيعًا لها أمام والد الشوام ليتقدم لخطبتها لابنه .
تعجبت سوسن كثيرًا حين تقدم الشوام لخطبتها، فهي تعلم أنه لا يحبها بل كانت متأكدة أنه ليس من اختارها بل أن والده هو من اختارها زوجة لابنه .
ما يميز سوسن عن مثيلاتها من الإناث أنها كانت واقعية، ترى الحياة من حولها بعين الحقيقة التي لا تزيف الواقع، كانت تعلم أن الشوام سيتزوجها لذكائها وحسن تصرفها وكأنه يريد معاونًا له في الحكم وليس زوجة، كانت تعلم ذلك ورضت به بل وكانت سعيدة أنها ستصبح في مركز قيادة أرض الشمال التي تعشق ترابها وأهلها، كانت متفتحة العقل، تعلم أن لا أحد يأخذ من الدنيا كل شيء، لذا لم يفرق معها أن الشوام لا يحبها ففي المقابل كان كل من في الشمال يحبها .
فكيف يفرق معها حب فرد واحد إذا كانت تحظى بمحبة كل الشعب حتى وإن كان هذا الفرد هو حاكمهم، فالحكام يتبدلون بينما الشعب باقي ما دامت الشمس تشرق على الأرض، لم تكن تطمع في الجاه أو السلطة، بل كانت تسعى

لمصلحة أبناء أرضها، حتى وإن كانت بالزواج من زعيم لا يحبها سيتزوجها إرضاءً لوالده وحتى يكمل مظهره الحضاري أمام الشعب .
قبل زواجهما بأيام انقلب كل شيء رأسًا على عقب، تبدل الوضع في منزل الشوام من الهدوء للاضطراب، دبت الثورة في المنزل وفي عروق الشوام دون سبب واضح .
كل شيء غريب ومريب لكن لا يعلم السر وراء هذا الاضطراب إلا الشوام وحده، حتى جاءت ليلة لا يمكن أن ينساها أحد، ليلة حددت الكثير في مستقبل إيڤانوس .
بدون مقدمات قام الشوام بزيارة سوسن في منزلها عند منتصف الليل وقال وكأنه يحفظ ما سيقول ورده على نفسه مرات عديدة:
- "أنا كنت ناوي أهرب" .
ظهرت علامات الدهشة على وجه سوسن وقبل أن تنبث بكلمة قال الشوام مستكملًا:
- "متستغربيش، كان المفروض دلوقتي أكون في بلد تانية غير الشمال وغير إيڤانوس كلها، كل حاجة كانت مترتبة لحد من يومين بس الوضع اتغير ومش هيرجع تاني زي الأول" .
- "أنا مش فاهمة حاجة" .
- "باختصار أنا كان عندي هدف مستعد أخسر كل حاجة عشانه" .
- "حتى أنا؟"
- "حتى نفسي، كان عندي استعداد أخسر نفسي عشان الهدف دا، لكن غصب عني خسرته وخسرت معاه كل حاجة،
دلوقتي بدور على حياة جديدة يمكن ألاقيها عندك، تقدري تساعديني؟"
هل فكرت يومًا في أن تضع حياتك بكل ما فيها رهنًا لهدف واحد؟ هل جربت أن تصبح يومك وتمسيه تفكر في هدف ليس لك سواه!
ماذا لو بعد سعيك الطويل خلفه فقدت هذا الهدف رغمًا عنك؟ ماذا لو أن كل ما أفنيت حياتك سعيًا خلفه أصبح هباءً منثورًا! ستكون مثل الذي تاه في

الصحراء وهو يركض خلف السراب ليروي ظمأه .
غريب هو هذا الإنسان، قد يخسر حياته بأكملها ليشتري شيئًا واحدًا وفي النهاية يجد أنه قد خسر نفسه .
نصيحة مني، إذا لم تجد في حياتك ما تحب فاصنع لنفسك حياة أخرى .
فلم يعد في العمر وقت نمضيه في البكاء على ما فقدناه .
فتح الشوام صدره لسوسن وأخبرها بكل ما حدث وكل ما كان يخطط له بصراحة زائدة جعلتها مشدوهة، أخبرها بكل ما حدث في السنة الماضية دون أن يخفي عنها شيئًا فإذا أردت أن تبدأ حياة جديدة عليك أن تغلق حياتك الماضية بكل ما فيها، وأن لا تترك سرًا يمكنه أن يفسد لك كل شيء، فأسرار الماضي بمثابة عقارب يمكنها أن تفسد عليك حاضرك .
- "بعد اللي قولتهولك دا انتي من حقك تختاري تكملي معايا أو لأ، لكن اللي عاوزك تعرفيه إن مفيش حد في أرض الشمال يعرف الحكاية دي غيرك، رأيك إيه يا سوسن؟"
لم تطلب منه سوسن وقتًا لتفكر بل رفعت رأسها وقالت بوقارها المعتاد:
- "أنا هكمل معاك لكن توعدني إن كل اللي حصل يكون صفحة واتقفلت" .
- "أوعدك" .
لم تكن سوسن بالغباء الذي يجعلها تخسر مستقبلها مقابل أخطاء فعلها الشوام في شبابه، حتى وإن كانت هذه الأخطاء ستحيا معهم بداخل منزل الشمال .
كان حفل زفافهم بمثابة حفل تعيين نائبًا لزعيم الشمال وليس حفلًا لزفافه، وما هي إلا أيام وأعلنت المقاطعة بين الشمال والجنوب، ومنذ يومها أصبحت سوسن السيدة الأولى للشمال، واستقرت حياتهما معًا وعاشا في منزل الزعامة، ومن بينهما ابنيهما (عمار) و(علي) وبينهما أيضًا خطأ ارتكبه الشوام سابقًا، خطأ يكبر كل يوم عن اليوم السابق، حتى وإن لم يتحدثا عنه أو يذكراه .
لكن هناك أخطاء لا يمحوها الزمان حتى بعد الغفران .
مرت السنوات على سوسن حتى أصبحت هذه السيدة التي تجلس الآن في صحراء إيڤانوس تستمع لغناء ليلة وهي تعد العجين الذي سيتحول لخبز بعد

قليل .
اكتفت سوسن بهذا الكم من الذكريات التي انهالت عليها بسبب حديث فخر في الليلة الماضية، فتركت مكان جلوسها وذهبت إلى المنزل لعلها تحظا ببعضٍ من النوم .
لم يتبق في المجلس سوى عمار وليلة وأنغام ليلة التي تلف المكان في أي وقت تتواجد فيه ليلة، من يصدق أن مطربة الجنوب السمراء تجلس الآن في ساحة إيڤانوس مع عمار الشمالي الأبيض وتحاول استمالته نحوها .
نعم! ليلة التي أرهقت قلوب شباب الجنوب أجمعين تحاول الآن استمالة قلب هذا الأبيض المغرور، كان بداخلها شعورًا لا تفهمه، لا تفهم ماذا تريد؟ هل تريده أخًا؟ أم صديقًا أم حبيبًا أم تحتاج لوجوده فقط؟ الحقيقة أنها كانت تحتاجه بجانبها بغض النظر عن تصنيفه، تحتاج أن يكون لها عونًا في الحياة، يدًا تلتقطها حين تتعثر، أذنًا تسمع لها، لسانًا يحدثها حينما تحتاج للنصيحة، ربما احتاجت لوجوده في حياتها كوجود خالد في حياة جاكلين فقد سئمت الوحدة، وبدأت تبحث لنفسها عن ونيس حتى وإن كان له بشرة بيضاء، يكفي أنها أعجبت بحسمه وصرامته وتصرفاته القاطعة في بعض الأمور .
فأحيانًا نبحث بين الناس عن الشخص المختلف لنقترب منه ليس حبًا فالاختلاف وإنما رغبة في دخول عالم جديد، عالمٌ جديد تضع فيه قدميك لأول مرة برفقة شخص يختلف عن كل من قابلت في حياتك، فكلما ازدادت علاقتك بالناس ازداد بحثك عن شخص مختلف .
أما هي، كأنما كانت تقصد البحث عن الشخص الخطأ .
كانت السمراء تجلس أمام الطبق الكبير الذي تعد فيه العجين وتدق بكعبها فوق الأرض لتسمع رنة خلخالها وتهز كتفها الذي يزينه الوشم وهي تغني:
"حن ع القلة دا الغريب حن، ما تحن ع القلة دا الغريب حن،
خلاخيلي دول اللي أنا لبساهم هم دهب ولا أنا رسماهم؟
يادي الدلع ياللي أنت وياهم شبان بلدنا اللي أنا فايتاهم حنوا، حن ع القلة دا الغريب حن .

وضفايري دول اللي أنا طلقاهم هم سلف ولا أنا جدلاهم؟
يادي الدلع ياللي أنت وياهم شبان بلدنا اللي أنا سيباهم، حنوا، حن ع القلة دا الغريب حن" .
نظر لها عمار بطرف عينه فابتسمت له وهي تتنهد بين كلماتها الملحنة واستكملت غنائها بابتسامة .
"وغوايشي دول اللي أنا لبساهم هم دهب ولا أنا سرقاهم؟
يادي الدلع ياللي أنت وياهم شبان بلدنا اللي أنا فايتاهم حنوا،
حن ع القلة دا الغريب حن" .
صمتت ليلة للحظة واحدة حتى تلتقط أنفاسها وقبل أن تستكمل انتهز عمار الفرصة وقال بنبرة مليئة بالملل:
- "كفاية كفاية" .
تبدلت ملامحها وقالت بخيبة أمل:
- "أنت مش بتحب الغنا؟"
- "لأ مش بحبه خالص" .
- "غريبة يعني دي الست سوسن بتفرح لما تسمعني بغني وبتقول إن صوتي حلو" .
لم تنتظر أن يجيبها عمار بل وجدت فرصة جيدة للحديث بينهم فتبدلت ملامحها وقالت بحماس:
- "أومال أنت بتحب تعمل إيه؟"
- "بحب السكوت" .
- "يعني إيه؟ بتعمل إيه لما يكون عندك وقت فاضي؟"
- "مش بعمل حاجة لأني مش بيكون عندي وقت فاضي للتفاهة دي" .
على الرغم من قسوته في الرد التي تظهر من بين كلماته إلا أن ليلة آثرت أن تعبر له عن وجهة نظرها فقالت بنبرة فلسفية:
- "عمر الحاجات اللي بتفرحنا ما كانت تفاهة، أنا شايفة إن أهم حاجة في حياة الإنسان إنه يلاقي حاجة يحبها ويكون مبسوط لما يعملها .

الحاجات البسيطة دي يا عمار هي اللي بتخلينا نقدر نستحمل كل الكلكعة اللي في حياتنا .
لولا الحاجات البسيطة دي يا كنا هنموت من زمان" .
إذا كانت ليلة تتحدث مع شخص آخر لكان أبدى لها إعجابه بوجهة نظرها في الحياة، فقد كانت على حق، الأشياء البسيطة التي نفعلها بين الحين والآخر هي التي تجعلنا نتحمل كل ما نواجهه في طريق الحياة .
لكنه عمار الشوام، لا يتنازل عن وجهة نظره في أي نقاش ويرفض أن يكون الطرف الخاسر في أي معركة كلامية، خاصة إذا كانت أمام سمراء جنوبية تدعي أنها على علم بالحياة أكثر منه .
نظر لها بملل شديد وقال مقتضبًا:
- "دي ميول بتختلف من شخص لآخر" .
كان يحاول أن يرد عليها بطريقة فلسفية أكثر من طريقتها حتى لا تظهر بأنها أكثر منه خبرة، فتخلت هي عن تحفظها في الحديث وقالت بلهجة مليئة بحماس الطفولة:
- "بس أنا متأكدة إني هقدر أقنعك وأخليك تغني معايا كمان" .
قالت كلمتها الأخيرة بضحكتها المعهودة فنظر لها متعجبًا رافعًا أحد حاجبيه، فقالت بابتسامة هادئة:
- "ممكن تعتبرنا أصحاب" .
ها هي فرصته! ها قد أتت له الفرصة ليضرب بكل قواعد الذوق والأخلاق عرض الحائط، أنزل عمار حاجبه المرفوع وقال ببرود:
- "دي آخر حاجة ممكن تحصل" .
دهشت ليلة بسبب رده الصادم لكنها سألته متعجبة وقد تحشرج صوتها:
- "ليه؟!"
- "بغض النظر عن أني مش بحب حد يسألني عن الأسباب لكن احنا مينفعش نكون أصحاب، مينفعش نكون أي حاجة .
احنا اتخلقنا مختلفين وهنفضل مختلفين" .

- "بس احنا بنحاول نتغير ونكون . . . ." .
قاطعها عمار دون أن يسمح لها أن تستكمل جملتها قائلًا:
- "مفيش حاجة اسمها تغيير، وحتى لو احنا مجبرين نتجمع مع بعض في مكان واحد برضه هنفضل مختلفين .
مفيش حاجة هتتغير وأنا شايف إني سمحت لك بمساحة زيادة من الحرية لكن احنا هنفضل عكس بعض، أنا ابن الزعيم وأنت بنت الرقاصة" .
تعلمون حجم جبل أحد؟ هل جرب أحدكم أن يقع هذا الجبل فوق رأسه؟ هذا ما شعرت به ليلة وهي تستمع لكلمات عمار التي كان يلقيها كالحجارة في وجهها، كيف له أن يكون على هذا القدر من الوقاحة؟ لم يترك لها وقت حتى لتجيب على كلماته التي تفتقر للذوق والأخلاق بل قام واقفًا ونظر لها من أعلى وقال بما تبقى له من قلة ذوق:
- "ياريت متعديش حدودك تاني" .
قالها ورحل بعد أن غرس خنجرًا في قلبها الأبيض الذي ما أراد شيئًا سوى أن يكسب صديقًا جديدًا، أو ربما صديقًا وحيدًا!
لا تتعجب يا صديقي فعادةً هذا ما يحدث حين تقبل على الحياة محاولًا أن تغير طبيعتك فتعود باكيًا ممزق الثياب .
لكلٍ منا نقطة قوة، ونقطة ضعف، وكذلك نقطة فشل، فعلى الرغم من نجاحاتها المتكررة وعلو منزلتها وسط شعبها إلا أنها كانت دائمة الفشل حين تحاول أن تكسب الشخص الذي تريده .
ففي هذه الحياة لا تتوقع أنك ستحصل على كل شيء فإذا كنت ناجحًا في كل المجالات من الذي سيشرب من كأس الفشل؟ فمهما كنت ناجحًا عليك أن تحصل على رشفة من كأس الفشل بعد كل وجبة نجاح .
تمنت ليلة لو أن تبكي لكنها أيضًا كانت فاشلة في هذه المهارة .
إن الدموع تسيل من أعيننا معبأة بالأملاح فماذا لو لم تخرج؟ ماذا لو فقدت القدرة على البكاء؟ اعلم أن اليوم الذي لن تستطيع البكاء فيه هو يوم إلقاء البذور بداخلك .

ستزرع بداخلك بذور ترويها بسيل الدموع الذي لم يخرج من عينيك، بذور تنمو كل يوم عن اليوم السابق بقدر ما تروى به من أمطار الدموع، حتى تصل لليوم الذي تجد فيه أن بداخلك نبات اخضر عوده وأزهرت فروعه، نبات ينمو بداخلك ويمدك بالأوكسجين لمساعدتك على تحمل العالم المعبأ بثاني أكسيد الكربون .

فهذه نبتة صبر وهذه نبتة نضج وهذه زهرة جمال وهذا عود أخضر سيصبح يومًا ما نبات له عطر جميل .

أما هذه، هي شجرة الألم التي تظلل عليهم بأفرع من القوة .

لا تحاول أن تقترب من النباتات التي بداخل أحدهم .

فإن كان قطف أزهار الحدائق ذنب، فماذا عن أزهار قد رويت بماء مالح؟

يا من فقدت القدرة على البكاء استمع لي واعلم أن ما لم يخرج من عينيك قد أزهر بداخلك واخضر عوده .

لم تستطع ليلة حتى أن تقوم من جلستها أو أن تتخذ أي رد فعل غير أنها ظلت جالسة في مكانها لا تحرك ساكنًا، بل تعيد كلماته على نفسها ليعتصر قلبها في صمت .

لو أن زينب علمت بما يجري بداخل قلب صغيرتها لكانت خرجت لها تكرر على مسامعها مبادئها التي كانت وما زالت ترددها:

"اكتفي بنفسك يا صغيرتي، لا تأمني للرجال ولا لما يأخذون على أنفسهم من عهود، كلما شعرتي بأنك تميلين، استقيمي واطلقي خصلات شعرك في الهواء وارقصي، فالرجال لا يتأثرون بميل قلبك لكن مع تمايل خصرك في الهواء يتساقطون" .

ستحيا وحيدًا لتتعافى من آلامك، ثم تخرج للعالم متفائلًا،
ثم تعود مرة أخرى لوحدتك مؤمنًا أنها الأفضل .

لم يخلقنا الله نسخ مكررة لا فارق بيننا، بل وهبنا عقلًا ليختار كل منا من يكون وهبنا الله حق التفكير والتأمل، فكيف ننساق خلف آراء ومعتقدات الآخرين لأنها هي السائدة!

(إن لم يعجبك اللون السائد فاختلف)

اكسر قيود المعروف، تحرر من المألوف، لا تضع خيوط حياتك إلا بين يديك واصنع أنت ذاتك بعيدًا عن أعين المنساقين، ليس حبًا في الاختلاف ولكن سعيًا وراء الحقيقة .

هكذا يكون القائد .

ما جعله قائد هو أنه يختلف عن عامة الناس، فإذا كان (علي) مثلهم لماذا يكون قائدهم! ما الذي فرقه عن أبناء جيله حتى يصبح زعيمًا عليهم!

اعلم يا صديقي أنك إذا اختلفت عن الناس سيكون أمامك طريقين لا ثالث لهما، إذا اختلفت وفشلت أخرجوك من بينهم، وإذا نجحت صرت زعيمهم .

جلس ابن سوسن بجانب ابنة الشوام في صدارة المجلس الذي يحضره الجميع، وقال بصوت يملؤه وقار الزعماء:

- "لازم تعرفوا إننا لينا أعداء غير بعض" .

لم يتحدث أحد فاستكمل علي:

- "الرحالة حرقوا الأرض، كانوا هيموتوا جاكلين، أكيد المرة الجاية هيموتوا حد فينا بجد" .

- "وإيه الحل؟"

قالها خالد بملل، فقد كان حديث علي معروف لدى الجميع، فهو لم يأت بجديد لكن هذه المرة جاكلين هي من تحدث:

- "الحل إننا نواجه ونعرف إننا لينا عدو مش ظاهر، كلنا كبرنا واحنا عارفين إن الجنوب والشمال أعداء، لكن مكناش نعرف إن في عدو عايز ينتقم مننا احنا

الاثنين لسبب احنا منعرفوش» .
حين ذكرت جاكلين كلمة السبب توجهت الأنظار صوب (فخر) الجالسة معهم، ففهمت ماذا يريدون فقالت:
- «أنا مش هقول حاجة دلوقتي، كل حاجة هتعرفوها في وقتها» .
قاطعها علي مستكملًا:
- «ولحد ما نعرف السبب لازم نتصرف، أنا وجاكلين وصلنا لحل معقول، اكتشفنا إن عندنا في الشمال الجيش كويس، لكن معندناش أسوار تحمي الأرض وكدا الأرض مكشوفة» .
نظر علي لجاكلين التي استكملت:
- «واحنا في الجنوب عندنا سور محاوط الأرض كلها لكن للأسف الجيش عدده صغير، وعشان كدا لازم نعمل تبادل» .
صمتت جاكلين فتحدث علي ليشرح ما اتفقا عليه:
- «هنعمل خطة دفاع بين الشمال والجنوب، ولما نتفق عليها هناخد موافقة الشوام وأيوب ونبدأ ننفذها» .
هب عمار واقفًا من جلسته قائلًا بثورة:
- «أنا مش موافق، إزاي عايزهم يعرفوا مراكز القوة والضعف اللي في أرضنا؟ أنت كدا بتبيع الأرض» .
- «أنا كدا بحمي الأرض من عدو أخطر من الجنوب» .
- «انتوا نسيتوا كلام فخر؟»
قالها عمار مشيرًا بيده لفخر ثم استكمل ليذكرهم:
- «نسيتوا اننا لازم نحارب بعض في الآخر ولما الدنيا تمطر هنعرف مين الأقوى؟ نسيتوا إن في النهاية طرف واحد فينا اللي هينتصر؟»
لحظات من الصمت تبادلت فيها فخر وزينب وسوسن النظرات، وتذكرن عهدهن الذي عاهدن به بعضهن أمام البحيرة فقالت زينب:
- «لو يوم المطر جه أكيد الحرب هتكون هنا في الصحراء، يعني معرفة قوة وضعف الأرض مش هتفيدنا في حاجة» .

هكذا أثبتت زينب وفاءها وتنفيذها للعهد وجاء الدور على فخر:
- "أنا شايفة إنهم هيوصلوا لخطة كويسة، ولو متنفذتش يوم المطر مش هاييجي لأن وقتها هنكون كلنا أموات على إيدين الرحالة" .
- "بس الخاين ملوش مكان بيننا" .
قالتها سوسن لتثبت هي الأخرى أنها توفى بعهدها فقالت فخر بدورها:
- "حد معترض؟"
تبادل الجميع النظرات ولم ينطق أحد، فقامت فخر من مجلسها وأخذت شيئًا من عدنان غلامها واقتربت من علي وجاكلين وقالت:
- "دول هيساعدوكوا" .
قالتها وألبست كل منهما قلادة بها دائرة سوداء وقالت:
- "يوم المطر السلسلة دي هتنور بشعار الأرض المنتصرة، زهرة اللوتس أو قرون الغزالة" .
ورحلت .
رحلت بعد أن أكدت لهم أن هذه الأرض لن تتحمل الطرفان معًا ولا بد من منتصر .
ولكن من ينتصر!
أيام تمر، شمس تشرق وليل يحل، أيام متتابعة مرت منذ بدأ علي وجاكلين العمل مع بعضهما على إعداد خطة ضد الرحالة .
وها هو يوم آخر قد مضى وكعادتك في هذا الوقت من الليل تكون لنفسك العودة، ها هو يوم آخر قد مضى بسلام وهدوء يكاد أن يصل للملل، ها هو يوم آخر قد مضى استطعت فيه للمرء الألف أن تغلق أبواب قلبك على ما بداخلها .
استطعت أن تخفي عن أعين الناس ما يوجد بقلبك الذي أرهقه الكتمان .
أحمد الله على أن أعين الناس ترى مظاهرنا فقط، ويخفى عنها ما يوجد خلف أسوار قلوبنا، أرجو منك أيها القلب أن تظل قادرًا على كتمان الأسرار وكفاك تفكيرًا أيها العقل واخلد للنوم قليلًا، فما هي إلا ساعات ليمر النهار ويأتي ميعادنا اليومي مجددًا .

لتكون لنفسك العودة .
لم تكف جاكلين يومًا عن ممارسة هذه العادة وهي الحديث مع نفسها، تحدث نفسها ليلًا وتستمع لها وتهون عليها .
ما أجمل أن تقيم علاقة صداقة مع نفسك، فأنت أكثر من يضمن نفسك، تضمن أنك صديق لن يغدر وحبيب لن يهجر، أدركت جاكلين أنها لن تستطيع النوم في ليلتها هذه، فأخرجت ورقة من الزجاجة التي منحتها إيها فخر لتقرأ ما بها فوجدت رسالة:
"ابحث في طريقك عن شعلة مضيئة تساعدك على السير والصبر، فكيف يكون الصبر دون ما يساعد على بقائه؟"
شعرت جاكلين بشيء ما بداخلها يقول لها أن تخرج للبحيرة لميعادها اليومي مع علي .
لم يتفقا سابقًا على هذا الميعاد لكن عمدًا أو عن غير عمد أصبحت البحيرة مجلسهما وظلام الليل موعدهما .
جميلة هي الأشياء التي تأتي دون موعد، تحدث دون ترتيب، فكما قالت (ليلة) الأشياء البسيطة هي ما تجعلنا نستكمل الطريق .

****

كثيرًا أشعر أن هذه الكرة الأرضية ليست ملكًا لنا، بل نحن ضيوف أتينا إليها وسنرحل قريبًا كما رحل ضيوف قبلنا، وسيأتي ضيوف بعدنا وسيرحلون، لذا لا تشعر بأنك الوحيد على هذه الأرض، فهناك سكان آخرين عليها، ربما ستلتقي بهم في يوم من الأيام وربما تمر الأيام وتترك هذه الدنيا دون أن تعلم من الذي يشاركك الحياة في هذه الأرض .

أشرقت الشمس على وجه آخر من أوجه الأرض ربما في مكانٍ آخر أو في زمان آخر، هذا لا يهم لكنها أشرقت .

مرت ساعات النهار بطيئة ومملة على هذا الشاب، في عمله في إحدى الشركات الكبرى، في حين مرت الساعات على زوجته في المنزل متعبة ومرهقة، فقد كانت تقضي نهارها في أداء الأعمال المنزلية وتنظيف المنزل وإعداد الطعام .

هكذا تعاهدا على السير معًا، كل منهما يبذل مجهودًا فيما يستطيع فعله، هو يقضي ساعات في العمل حتى يرفع من مستوى أسرته الصغيرة، وهي تقضي يومها في المنزل لتعده لاستقبال زوجها، وهكذا مرت الأيام عليهما وعلى زواجهما الذي لم يمر عليه سوى ستة أشهر فقط منذ يوم زفافهما السعيد الذي عرضت لك مشاهد منه سابقًا .

عاد الزوج إلى منزله الصغير الواقع في أحد شوارع مدينة نصر، فأدار مفتاحه في باب الشقة ودلف للداخل، فوجد زوجته جالسة على أحد الكراسي في صالة المنزل بوجه بشوش تزينه ابتسامة متفائلة، فقامت من جلستها بحماس واقتربت منه قائلة:

- "عندي ليك خبر حلو" .

تهللت أساريره وقال بلهفة بالغة:

- "في ايه؟"

- "قريب اوي بيتنا الصغير دا هيكون فيه حد جديد" .

اتسعت ابتسامتها أكثر وهي ترى الفضول والحماس في عينيه وقالت مستكملة:
- "أنا حامل" .
كانت جملة قصيرة، لكنها كانت قادرة على تغيير كل شيء، جلمة واحدة ستغير مجرى حياتهما، وتضيف عليه شيء من البهجة، فما هي إلا شهور ليرا كل منهما نتاج قصة حبهما التي زينها الزواج، وسيزيدها هذا الطفل جمالًا، فما أجمل أن ترى أمامك نسخة مصغرة من شريك حياتك تنمو أمامك كل يوم .
ما أجمل أن ترى نفسك مع من تحب بداخل طفل واحد،
وها هما سيرزقان بهذا الطفل بعد بضعة أشهر ليزيد حياتهما ضياء .
أعذرني علي أن أترك حياتهما جانبًا الآن، لكن أعدك بأنني سأذكرهما لك لاحقًا لكن ليس الآن، إنه الصبر يا صديقي،
الصبر ومن ينتظر .

****

٤- تأقلم

لطالما آمنت أن هذه الدنيا لها نظام لا يخترق،
مهما حاولت أن تحدث تغييرًا في حياتك هناك ثوابت لن تستطيع أن تغيرها .
كنظرة عينيك، صوت ضحكتك، دموعك التي تسيل دون أسباب، رعشة يديك في المواقف المقلقة، الوخز الذي يصيب قلبك بين الحين والآخر، الوحدة التي تشعر بها بين التجمعات، نبرة صوتك، لمسة يديك، عيناك التي تراقب من تحب في كل مكان .
وميل قلبك للشخص الخطأ .
جميعها أشياء فرضت عليك، جميعها أشياء ترسم شخصيتك وتميزك عن الآخرين وليس بوسعك تبديلها .
كذلك الأقدار، هناك أقدار تستطيع أن تبدلها وهناك أقدار ثابتة ليس لنا دخل فيها، حتى وإن حاولت لن تقدر، فأقدارك التي فرضت عليك سيترتب عليها المستقبل، لا تحاول أن تهرب من قدرك يا صديقي فهي حلقات متصلة تؤدي لبعضها البعض ما أن غابت واحدة ستنهار باقي الحلقات فوق رأسك .
وبعيدًا عن المنطق الذي يقول بأن الإنسان قادر على تغيير كل شيء .
هناك أشياء لا تتغير، عليك فقط أن تتأقلم .

****

خرجت جاكلين من المنزل ليلًا، وسارت في طريقها المعتاد حتى وصلت للبحيرة، وجلست بجانب علي، فقال دون أن ينظر لها:

- "كفاياكي تفكير" .

ابتسمت بهدوء الليل الذي يحاوطهما وقالت:

- "عرفت منين إني بفكر؟"

- "مش بتخرجي بليل كدا غير لما تكوني بتفكري وتعبتي من كتر التفكير، على فكرة تفكيرك دا هيخليكي تموتي ناقصة عمر" .

ابتسمت جاكلين ابتسامة أوسع وقالت:

- "أموت من التفكير أحسن من إني أعيش طول عمري مليش وجود، وأما أموت محدش يفتكرني" .

كيف تقدر على أن تقنعه بكلماتها في كل مرة تتحدث فيها؟ كيف تقدر على أن تجعله يقف عاجزًا عن الرد أمام كلماتها، كيف لها أن تفكر بهذا المنطق وتتحدث بهذا الهدوء!

من أي طينة خلقت هذه السمراء المتمردة، لا شك أنها....,

- "يا علي بكلمك" .

قطعت جاكلين حبل أفكاره بحديثها الذي لم يسمع منه شيء سوى اسمه فأعادت عليه كلماتها:

- "بقولك إني بعت الخطة لأيوب في الجنوب عشان ينفذها" .

كانت تتحدث عن الخطة التي اتفق عليها علي وجاكلين في الاجتماع، فقد مر ما يقرب على الشهر منذ هذا الاجتماع، وعلي وجاكلين يتقابلان كل ليلة أمام البحيرة يتحدثان عن أحوال الأرض والجيش، وكيفية وضع خطة دفاع عن الأرض إذا هجم الرحالة عليها .

باختصار تعاونا في وضع خطة تجعل الشمال والجنوب في أمان بالإضافة إلى

تقوية الجيش في الجنوب وبناء الأسوار في الشمال ثم أرسلها كل منهما لأرضه .
قال علي هو الآخر:
- "أنا كمان بعتها لأبويا، الخطة دي لو فشلت هتنازل عن الزعامة لعمار" .
- "إزاي تتنازل عن حقك؟"
- "الحق دا ساب عمار وجالي معرفش ليه!"
صمتت جاكلين قليلًا لتفكر في السؤال الذي طالما تمنت أن تسأله له، لكنها كانت تضع كبريائها فوق كل اعتبار، من هذا الغريب حتى تسأله عن حياته الشخصية؟
أخرس جاكلين سيل الأفكار الذي في رأسها وقررت أنها ستسأله، من الواضح أنها بدأت تتأقلم .
- "إزاي أنت الزعيم مع إن عمار هو أخوك الكبير؟"
- "محدش يعرف إجابة السؤال دا غير الشوام وسوسن، لكن أنا ممكن أحكي لك" .
أومأت جاكلين برأسها أي أنها موافقة، فقد كان بداخلها فضول غريب لتعلم ما الذي يخفيه هذا الأبيض خلفه، ما الذي أوصله ليكون زعيمًا على الشمال، وها هو سيرضي فضولها .
ولد علي وكما يقولون في فمه ملعقة من ذهب، وإن لم يأكل ابن الزعيم بملعقة من ذهب فمن سيأكل؟
كان علي هو الابن الأصغر للشوام بعد عمار، كان عمار هو الابن الأكبر حيث جاء للدنيا قبل علي بخمس سنوات، وإذا أردنا الدقة كانا لا يمتان لبعضها بصلة، فإن عمار كان ضخم البنية منذ الصغر ويتفوق على كل أبناء سنه في الطول، وكذلك كان يتفوق عليهم في تمارين الفروسية والرمح، كان عمار يشبه الشوام كثيرًا حاد الملامح وكذلك الطباع على عكس أخيه الأصغر تمامًا .
جاء علي صغير الجسم في طفولته، معتدل البنية في شبابه، إن قلت إنه أكثر من حصل على الحب والحنان في أطفال الأرض لا تقل أني أبالغ، كان هادئًا بعض الشيء وكان حنونًا البعض الآخر، ورث من سوسن ملامحها الجميلة الهادئة

وشعرها البني الناعم وهدوء طبعها ووقاره .
وهكذا كبر الطفلان، أخذ عمار من والده كل شيء حتى حبه للحكم والحرب، وأخذ علي من والدته حبها للحلول السليمة واهتمامها بأحوال الفقراء وعطفها عليهم، ولذلك اقترب عمار من والده فأصبح ذراعه اليمنى واليسرى معًا، ويعلم كل شيء عن الحكم وعلى الناحية الأخرى اقترب علي من سوسن ولم يهتم يومًا بإدارة الشمال أو حكمه وحصل وبكل الفخر على لقب (ابن أمه) .
اتفاقات وعهود وأوراق واجتماعات يحضرها عمار مع الشوام، ولهو وتنزه وساعات من العبث يقضيها علي كل ليلة مع أصدقائه، حين يحل الليل كل يوم يخرج على مع أصدقائه ولا يعود إلا حين تشرق الشمس، ثم يستيقظ عصرًا فيقضي وقته وحيدًا في غرفته أو صامتًا حين يجلس مع والده .
وحدها سوسن كانت تعلم أنه يهرب من المنزل، يهرب من والده الذي يعامله على أنه استكمالًا للعدد، يعامله على أنه لن يفلح في أي شيء .
وهل طلب منه أن يقوم بشيء من الأساس ليفشل! ليس ذنبه أن والده لا يحتاج إليه وأنه مكتفي بعمار، ليس ذنبه أنه حين جاء للدنيا كان والده قد قرر أن عمار هو نائبه .
ما الإنجاز الذي قام به عمار حين جاء للدنيا أولًا؟ والحق يقال أن العيب ليس عليه، فعلى الرغم من قسوة عمار وحدة طباعه إلا أنه كان ماهرًا في الإدارة والحكم واستخدام السلاح، كان يليق بأن يكون زعيمًا بحق، النسخة المصغرة من الشوام .
تلجلج علي في الحديث حين كان يقص لجاكلين حياته فصمت قليلًا ليستجمع ذاكرته وقال:
- "وصلت لسن أربعة وعشرين سنة، متعلم أحسن تعليم، متربي في أكبر بيت في الشمال لكن كنت تايه ومش لاقي نفسي .
كنت بخرج مع أصحابي كل يوم وارجع الصبح، مكنتش مبسوط، كنت حاسس أن حياتي فاضية" .
كان علي صادقًا في حديثه عن نفسه، لا يجمل الحقيقة ولا يزينها بل كان

يحكيها كما هي، مرت عليه الأيام في شجار دائم مع والده بسبب عدم تحمله للمسؤولية وكثرة سهره في الخارج كل ليلة، لكن ذات يوم كان الشوام في أقصى نوبات غضبه فوجه حديثه إلى علي معنفًا إياه:

- "أنا مش هستحمل تفاهتك واستهتارك دا كتير" .

وأخذ الشوام يعنفه ويقلل من شأنه والحق يقال أن حال علي لم يكن يليق بأبناء الزعماء ولا يليق بأي شاب في مثل عمره، لا يعمل، لم يتزوج، لم يفعل أي شيء يحسب له ولذلك كان الشوام يلقي عليه سيلًا يوميًا من الانتقادات حتى قال:

- "أنا لما كنت في سنك كنت زعيم الشمال" .

فاض كيل علي فنطق منفجرًا بغضب وكأن هذا اليوم هو النقطة التي هدمت السد فقال بصوت مرتفع:

- "أنا مش زيك، أنا مش أنت عشان أبقى زيك، أنت اللي بعدتني عنك وعن كل حاجة .

أنا لو كنت فاشل فعلًا فدا بسببك أنت" .

قالها علي وخرج تاركًا والده ووالدته والمنزل وكل شيء، خرج وذهب حيث يلتقي بأصدقائه كل ليلة في ملهى ليلي خارج حدود الشمال، وككل يوم جلس على مائدته الخاصة التي لا يفارقها ولا يجلس فوقها سواه وغرق في ألوان الخمور التي يشرب منها كل ليلة، حتى يكتفي ثم يندم على ما شرب فيكره ضعفه والفراغ الذي يقتله ثم يعود إلى منزله بقلبٍ خاوٍ .

لكن هذه الليلة اختلفت عن السابقات .

كان (علي) يشرب من كأسه المليئة بالمادة الصفراء، ويجلس على مائدته ثلاث فتيات ملامحهن لا تتبع الشمال وأصوات ضحكاتهن تدوي في المكان .

لم يكن يعلم أن هناك عين تراقبه من بعيد، منذ ما يزيد عن ساعة وعلى غير توقع وجد من يسحبه من ملابسه فوقع من فوق الكرسي، ووجده والده هو من سحبه ثم رفع الشوام يده في الهواء وهوى بها على وجه (علي) دون أن يتحدث، وكأنه وضع قوة كل السنوات الماضية بداخل كف يده وتركها تهوي

فوق وجه ابنه .
- "وبعدين!!"
قالتها جاكلين لعلي متعجبة مما تسمع فقال لها:
- "أبويا أخدني البيت من غير ولا كلمة" .
حين وصل الشوام مع علي إلى المنزل وضع رأس ابنه أسفل صنبور المياه كي يفيق من الخمر الذي شربه جسده والغفلة التي تسرق عقله وقال بغضب:
- "سهر برة الشمال وخمرة وبنات أغراب عننا، هو دا اللي أنت متربي عليه؟ يوم ما تيجي تتجوز هتتجوز واحدة منهم؟"
أخرج علي رأسه من أسفل الصنبور وقال بوجه مبتل وشعره الناعم ملتصق بجبهته بسبب المياه:
- "وإيه يعني؟"
- "مفيش جواز غير بنت من أرضك، أنا غلطت في تربيتك وأنت كمان غلطت ودلوقتي جه وقت إنك تدفع الثمن" .
قالها الشوام ثم سحب علي من يده، ونزل به سلم ضيق في آخره غرفة مظلمة فارغة تشبه السجن .
لا، بالفعل كانت السجن الخاص بمنزل الشوام يضع بداخله من يشاء دون أن يعرضه على محكمة، وفي هذه القضية خاصة لم يكن الشوام في حاجة إلى المحكمة .
فهو كان الخصم والحكم في قضيته مع ولده .
ألقى بعلي في هذا السجن وأوصد الباب من خلفه وقال:
- "لو كنت غلطت في تربيتك زمان فأنا دلوقتي بصلح غلطتي" .
كانت سوسن تقف أعلى السلم فنظرت للشوام بأسى وقالت:
- "فكرك بنفسك صح؟"
نظر لها الشوام بحزن وقال:
- "اللي شفته هناك فكرني بماضي نفسي أنساه يا سوسن" .
قالها ورحل الشوام ورحلت سوسن معه تاركة قطعة من قلبها بداخل سجن

الشوام، أما عن علي فقد كانت الظلمة هي سيدة موقفه، ظلمة أمام عينيه وظلمة مستقرة في قلبه، لا يعلم أي شيء غير أنه مبعثر الفكر ومشتت البال، لم يكن يحتاج إلا النوم لكنه لم يكن يعلم في أي مكان سيستيقظ، هل سيجد نفسه في غرفته المرفهة ليدرك أن هذا كان مجرد حلم سخيف أرق ليله أم سيستيقظ ليرى سقف هذه الغرفة المظلمة الخالية إلا من بعض العناكب وكائنات أخرى لا يعلم هويتها؟ لكنه نام، نام لعله يستيقظ على شيء يخبره ما هو مصيره .

الحياة تستمر، اعلم يا هذا أن الحياة لا تقف على أحد، حتى وإن كان هذا الشخص هو نفسك، لا تحسب أن الحياة ستقف لتبكي عليك، بل ستقف أنت وتبكي عليها حين تنتهي بك لكنك ستبكي بعد فوات الأوان، وتطبيقًا لقواعد الحياة التي لا تقف ولا تعود للخلف مثل عقارب الساعة مرت الأيام على ابن الشوام في سجنه .

لا يعلم هل هذا السجن كان عقابًا أم محاولة من الشوام لتصليح أخطاءه، لكن علي كان يحتاج لهذه الخلوة، كان يحتاج لأن يجلس وحيدًا ليفكر في كل ما مضى، وكل ما سيأتي وكل ما فاته وكل ما ينتظره، لذلك استغل وحدته في سجنه المظلم لينظم أفكاره ويتساءل: هل ظلمني أبي؟ أم أنني أنا من ابتعد؟ هل سألقى حتفي في هذا السجن؟ أم أنها سحابة صيف ستمر؟ ما الذي يدور برأس الشوام؟ ولماذا جن جنونه حين وجدني أجلس مع فتيات غريبات عن الشمال؟ ألف سؤال وسؤال بلا إجابة واحدة مرضية، لكن لم يكن أمامه سوى أن يتأقلم .

فلتحيا يا ابن آدم ما حييت لكن اعلم أن عمرك كله سيقف على لحظة ما، هناك لحظة تمثل نقطة تحول لكل شيء، تنتقل فيها من العمى إلى البصر أو العكس أنا لا أعلم .

أكثر ما أعلمه أن كل ما قبلها يختلف عما سيأتي بعدها، هي أشبه بالوقت الذي يفصل بين النوم والاستيقاظ حيث تجهل أنت كيف خلدت إلى نومك وتجهل أيضًا في أي لحظة استيقظت .

تجهل أول شعاع ضوء أبصرته عيناك وتجهل كيف تنبه عقلك أن هذا هو وقت الاستيقاظ؟ هل اكتفى نومًا؟ أم أنه أرهق من ثباته؟

هل هرب من دنيا النوم إلى عالم اليقظة أم أجبر على الخروج من عزلته رغمًا عنه؟

أغلب الظن أن ملكًا قد همس في أذنك "كفاك غفلة وأبصر"، فاستجبت برغم جهلك كيف بدأت لحظة التنوير .

لكن على كل حال إذا أبصرت يومًا الحقيقة بعد الجهل فلا تعرض عنها، لا تجبر نفسك على النوم بعد الإفاقة، فإن كان في استمرار النوم خيرًا لما استيقظت، وإن كان في الغفلة راحة لما أبصرت .

وهذا بالضبط ما حدث لعلي في الأشهر التي مرت عليه بداخل سجنه، يفكر ويتأمل، الطعام يصل إليه كل يوم في موعد محدد ليقسمه على اليوم كله، وجبة واحدة تصل إليه في اليوم ليتعلم كيف يبقى على قيد الحياة بأقل الإمكانيات، كل يوم له زائر مختلف .

يوم يزوره خبير في الاقتصاد، يوم خبير في الحسابات، يوم مؤرخ ليقص عليه أسرار أرض الشمال وحكاياتها، كل يوم زائر جديد وكل يوم يستفيد (علي) أكثر من اليوم الذي يسبقه، كل يوم تزداد ثقافته ومعرفته ويتفتح عقله أكثر من ذي قبل، لكنه لم يكن يعلم السبب خلف هذه الزيارات والحقيقة أن الشوام أيضًا لم يكن يعلم سببها .

إذا رأيت الرجال لا يعلمون الأسباب فاعلم أن هذا تدبير امرأة .

كانت هذه الزيارات من تدبير سوسن دون أن يعلم أحد، حتى حل اليوم الذي لا بد وأن يُكتب بالذهب في تاريخ الشمال، ففي هذا اليوم قامت سوسن بتغيير دفة سفينة الشمال نحو مصير جديد .

- "أنا عايز أفهم سبب زيارات الناس دي لـ (علي)؟"

قالها الشوام لسوسن بعدم فهم فرفعت عنقها وقالت:

- "أنا بجهزه لـ اللي مستنيه" .

- "يعني إيه؟!"

- "ابنك دلوقتي بقى حاجة تانية ولو مش مصدقني اسأل الناس اللي بتزوره هو قد إيه اتغير" .

لم يفهم الشوام ما تقصد سوسن بحديثها فقال:
- "انتي عاوزة توصلي لإيه؟"
هنا قررت سوسن أنها ستقول ما تعد نفسها لقوله منذ سنوات:
- "اسمعني كويس يا شوام، ولادنا كبروا وجه الوقت اللي نواجه نفسنا فيه، عمار مينفعش يكون الزعيم" .
امتقع وجه الشوام حين سمع هذه الجملة التي لم يتوقع أنها ستخترق أذنه يومًا ما:
- "إيه اللي بتقوليه دا؟"
- "أنا بقولك الحقيقة" .
- "ليه بتقولي كدا، عمار أنسب واحد للزعامة" .
- "أنت عارف أنا ليه بقول كدا، الاتنين ولادي لكن ارجع بذاكرتك تلاتين سنة وأنت تعرف ليه عمار مستحيل يكون زعيم" .
تلجلج الشوام من كلماتها الصادمة على الرغم من أنها الحقيقة وقال:
- "أومال مين يورث الزعامة لو مش عمار؟"
- "أنت ناسي إن ليك ابن تاني؟ علي اتغير وأنت ممكن تتأكد بنفسك، محتاج منك إنك تقربه منك وتساعده فترة صغيرة لحد ما يتعلم" .
لم يجد الشوام ما يقوله، وكأنه لم يتعلم النطق يومًا، واصفر وجهه كأن الدماء قد جهلت الطريق لعروقه، فقالت سوسن بنبرة تهديد هادئة:
- "أنا قلت لك اللي عندي، ولو عمار بقى هو الزعيم، أنا هتكلم وهقول كل اللي حصل زمان ومحدش يعرفه غيري .
أنا سكت تلاتين سنة ودلوقتي سكوتي ثمنه إن علي يكون الزعيم، ولو في يوم قامت حرب مع الجنوب اعرف إنك مدفعتش تمن سكوتي يا شوام" .
صمتت وصمت كل شيء من بعدها حتى أنفاس الشوام كادت أن تختنق، لم يجادلها ولم يستطع أن يقول شيئًا، فهذه الحقيقة التي كان يهرب منها طوال حياته، وتمنى لو أن تنساها سوسن لكن مخطئ من يظن أن النساء تنسى، وسيخطئ الشوام إذا ظن أن تهديد سوسن مجرد كلام عابر، بل كان يعلم أنها

إذا هددت ستنفذ وإذا قالت ستفعل، ظل جالسًا لا يحرك ساكنًا من موضعه، ولكن الحرب قائمة بداخله، فكيف يضيع تخطيط السنوات وكأنه هباءً منثورًا، وكيف لخطأ ارتكبه في ماضيه أن يتحكم في مستقبله ومصير الشمال بأكمله؟
فمن المعروف أن الرياح دائمًا تأتي بما لا تشتهيه السفن، لكن في وضع الشوام فقد توقفت الرياح عن الهبوب ونفد وقود السفينة في منتصف مياه البحر الميت شديد الملوحة، فبات لا يمتلك رياحًا ولا سفينة بل سيترك المياه تحركه كيفما شاءت مثلما تحرك طحالب البحر الخضراء الزلقة .
هل جربت أن تكون طحلب البحر؟ الشوام الآن ولأول مرة يجرب هذا الشعور .
ألم أقل لك يا صديقي إن أخطاء الماضي لا تموت، بل ستحيا بينكم ما دام من ارتكبها على قيد الحياة حتى وإن حصل على الغفران، حتى لو مضى على خطئه ثلاثون سنة كصديقنا هذا .
مرت أيام وشهور أخرى على يوم حديث سوسن مع الشوام حول زعامة الشمال، والشوام لا يجد مبرر للاعتراض على ما قالته سوسن، بل إنه على مضد قبل ما قالته وبدأ يتقبل الموقف ويفكر كيف سيكون علي (ابن أمه) زعيمًا للشمال في يوم من الأيام .
مرت السنة، مرت على ابن الزعيم سنة في حبسه المظلم، وها هو قد جاء اليوم الذي قرر الشوام أن يكون يوم لخروج علي من محبسه .
لأول مرة منذ سنة يخطو علي بقدمه خارج السجن، والحق يقال كان يشعر أنها أول مرة يخطو فيها في حياته كلها، كان يرى كل شيء بعين مختلفة، كان يشعر وأنه غريب عن هذا البيت الذي لم يهجره إلا سنة، لكن كما قال علي لنفسه إنه في السنة الماضية مرت عليه سنوات .
حين دخل علي غرفته وجد والدته في انتظاره، فهبت من مكانها حين رأته وركضت نحوه وضمته في صدرها بحنان، لكنها كانت تعلم أنها تحتضن ابنًا جديدًا مختلفًا عن ابنها الذي سجن أمامها منذ عام .
جلست سوسن وأجلسته أمامها وقالت:

- "اسمع يا علي اللي هقولك عليه، الفترة الجاية عايزاك توافق أبوك في كل حاجة يقولها لك من غير ما تسألني ليه" .

أومأ علي برأسه موافقًا فلم يكن يمتلك بداخله قوة ليناقشها أو لديه طاقة ليعترض على ما تقوله، فعلي الذي دخل السجن قد مات فيه، ومن خرج منه هو شخص جديد يحاول أن يفهم ما حوله .

قضى علي ليلته مفكرًا في كل شيء، وكأنه يرى الحياة للمرة الأولى، ليس علي وحده، بل في حياة كل منا مرحلة ستختلف بعدها نظرتك لكل شيء، حتى وإن لم تمر بهذه المرحلة حتى الآن، لكن اعلم أنها قادمة فالحياة أبدًا لا تسير على وتيرة واحدة .

حين طلب الشوام من علي أن يحضر معه الاجتماعات تعجب قليلًا، لكنه لم يعترض أو يتساءل كما طلبت منه سوسن، بل رأى أن هذا سيكون في مصلحته بعض الشيء ليس طمعًا في السلطة أو الحكم، بل ليتسع عقله ويتعلم أشياء جديدة لم يعهدها في حياته السابقة .

لم يعترض أيضًا حين قرر الشوام أن سمر ستكون خطيبته، لكنه تعجب كثيرًا فقد كان يعتقد أن عمار هو من سيتزوج سمر، لكنه اعتقد أيضًا أنهم وجدوا لعمار زوجة أفضل من سمر، فقرروا أن سمر ستكون من نصيب علي، يبدو أن كل شيء قد اختلف أثناء وجوده في زنزانته المظلمة، وافق (علي) على هذه الخطبة، وأقامت العائلة حفلًا صغيرًا في منزل الشوام لم يكن مرضيًا لأي طرف من الأطراف، كانت سمر تطمع في حفل كبير يحضره كل من في الشمال، سوسن لم تكن راضية عن اختيار الشوام لسمر، الشوام لم يكن يعلم ما هي الخطوة القادمة، أما علي وعمار لم يكن أي منهما يفهم شيئًا من ما يحدث حولهما، حتى جاء اليوم الذي قرر فيه الشوام أن يعلن قراره، اليوم الذي كان عمار يحلم به طوال الثلاثين عام الماضية، كان يحيا ليبني قصورًا في أحلامه، حتى جاء الشوام وهدم جدران هذه القصور فوق رأسه وأعلن تنازله عن الزعامة لـ(علي) .

تعجب كل أهل الشمال من هذا القرار المفاجئ الذي لم يتوقعه أحد، لكن هذا القرار لم يكن مفاجئًا بالنسبة للشوام وسوسن، فإن كل قرار تسبقه مجموعة

من الترتيبات وفترة من التفكير لكنك لا تعلمها، كل حدث يسبقه مجموعة أحداث أنت لا تعرفها لكنها حدثت .

كان تنازل الشوام إلى علي هو بداية حياة علي كزعيم أما حياته السابقة كانت ما قبل البداية .

وهكذا سارت الحياة مع علي منذ أن كان الطفل المدلل (ابن أمه)، حتى صار زعيم الشمال الذي يجلس الآن أمام جاكلين ليحكي لها حياته التي لا يعلمها أحد .

ظلت جاكلين صامتة لثوانٍ لا تعلم ماذا تقول! تفكر فيما سمعته الآن من علي الذي صار كالدفتر المفتوح أمامها ثم قالت:

- "دي حكاية غريبة أوي" .

- "أي حكاية هتكون غريبة بالنسبة لك لو انتي معشتيهاش، انتي كمان أكيد حكايتك هتكون غريبة بالنسبة لحد ميعرفكيش" .

لم تجادله جاكلين لأنها ولأول مرة كانت مقتنعة بما يقوله لكنها سألته:

- "مش ندمان على الوقت اللي ضيعته قبل ما تكون الزعيم؟"

ابتسم بهدوءه المعهود وقال:

- "أنا مش بندم، أنا مؤمن إن كل حاجة بتحصل لي بيكون ليها تأثير في حياتي، كل فترة وكل يوم بيعدي عليا أكيد بتعلم منه حاجة، كل حد بيدخل حياتي بيسيب لي بصمة فيها وبتعلم من وجوده .

مفيش حاجة اسمها صدفة، دي خطوات بنمشيها ولو خطوة منهم اتغيرت كنت هبقى شخص غيري" .

- "حتى أنا سبت لك بصمة؟"

صمت للحظات ثم قال لها:

- "انتي أحسن فترة أنا عشتها، حتى لو الفترة دي خلصت هفضل فرحان إن ليكي بصمة في حياتي، انتي خطوة مشيتها في حياتي ولو رجع بيا الزمن هختار إني أمشيها تاني" .

ابتسمت له بهدوء وابتسمت معها الشمس التي أعلنت أنها ستشرق الآن بعد

حديثهما الذي شهد عليه سواد الليل وأشرقت عليه شمس النهار .
قررت جاكلين أن تنهي حديثهما بابتسامتها وقامت من مكانها ورحلت عائدة إلى منزلها، فبعض الأحاديث لا يمكن أن تغلق بكلمة سلام أو تحية بل تكون الابتسامة هي خير رد .
رحلت وهي تفكر، كيف نتعامل مع من حولنا ثم نكتشف في لحظة أننا لا نعرفهم، لا نعرف أسرارهم، تفاصيلهم، ما حدث في أيامهم، لا نعلم ما يوجد بداخل قلوبهم، كيف يمكن للإنسان أن يكتشف أنه يتعامل مع أشخاص غرباء! لا تتعجب يا صديقي فإن كل من حولك غرباء، حتى لو اعتقدت أنك تعرفهم، فالبشر بداخلهم خزائن مغلقة على ما بداخلها، حتى وإن كنت تمتلك مفاتيح خزائن الأرض كلها، لن تستطيع أن تقتحم خزائن قلوب البشر دون أن يسمحوا لك بذلك .
نظرت جاكلين لنفسها وأدركت أنها هي الأخرى مليئة بالأسرار، نظرت إلى صورتها في مرآة المنزل الذي وصلت إليه الآن، وقالت محدثة صورتها التي تنظر إليها عبر المرآة، كأنها تحدث شخصًا غريبًا، وقالت بصوت لا يسمعه سواها:
- "أحقاً تعرفني؟ هل تعلم من أنا؟
هل استمعت يومًا لحديثي مع نفسي ليلًا بعد أن ينام الناس؟ هل تعلم ما يخطر ببالي حين أفتح عيني صباح كل يوم؟ هل تعلم فيما أفكر أثناء شرودي وما أقول أثناء صمتي؟
هل أمسكت بيدي لتنقذني حين كنت على وشك السقوط؟ أتعلم كم مرة تمنيت أن أبكي ولم أستطع؟ هل تعلم كم مرة كنت أقاوم لأبدو أمامكم وكأن كل شيء على ما يرام؟
أتعلم كم مرة حاولت أن أطفئ نيرانك وأنا بداخلي الحرب قائمة؟
أنت لا ترى مني إلا ما اخترته أنا كي تراه .
فما زلت تدعي أنك تعرفني وما زلت أدعي أنني بخير .
وجميعنا يكذب وتستمر الحياة" .
نامت جاكلين، نامت بعد أن تأكدت أنه كان غريبًا عنها رغم حديثهم اليومي،

نامت بعد أن أدركت أنه شخص لم تكن تعرفه حتى اليوم، لكنه الآن ليس غريبًا بل كان غريبًا ولم يعد،
نامت وهي مقتنعة بأن أسرار البشر كالبحار لا يمكنك أن تغوص بها إلا مستخدمًا أداة واحدة تسمى الثقة .
نامت وهي مقتنعة بأن البشر أسرار وأنها امتلكت الثقة .

حياتك رواية وأنت بطلها،
ستحيا أحداثها على الرغم من أنك لم تخترها،
فبطل الرواية مثل قارئها لا يعلم ما تخفيه الصفحات،
لكن لكل رواية نهاية ستعلمها يومًا من الأيام،
لكنه الصبر .

دائمًا أشعر أنني مجرد شخصية بداخل رواية ستنتهي يومًا ما، أشعر وأن هناك راوي هو من حدد الأحداث ثم وضعني بداخلها وجعلني بطلًا لروايته، كل يوم تنتهي صفحة من الرواية وينتهي أمامها يوم من عمري لكنني دومًا أتساءل: هل أنا بطل الرواية أم أنني مجرد شخصية ثانوية ليس لها قيمة؟ هل يحبني قارئ الرواية أم يكرهني؟ هل أنا حقًا مجرد شخصية كتبت بالحبر على الأوراق أم أن هذه مجرد أوهام في رأسي؟

هل أنا نقطة سوداء في حياة أحدهم؟ هل أنا الجزء السيء في الرواية؟

ألف سؤال يبدأ بـ (هل) وألف إجابة تبدأ بـ (لا أعلم) .

لماذا كان يعاملني والدي على أنني زعيم المستقبل ثم هدم أحلامي في لحظة؟

لماذا عشت حياتي أرى سمر وهي تتقرب مني وحين تقبلت وجودها في حياتي رأيت في يدها خاتم خطبتها لأخي؟

لماذا انقلبت الحياة لصالحه بدون مقدمات؟ هل يعاندني القدر أم أن خطواتي كانت خاطئة منذ البداية!

لم يجد عمار أية إجابة مرضية لأسئلته لكنه وجد شيئًا آخر، وجد سمر تقف خلف منزل الشمال، فأثارت فضوله ليعلم ماذا تفعل فاقترب منها وقال:

- "بتعملي إيه؟"

قبل أن تجيبه لمح في يدها سيجارة لم يرها معها قبل هذا اليوم فضحك بنصف وجهه وقال ساخرًا:

- "مكنتش أعرف إنك بتشربي سجاير، والمعروف أن بنات الشمال ممنوع عليهم شرب السجاير" .

نظرت له سمر بجانب عينها دون أن تلتفت إليه وقالت:

- "ولا أنا كنت أعرف إن الأخ الصغير هو اللي بيورث الحكم" .

ها هي تمارس هوايتها المفضلة في جرح من يتحدث معها بخنجر غير مسنون،

شعر عمار بالإهانة في كلماتها فقال بهدوء لا يناسبه:
- "أنا بقيت مش فاهم حاجة" .
- "أنا وأنت شبه بعض أوي" .
- "بس أنا مابعتكيش" .
- "لكن عمرك ما اشترتني،
متكدبش على نفسك لا أنا حبيتك ولا أنت عمرك حبيتني، احنا الاثنين بندور على مصلحتنا واكتشفنا إن مصلحتنا مش مع بعض" .
- "مفيش حاجة مضمونة" .
التفتت سمر له وقالت:
- "يعني إيه؟"
- "يعني ممكن كل حاجة تتغير في ثانية، الخطة لسه بتتنفذ وخطر الرحالة حوالينا في كل مكان وموصلناش لحل مع الجنوب .
إحنا في حالة حرب يا سمر والحرب مكسب وخسارة" .
رفعت سمر حاجبها كفتيات الجنوب وقالت:
- "وأنا مش هخرج خسرانة ولحد دلوقتي علي هو الحصان الأسود" .
قالتها وأخرجت دخان سيجارتها في وجهه، فعماه لون الدخان الأبيض كما عمت سمر أطماعها، فقال عمار بنفس الهدوء:
- "قلت لك مفيش حاجة مضمونة" .
شعرت سمر بالشك، لا تعلم الشك في ماذا لكنها شعرت بالشك يسير في أوصالها فهي تعلم عمار جيدًا، فقد قضت سنوات تسعى لنيل رضاه:
- "أنت ناوي تعمل إيه؟"
- "مش هعمل حاجة الفرق بيني وبينك إنك عاوزة تاخدي كل حاجة بسرعة، أنا بقى اتعلمت الصبر والنفس الطويل .
أنا هسيب الأيام هي اللي تثبت لك" .
تنهد عمار ثم قال مستطردًا:
- "اوعي تآمني للأيام يا سمر، بين صبح وليل كل حاجة بتتغير" .

- "لو لفت الأيام ومصلحتي بقت معاك مش هتردد لحظة وادينا هنشوف" .
ابتسم لها عمار ساخرًا وقال:
- "أنا عارف" .
قالها وأخذ السيجارة من يدها وألقاها أرضًا ثم ضغط عليها بحذائه ورحل، كما ضغط الشوام على أحلامه وهدمها دون أن يقترف عمار أي ذنب، ذنبه الوحيد أن سوسن قد ذكرت الشوام بخطأ ارتكبه في الماضي .
ارتكبه في صفحة من صفحات الرواية لكنها صفحة مطوية من المؤكد أن أحدًا سيقرؤها يومًا ما لكن الوقت لم يحن بعد .

قدماك تقف على الأرض وعقلك يسبح في الأفق، ترى الحقيقة
بعينيك لكن عقلك يرى حقيقة أخرى في خياله،
ستشعر حقًا بالشغف حين يمتزج الواقع بالخيال .

شعرت بحرارة الشمس تخترق مسام جلدها وتحرقها، وعلى الرغم من أن أصحاب البشرة السمراء يتحملون الشمس، إلا أنها شعرت بأن ما يفصل بينها وبين الشمس ليس إلا بضع أمتار .

وكعادة جاكلين التي تفكر في أي شيء بشكل فلسفي، فكرت في أن كل قوة لها قوة أخرى نقيضة لها ويمكنها أن تقضي عليها، الخير نقيض الشر، السلم نقيض الحرب، النضج نقيض التفاهة والمياه نقيض الشمس .

قامت جاكلين من جلستها وجلست عند بداية مياه البحيرة العميقة، ونظرت حولها فلم تجد أحدًا فشمرت ملابسها عن ساقيها السمراوين، وأخذت تملأ يديها من مياه البحيرة الباردة وتسكبهما على ساقيها، وكأنها كانت تسكب المياه على نار متوهجة، كانت تجلس معطية جانبها للبحيرة وتضم ركبتيها أمام صدرها فعلى يمينها البحيرة وعلى يسارها الرمال وأمامها ساقيها العاريتين حتى الركبتين .

شعرت جاكلين بأن حرارة الشمس قد خفت بعض الشيء بفعل المياه الباردة، ها هي إحدى القوتين تنتصر .

رفعت جاكلين يدها وحلت ربطة شعرها المرفوع فوق رأسها طوال الوقت، فأخذ شعرها الأسود الناعم في الالتفاف حتى توقف عند آخر ظهرها، فأمسكته بيدها وجمعته ناحية اليمين وأخذت تسكب عليه من مياه البحيرة، هل تعلم أن طبع الفتاة يعرف من شعرها؟ هل تعلمي أن خصلات شعرك يمكنها أن تتحدث عنك؟ فخصلات شعر الفتاة توضح ما بها من هدوء أو جنون، قوة أو ضعف، خضوع أو ثورة، وشعر هذه الفتاة لا يدل إلا على التمرد .

فتاة! نعم إنها فتاة حتى وإن رفضت الاعتراف بذلك، هي فتاة حتى لو خبأت أنوثتها خلف وشاح وبالرغم من أنها ولي العهد إلا أن بداخلها فتاة ظهرت في هذه اللحظة التي تجلس فيها بمفردها على البحيرة، أو كما ظنت أنها بمفردها،

لم تكن تعلم أن علي كان في طريقه إليها لإخبارها بشيء ما، فتسمرت قدماه حين اقترب ورآها مسدلة خصلات شعرها بجانبها، فقد كانت هذه أول مرة يراها بهذا الهدوء الظاهر عليها الآن، لم يكن يقصد التجسس عليها لكن قدماه أبت أن ترحل وعيناه رفضت أن تغمض وتفوت هذا المشهد الذي لن يتكرر .
أخيرًا طاوعته قدماه وتحركت لكنها لم تتحرك منصرفة عنها بل تحركت متجهة إليها حتى اقترب وصار بجانبها، فتنبهت جاكلين لصوت خطوات قدمه فنظرت بجانبها سريعًا وحين وجدته هو ظهرت علامات الذعر على وجهها وحركت يدها سريعًا وقامت بفرد ملابسها ولملمت خصلات شعرها بتوتر فشعر هو ببعض الخزي لاقتحامه خصوصيتها فقال موضحًا:
- "أنا آسف مش قصدي لكن الحكيمة فخر وصلت وكنت بدور عليكي عشان الاجتماع" .
هزت جاكلين رأسها متفهمة لكن التوتر ما زال مخيمًا على ملامحها فتحرك علي للخلف قائلاً وهو يشعر بتأنيب الضمير:
- "أنا آسف" .
لماذا انزعجت؟ هل لأنه رأى الفتاة بداخلها أم لأنها تقمست دور ولي العهد بإتقان؟ هل باتت تتخيل أنها فتى يسمى ولي العهد، حتى أصبحت لا تميز بين الحقيقة والخيال ونسيت حقيقة أنها فتاة وعاشت في خيال أنها ولي العهد؟
هل أصبحنا ننزعج حين يرانا الناس على حقيقتنا لأننا أخفيناها؟
قف مع ذاتك لبعض الوقت وابحث عن نفسك الحقيقة في زحام الحياة فقد امتزجت الحقيقة بالخيال .
وصلت جاكلين للمجلس فألقت التحية على فخر وجلست فقالت فخر مستفسرة:
- "إيه أخبار الخطة؟"
تنحنحت جاكلين ثم قالت بوقار ولي العهد:
- "اتفقنا على خطة دفاع ممتازة هتقدر تحمي الجنوب والشمال من أي هجوم من الرحالة" .

صمتت جاكلين ثم قال علي مستكملًا:
- "أنا عرضت خطة الشمال على الفريق بتاعي وجاكلين عرضت خطة الجنوب على الفريق بتاعها" .
حين ذكر علي اسم جاكلين نظرت لها فخر فقالت:
- "محدش شاف الخطتين غير أنا وعلي عشان نضمن إن محدش فينا يخون ودلوقتي الخطتين بيتنفذوا" .
أومأت فخر برأسها مبتسمة ومستبشرة خيرًا بهذا الجيل الجديد وقالت:
- "جميل لكن أي حرب بتكون بين طرفين وانتوا متعرفوش هتحاربوا مين ومن قواعد الحرب أنك تعرف عدوك مين" .
نظرت فخر إلى ليلة وقالت:
- "ليلة كانت سألتني مرة مين الرحالة دول، وأنا قلت لها أن لسه وقت الحكاية مجاش، ودلوقتي جه" .
نظر الجميع إلى فخر بحماس وفضول لمعرفة حكاية خفافيش الظلام الذين يسعون في الأرض فسادًا .
- "من سنين كتير قبل ما انتوا وأهلكوا تتولدوا كان الحال غير الحال، كانت إيڤانوس أرض واحدة وليها حاكم واحد، لكن إيڤانوس مكتوب على أهلها التعب حتى قبل ما تتقسم أرضين وتبقى شمال وجنوب" .
كانت فخر تعود بالزمان لأكثر من ثمانين عامًا حين كانت الأرض تحت حكم زعيم واحد،
كانت أرض إيڤانوس بها شعب واحد له لونين مختلفين، لكن الأرض كانت واحدة مثل الكوب الذي يندمج فيه بياض اللبن بسواد الشاي، لكن إذا رأيت بلدة تنعم بالهدوء فاعلم أنه هدوء ما قبل العاصفة، وقد بدأت العاصفة منذ يوم لم تشرق الشمس فيه ولم يضئ القمر .
تولى حكم إيڤانوس حاكم ظالم لا يسير على العرف ولا يحترم العادات، حاكم لا يرى أمامه إلا مصالحه الشخصية وليذهب أهل إيڤانوس للجحيم، وكعادة بني البشر إذا لم يجد من يعترض له على أفعاله سيتمادى دون أن يردعه أحد، فهي

معادلة رأيناها على مر الزمان، حاكم بلا ضمير زائد شعب بلا صوت يساوي طاغية جديد .

لم يمر سنة على حكم الزعيم الجديد حتى انقلب حال الأرض، الأطفال تسرق من أحضان أمهاتهم في ظلمة الليل للعمل كخدم في قصر الزعيم، الرجال تعمل بالسخرة بأجور رمزية ولا يعترضون خوفًا من أن يتم الاستغناء عنهم، أما النساء فكان الزعيم إذا أراد يجبر إحداهن على الطلاق من زوجها ليحظى بها زوجة له، ومن اعترضت يقوم بقتل زوجها فتصبح أرملة بدلًا من أن تصبح مطلقة .

لا تتعجب من حال الحاكم الظالم بل تعجب من أحوال المحكومين الصامتين، كان يعطيهم الفتات فيشكرون كرمه عليهم، يأخذ أبنائهم غصبًا فيشكرون رحمته لأنه لم يقتلهم .

فإذا أراد حاكم أن يجعل شعبه كالعميان حرمهم من جميع حقوقهم، فإذا أعطاهم حق من حقوقهم رأوا أن هذا فضلًا منه وإحسانًا فشكروا كرمه .

استمرت إيڤانوس تسير على هذا الحال لسنوات حتى قرر الزعيم أنه سيخص أصحاب البشرة السمراء بأعمال الصيد وأصحاب البشرة البيضاء بأعمال الزراعة، على أن يحصل هو على ثلاثة أرباع الإنتاج بلا مقابل ليتاجر به مع البلدان المجاورة، ويترك لهم الربع الباقي ليتاجروا به ويأكلون منه، وكالعادة من يعترض يكن له مكانًا في سجن إيڤانوس الذي امتلأ عن آخره بمن أخذتهم الشجاعة واعترضوا .

مر على حكمه أكثر من خمسة عشر عامًا ذاق فيهم أهل إيڤانوس شتى أنواع الظلم والفقر والجوع، لكن الحاكم لم يكن يعلم أن الشعوب التي لا تحركها عقولها إذا شعرت بالظلم ستحركها بطونها إذا شعرت بالجوع، وها هو الجوع قد اشتد وكأنهم كانوا يعيشون في صيام رمضان وحل وقت أذان المغرب .

استيقظ الزعيم يومًا على صوتٍ مرتفع لم يعهده من قبل، فنظر من شرفته ليجد أن اليوم الذي لم يعد له قد حان، وجد ساحة قصره ممتلئة عن آخرها ببشر صمتوا لسنوات وقد حان وقت الحديث، سمع صوتهم يهتف ضده فأطلق صوته يطلب من الحرس التصدي لهم وكالعادة نفذ الحرس أوامره .

ساعات وأيام من القتال بين شعب إيڤانوس وحرس الزعيم، أيام تمر على أبناء نفس الأرض وهم يقتلون بعضهم، امتلأت الطرقات بالدماء، وتناثرت الجثث على الأرض، كل يوم يمر يزداد معه عدد القتلى من الطرفين والزعيم يتابع الوضع من أعلى، يقف في شرفته ليرى أبناء إيڤانوس يتناقصون كل يومٍ عن سابقه، وبالشرفة المجاورة يقف ابنه المتوسط (ماجن) .

من المؤكد أن بذور الصبار لا تطرح ياسمينًا، لذلك ابن الزعيم كان صورة مصغرة من أبيه ويمكن أسوأ لذلك ودونًا عن جميع أبناء الزعيم كان (ماجن) هو أقربهم إليه .

أيام أخرى من القتال حتى أصبحت كل أسرة بها قتيل أو اثنان، الأرض تروى بدماء البشر بدلاً من المياه، لكن أرض إيڤانوس كانت دومًا عادلة ولا ترضى بالحال المائل، حتى وإن صمتت عليه طويلًا لكنها أبدًا لن ترضى به وهذا ما كان يجهله الزعيم، كان يجهل أنها بداية اللعنة، فقد بدأ منسوب المياه في الانخفاض قليلًا، وأصابت الأمراض الغريبة بعضًا من سكان الأرض، لكن أحدًا لم ينتبه، فقد كان أمامهم هدفًا أكبر وهو التخلص من مَن يقتلهم يومًا بعد يوم .

حتى أذن القدر وجاء اليوم الذي حسم كل شيء .

استيقظ ماجن صباحًا وتوجه لغرفة والده، فوجده واجمًا شاردًا فاقترب منه وقال له:

- "خلاص يا زعيم أنا وصلت لحل" .

- "حل إيه؟"

- "حل للفوضى دي، حل مجاش على دماغ أي حد" .

تلهف الوالد وقال لماجن بفضول:

- "هتعمل إيه؟"

- "هتفهم كل حاجة في وقتها، النهاردة العصر لازم الناس كلها تتجمع تحت بلكونة القصر" .

- "إزاي؟"

- "ابعت مراسيل للبلد كلها تقول أن الحاكم مجهز خبر حلو" .

- "وبعدين؟"
- "النهاردة العصر تقف في البلكونة أنت وإخواتي والباقي عليا" .
صمت الزعيم قليلًا ثم قال:
- "بس أنا مش فاهم إيه اللي هيحصل!"
ابتسم ماجن وقال بثقة تكاد تصل إلى حد الغرور:
- "خليك واثق فيا وأنا أوعدك أن النهاردة هيكون آخر يوم" .
كان الزعيم في وضع حرج يجعله يسير خلف من يعيد له ملكه وطغيانه، كما كان بالإضافة إلى أنه كان يعلم أن أفكار ماجن لا تخيب أبدًا، لذلك نفذ ما طلبه منه ابنه محاولًا أن يصدق أن هذه حقًا ستكون آخر ليلة كما قال له ماجن .
سارت المراسيل في إيڤانوس كالحمام الزاجل يخبرون الناس أن الزعيم يعد لهم خبرًا سعيدًا، وعليهم أن يتجمعوا عصرًا أمام القصر لمعرفته، وفي هذا الوقت كان الناس أيضًا يتمنون الوصول إلى حل بدلًا من أن يروا الموت بأعينهم كل يوم، بعضهم صدق جملة (الخبر السعيد) وبعضهم لم يصدق لكن الفضول دفع الجميع للذهاب في الموعد، فالفضول هو داء بني البشر .
امتلأت الساحة عن آخرها أسفل شرفة الزعيم، ومن خلف زجاج الشرفة كان الزعيم يقف مرتديًا ملابس الزعامة وتاج إيڤانوس وعن يمينه ابنه الأصغر، وعن يساره ابنه الأكبر، وفي قلبه توتر لم يشعر بمثله من قبل .
ارتفع صوت الناس في الساحة بسبب تأخر الحاكم عليهم، وبدأوا يهتفون من جديد فشعر الزعيم بالغضب من ابنه الذي وضعه في هذا الموقف دون أن يخبره ما سيقول، لكن فجأة دخل ماجن إلى غرفة الزعيم باسمًا وأشار لوالده إلى الشرفة أن يتفضل ففتح الزعيم زجاج الشرفة، وخرج منها مع ابنيه الأكبر والأصغر، فصمت هتاف الجماهير ترقبًا لما سيقوله الزعيم .
لحظات من الصمت لم يتحدث فيها الزعيم أو أحد أبناءه حتى دخل ماجن إلى الشرفة ووقف أمام والده وأعطى وجهه للشعب ورفع صوته قائلًا:
- "أيام بتعدي وانتوا كل يوم عددكوا بيقل عن اليوم اللي قبله، محدش استفاد من اللي بيحصل دا ومحدش وصل لحل،

لكن أنا عندي الحل" .
صمت ماجن للحظات ثم استدار وأعطى وجهه لوالده وانحنى له ثم أشهر سيفه وقال:
- "هو دا الحل" .
هوى ماجن بسيفه على رقبة الزعيم ففصلها عن جسده، ثم كرر فعلته على رقبتي شقيقيه سريعًا قبل أن يتخذ أحدهما أي رد فعل، ثم استدار للشعب بوجه تناثرت عليه نقاط من دماء والده وشقيقيه التي تسيل على الأرض ثم قال:
- "مفيش حد هياخد زمنه وزمن غيره، وأنا خلصتكوا من زعيم ظالم وأقل تقدير إني أكون أنا الحاكم مكانه، مبروك عليكوا موت الطاغية" .
قالها ماجن ثم حرك سيفه صوب رأس الزعيم المنفصلة عن جسده فتعلق تاج إيڤانوس في السيف، فأخذه ماجن ووضعه فوق رأسه، ثم استدار مرة أخرى وسار في بركة الدماء التي ملأت الشرفة وانصرف إلى داخل القصر وسط ذهول الشعب وعدم تصديقه لما حدث أمامهم الآن .
كيف يتحدث عن الظلم والعدل وهو وجهه ملطخ بدماء والده وشقيقيه؟ كيف يحدثهم على أنه هو الحاكم المنتظر الذي جاء ليخلصهم من الطاغية، وهم يعلمون أنه ماجن الذي كان مع والده في كل خططه الظالمة وقراراته التي أدت إلى ثورتهم!
كل من في الساحة لا يعلمون ما الذي حدث أو ما الذي سيحدث، لكن ما حدث كان أكبر من توقعات كل من يحيا تحت سماء إيڤانوس، فتحت هذه السماء أرض تسقيها الدماء لأيام وها قد بدأت لعنتها .
جفت مياه الأنهار ومات الزرع الأخضر قبل حصاده وهجرت الحيوانات الأرض وملأت الخفافيش سماء إيڤانوس، فأصبح نهارها لا يختلف عن ليلها .
شعر الناس أن الخطر يحيطهم أكثر من ذي قبل، لم يتخلصوا من طاغية لجلب الأسوأ منه ولجلب لعنة ستقضي عليهم في القريب العاجل، في الواقع أن الأرض لم تقبل أن يقتل الابن والده وأشقاؤه وتسيل الدماء فيكون القاتل والمقتول

من نفس الأسرة، ولم يقبل الشعب أيضًا حتى وإن كان الزعيم ظالمًا لا يعرف الرحمة، فلن يكون جزاءه هو القتل على يد ابنه، ولم يقيموا الثورة على حاكم ظالم ليجلبوا حاكم قاتل فلأول مرة اتفق أبناء إيڤانوس على شيء وهو كلمة (لا) .

تجمع الناس ليلًا أسفل الشرفة التي سبق وتجمعوا عندها منذ أسبوع واحد، يوم تم قتل الزعيم، واقتحموا القصر بالاتفاق مع الحرس وأخرجوا منه ماجن ومن معه من الحاشية الذين انضموا إليه بعد فعلته، حاول ماجن الاستنجاد بالحراس لكن وجدهم يقفون بين صفوف الشعب لأول مرة فقال لهم بانفعال:

- "إيه اللي بيحصل دا؟ إزاي تعملوا كدا أنا الزعيم" .

خرج كبير المزارعين من بين الصفوف وقال له بحدة:

- "أنت مش زعيم ولا عمرك هتكون، محدش فينا طلب منك تكون زعيم" .

- "أنا خلصتكوا من حاكم ظالم" .

خرج كبير الصيادين أيضًا وقال له:

- "احنا مش هنكرر الغلطة تاني، ومش هنعزل ظالم ونعين قاتل يا ماجن" .

- "يعني إيه؟"

- "يعني أنت مطرود من الأرض أنت وكل اللي معاك، احنا مش هنستحمل لعنة الأرض عشانك، ومن النهاردة الأرض دي متحرمة عليك" .

قالها كبير الصيادين الأسمر وقام الحراس بتنفيذ حكم الطرد على ماجن وكل من معه، فذهبوا إلى مكان لا يعلمه أحد، يرحلون كل يوم من أرض إلى أخرى، فأطلق عليهم أهل إيڤانوس اسم (الرحالة)، أما عن إيڤانوس فلم يستطع أهلها التوصل إلى حاكم جديد .

أصر البعض على أن يكون الحاكم من المزارعين ذوي اللون الأبيض، وأصر البعض على أن يكون الحاكم من الصيادين ذوي البشرة السمراء، ودارت بينهم معارك انتهت إلى قرار تقسيم الأرض إلى جزئين، جزء شمالي تحت حكم المزارعين، وجزء جنوبي تحت حكم الصيادين، ولكن ظل كل جزء منهم يسعى لليوم الذي يتولى فيه حكم إيڤانوس كلها، ومع مرور السنوات نسي الشعب لماذا اختلف الشمال

مع الجنوب، بل تذكروا خلافاتهم فقط، ونسوا أيضًا أن من قسمهم إلى مزارعين بيض وصيادين سمر البشرة هو الحاكم الظالم الذي ثاروا عليه من قبل .
مرت سنوات من هجمات الرحالة المتكررة، ويليها سنوات أخرى من الحروب بين الشمال والجنوب، وسنوات من السلام، ثم سنوات من المقاطعة حتى وصلت الأرض إلى اليوم الذي يجلس فيه فريق الشمال مع فريق الجنوب في الصحراء، التي كانت يومًا موضع قصر والد ماجن ليستمعوا إلى حكاية الرحالة التي أتمتها فخر لتوها ثم قالت:
- "ودلوقتي أسطورة الرحالة اتجددت وبيخططوا للرجوع" .
صمت الجميع للحظات محاولين استيعاب تاريخ الأرض الذي لم يعرفوه من قبل، ثم قال عمار:
- "لكن إنتي إزاي عرفتي اللي حصل للرحالة بعد الطرد؟"
- "عشان كنت واحدة منهم" .
شهقت ليلة لما سمعته، ونظر الجميع لفخر باندهاش فقالت:
- "أنا كنت أسيرة للرحالة قبل الطرد ولما اطردوا كنت معاهم، كان سني أقل من عشر سنين وقتها، أهلي ماتوا في الثورة ضد الزعيم لكن أنا كان ولائي لإيفانوس . أنا كنت بنت ساحر إيڤانوس فأخدوني معاهم عشان أساعدهم لكن أنا رفضت أقولهم حاجة من اللي اتعلمتها من أبويا .
عذبوني لكن من غير فايدة ولما يأسوا مني سابوني في الصحراء ومشيوا عشان أموت، لكن أنا شفت الطريق لحد إيڤانوس واضح قدامي، وقدرت أرجع تاني لكن لما رجعت لقيت الأرض اتقسمت وكل حاجة ضاعت، رحت بيت أبويا أخدت أدوات السحر بتاعته والكرة اللي كانت بتعرضله كل حاجة" .
كانت تستكمل لهم الحكاية دون أن يقاطعها أحد فاستكملت مستعرضه للذكريات:
- "اتعلمت استخدم الأدوات دي ويوم بعد يوم بقيت أنا حكيمة إيڤانوس" .

ستظل كالعميان ما دمت لم تطلع على صفحات الماضي٠٠٠

هل جربت يومًا أن تجلس في الظلمة طوال اليوم، ثم يشتعل كشاف الضوء في عينيك مرة واحدة؟ ستشعر بالألم في عينيك من الضوء الذي أصابهما فجأة، وهذا بالضبط ما حدث لهم حين سمعوا حديث فخر، شعروا أن هناك حقائق كثيرة كانت غائبة عنهم وبالطبع هناك حقائق كثيرة ما زالت مخفية عنهم .
هناك حقيقة تسعدك وهناك حقيقة تؤرق نومك وهناك حقيقة تجعلك تقف عندها وتسأل نفسك كيف كنت أحيا كالعميان كل هذا الوقت!
لا تتعجب يا صديقي، فنحن في إيڤانوس .

«يا شمعتي متنوريش غير وانتي حالفة ما تنطفيش» .

نظرت الفتاة إلى السماء فرأت النجوم تزين الليل، وكأنها تطل علينا من عالم آخر، نقاط مضيئة تزين سواد الليل وتضيف عليه سحرًا خاص لا يراه إلا من يقدر الجمال .

هل سألت نفسك ذات يوم لماذا يختلف جمال السماء ليلًا عن جمالها نهارًا؟ أنا سأخبرك، السماء نهارًا مضيئة بأكملها، وكأن الضوء قد توزع عليها بالتساوي، أما ليلًا فالسماء سوداء تزينها مصابيح متباعدة عن بعضها تخطف الأنظار .

جمال السماء ليلًا يكمن في الأضواء البسيطة التي تكسر الظلمة، كذلك أنت، اعلم يا صديقي أن حياتك التي تحتوي على أشياء جميلة وصغيرة تهون عليك المشقة أفضل بكثير من الحياة الخالية من العقبات لكنها مملة، فمتعك الصغيرة تشبه النجوم في السماء .

أدركت الفتاة سر جمال السماء، وقررت أن تلامس واحدة من نجومها الصغيرة التي لا يعلمها أحد بعد أن تأكدت من نوم كل من في الصحراء، رفعت يدها على رأسها وأسدلت خصلات شعرها على ظهرها، وقامت من جلستها بجانب النيران ورفعت إحدى يديها لأعلى ثم أخذت تحركها ببطء وأطلقت لصوتها الحرية:

- "الصبر قالي الهوى وياك مهوش معدول،
هتعمل إيه مركبك والريح مهوش معدوم،
جت تكتب الألف وقع القلم معدول،
ما كنت خالص يا صاحبي،
وإيه وقعك مع دول" .

كانت تغني وتتمايل فتتمايل معها الجبال، ترفع يدها فترتفع معها أمواج البحيرة ثم تخفضهم فتستوي حبات الرمال، كانت ترقص ومن خلفها تتراقص أوراق الأشجار على غنائها الموقع، لم تكن تغني بصوتها فقط بل كانت تغني

بروحها وتتراقص بقلبها .
- "جاكلين!"
توقف غناؤها وكأن الألحان قد ماتت بداخل حنجرتها، وتوقف رقصها وكأن مفاصلها قد تحجرت، بل إنها لم تستطع حتى أن تستدير لتجيب على من قال اسمها لتوه، لم يكن مجرد اسم بل كان بمثابة صاعقة كهربائية تخبرها بأن أحدًا كان هنا طوال الوقت .
- "إنتي بترقصي؟"
قالها علي بدهشة قد امتزجت بالتعجب وعدم التصديق، فهو يعلم أن الرقص محرم على أرض الجنوب وإذا اخترق أحدهم هذا القانون لن يكون جاكلين!
شعر علي بالتوتر الذي دب في أوصالها فحاول أن يطمئنها بعض الشيء فجلس وقال لها:
- "أوعدك أن محدش هيعرف حاجة" .
بوعده أم بدونه هو قد رأى كل شيء بالفعل، لا تعلم ما الذي جعلها تصدق وعده وقررت أنه إذا كان قد رأى شيئًا لا يعلمه أحد، فعليه أن يسمع ما لم يسمعه أحد أيضًا فقالت بصوت خفيض لكن به قوة:
- "أه برقص" .
- "بس أنا أعرف أن القانون في الجنوب بيمنع الرقص" .
رفعت جاكلين عنقها وقالت بثقتها المعتادة:
- "الرقص عشق والغنا فن ومفيش قانون يقدر يمنع العشق واللي ميقدرش الفن عمره ما يقدر يشوف الجمال" .
ظهرت عليه علامات الدهشة لما سمعه منها فقال:
- "انتي آخر حد أتوقع أنه يكسر القوانين" .
- "قوانين الأرض كلها متقدرش تمنع الإنسان من حاجة بيحبها، مفيش قانون يقدر يمنع العشق" .
صمت علي للحظات رنت فيها جملتها في رأسه، كم كان تعبيرها دقيق! البشر لا يقدرون على صنع قوانين تمنع حب قد وضعه الله في قلب عبده .

- "طيب إحكي لي انتي بترقصي ليه مع إنه ممنوع؟"
تنهدت جاكلين وعادت بالذاكرة لسنوات ثم قالت:
- "من يوم ما اتولدت وأنا عارفة أن الرقص ممنوع في الجنوب ومحدش يعرف السبب، لكن أنا متأكدة أن أيوب وزينب عارفين السبب، وأنا صغيرة كان نفسي أكون مغنية زي عمتي زينب لكن دا كان أول حلم يضيع مني" .
جلست جاكلين بجانب النار هي الأخرى فسألها علي:
- "ليه؟"
- "لما أمي اتقتلت وهي حامل مكانش في وريث للزعامة غيري أنا، إحساسي بالمسؤولية ورغبتي في إني أجيب حق أمي خلتني أتنازل عن كل حاجة وأكون ولي العهد بس، اتنازلت عن كل حاجة بحبها، لعب الأطفال وفساتين البنات والغنا .
اتنازلت حتى عن أني أكون بنت" .
تنهدت جاكلين ثم قالت:
- "لكن كنت كل ما أحس إني مخنوقة أقعد لوحدي أغني وأرقص وبعدين أخرج للناس تاني" .
صمت علي للحظات ثم ابتسم وقال:
- "البنت اللي تضحي بكل حاجة عشان تاخد حق أهلها وتدافع عن بلدها تبقى بمية راجل وأحسن من مية بنت" .
ابتسمت له جاكلين بهدوء لم يعهده منها من قبل، ثم كورت يدها ولكمته في كتفه وقالت بضحكة:
- "بس متقولش بنت" .
ضحك علي وقال لها:
- "دلوقتي احنا زي بعض، إنتي عرفتي إن أنا مسجون وأنا عرفت إنك بترقصي وتكسري القوانين" .
كل منا يسابق نفسه في طريق ليس له نهاية، لكن ما يهون عليك الأمر هو أن تجد من يشبهك بداخل زحام الحياة، من يشبهك في شخصيتك أو طباعك، قلبك

أو عقلك، يشبهك في حزنك وشرودك أو حتى يشبهك في أسرارك الخفية التي لا يعلمها إلا أنت، المهم أن تجد من يشبهك، حتى وإن كان له لون غير لونك، أرض غير أرضك، حتى وإن رآكم كل من حولكما على أنكما أعداء يكفيكما أنكما تعلمان كم تشبها بعضكما .

انصرف كل منهما إلى حاله لكن كان كل منهما يفكر بعمق، كان علي يردد كلماتها على مسامعه وكأنه يريد أن ينقشها على جدران قلبه (مفيش قانون يقدر يمنع العشق)، تعمق علي في التفكير أكثر وأخذ يحدث نفسه كعادته .

كخطان متوازيان ظن الجميع أنهما لن يلتقيا مهما امتدا، لكن قد يأتي يوم ويغير كل منا مساره فنصبح دائرة متصلة أبدًا لن تنتهي .

أما هي، فكانت تفكر في التضحية التي قامت بها منذ سنوات وما زالت تدفع ثمنها حتى الآن، لم تندم يومًا لكنها كانت دومًا تتساءل ماذا لو أن الإنسان لن يصل إلى الهدف الذي ضحى بكل شيء من أجله، وماذا لو أن كل ما تتمناه لن يكون؟ ماذا لو أن الطريق المظلم الذي بدأت السير فيه مهتديًا بهذا النور في آخره ليس طريقك، ماذا لو وصلت لآخره ووجدت أن هذا النور كان نارًا مشتعلة ستبتلعك دون مقاومة .

ماذا لو أن ما تتمناه لن يحدث وما ترجوه لن يكون وما تمتلكه لن يدوم؟

ماذا لو بعد سنوات الركض اكتشفت أنك كنت تلهث خلف السراب؟

ماذا لو أن قطعة حلوتك بها سم وأن شمعتك نارًا ستحرقك وأن حارسك لص سيسرقك؟

ماذا لو أن ما تتمناه أن يكون لن يكون؟

ستكون كمن شيد قصرًا على أعمدة من الهواء وحصنه بسور من الفراغ ثم سقط سقف طموحه فوق رأسه .

وما نهاية تلك الحيرة! ثم ماذا يا صديقي ثم ماذا!

5- خير وشر

كل قوة لها قوة أخرى مضادة لها ويمكن أن تقضي عليها، منذ أن خلقنا الله وهناك قوى تتنافس مع بعضها لتثبت إحداهم أنها الأقوى .
قوة الحياة تنافس قوة الموت، القوة تنافس الضعف، الجمال ينافس القبح، والخير ينافس الشر دون أن ينتصر أحد .
لكن هلا توقفت ثانية وتساءلت لما كل هذه الفوضى؟ لما التنافس من الأساس فوجود القوة يدل على وجود الضعف، وجود الجمال يؤكد وجود القبح، لولا الحياة ما كان للموت أثر ولولا الخير ما كان الشر موجود .
من يوجد الخير بداخله سيرى الخير في كل من حوله، ومن كان بداخله الشر فسيشعر أن العالم من حوله حديقة حيوان البقاء فيها للأقوى فقط .
لذا لا ترهق نفسك في الصراعات، فما زال الخير بيننا وسيظل الشر موجود .

****

أتتذكر المنزل الصغير الذي يسكنه الزوجان الجديدان بمدينة نصر؟ كانت الشمس تشرق عليهما وتغيب من خلفهما وهما في منزلهما الصغير لا تزيدهما الأيام إلا تقربًا من بعضهما و تقديرًا لمجهود كل منهما .

عاد الزوج من عمله عصرًا كما يفعل كل نهار، فاستقبلته زوجته وهي جالسة بوجه شاحب مائل إلى اللون الأصفر، حاولت الزوجة أن تقوم من جلستها لتسلم على زوجها لكنها لم تقدر، فلاحظ الزوج شحوب زوجته فجلس بجانبها وقال:

- "مالك؟ شكلك تعبانة" .

ابتسمت له رغم هذا الألم الذي يشق ظهرها وقالت:

- "مفيش حاجة أنا بس تعبت شوية في شغل البيت" .

كانت تتألم من عملها في المنزل طوال النهار، بالإضافة إلى هذا الكائن الصغير الذي ينمو بداخلها كل يوم، وينبض قلبه بداخل أحشائها، نعم فقد تقدمت في حملها حتى أصبحت تشبه الكرة المستخدمة في لعبة ال(بولينج) .

- "مش قلت لك ترتاحي شوية الكام شهر دول" .

ابتسمت مرة أخرى ونظرت على بطنها التي انتفخت، فوضعت يدها على هذا الانتفاخ وقالت:

- "متخافش علينا" .

- "طيب يلا عشان ميعاد الدكتور بتاعك قومي البسي" .

قامت وقام من خلفها زوجها تاركًا من خلفه صالة المنزل المعلق بها برواز به صورة تم التقاطها من يوم زفافهما السعيد .

أتذكر أنني قد عرضت لك مشاهدًا من هذا الزفاف سابقًا، ربما تكون قد نسيتها أو ظننت أنها بلا قيمة .

لكن كما تمر الحياة عليك، فإنها مرت أيضًا على هذين الزوجين، ألم أقل لك أن

حياتنا مجرد روايات؟ فإذا كنت قرأت واحدة منهن فاعلم أن هناك روايات أخرى ما زالت على الرف، وأن هناك حيوات أخرى أنت لا تعلم عنها شيء .
فأنت يا صديقي نجم صغير من بين آلاف النجوم التي تلمع في سبع سماوات .

****

- «وما بال الذين بدأوا السير معك في نفس الطريق؟»

= «منهم من وصل لما أراد ومنهم من مل الانتظار وعاد من حيث أتى» .

- «وأنت؟»

= «أنا؟ أنا كما أنا، أقف بين البداية والنهاية، لا أستطيع الوصول ولا أملك العودة .

فأنا يا صديقي مصاب بـ (لعنة منتصف الطريق)» .

لا تتوقع انهزام امرأة مثلي، فأنا أقترب من السقوط كثيرًا لكن يعيبني أن لي نفس ثائرة لا تهدأ ولا تسكن تتعثر لكن تأبى الانهيار، فكلما شعرت بالضعف أهمس لذاتي "كوني أقوى مما أنت عليه الآن لتكفي شجاعتك شعوب الأرض" .
كعادتها كانت تلجأ إليه حين تشعر بأنها لا تعلم ماذا تفعل، والدتها غير والدته ووالدها غير والده لكن الحياة جعلتهما أخوين رغمًا عنهما .
حين يحتاج إليها كانت تشعر حقًا بأنه أخوها الصغير، وحين تحتاج إليه تشعر وكأنه أخوها الأكبر الذي بعثه القدر لها كي يحميها حتى من نفسها بغض النظر عن الفروق العمرية، كان هو الشخص المناسب لها وكانت هي الشخص الذي يحتاج إليه .
جميلة هي تلك الأقدار التي تجمعك بغرباء ليحصلوا في قلبك على مكانة من تجمعك بهم دماء القرابة .
وقد جمعهما القدر معًا وقضى الأمر .
وها هو (خالد) قد أتى إليها دون أن تطلب، بل لأنه شعر أنها تحتاجه وكان شعوره لا يخطئ الظن أبدًا .
- "الأخبار وصلت من الجنوب يا جاكلين" .
تلهفت جاكلين لهذه الجملة فنظرت إليه بحماس وقالت:
- "إيه اللي حصل؟"
فض خالد الورقة المطوية بيده وبدأ يقول:
- "الزعيم بيقول أن الخطة تعتبر اتنفذت وفي خلال أسبوع هيكون الجنوب جاهز لصد أي هجوم من الرحالة" .
تنفست جاكلين الصعداء وشعرت ببعض الراحة فأكملت:
- "المشكلة بس إننا منعرفش الرحالة ناويين يحاربوا ولا لأ" .
- "لأ في مشكلة تانية، إنتي يا جاكلين" .

دب القلق في أوصالها لأنها كانت تعلم ما سيقوله خالد، فهو دائمًا يفهم ما بداخلها دون أن تتحدث هي عنه .

- "إنتي واقفة في النص، مش قادرة تاخدي قرار، عقلك بيقولك بلاش تحاربيهم لكن جواكي حاجة بتكبر جواكي من زمان بتقولك مينفعش تتنازلي .

انتي بتتعاملي معاهم لكن مش قادرة تاخدي قرار الحرب أو السلام، انتي واقفة في النص مش قادرة تكملي للنهاية ولا عارفة ترجعي لأول الطريق" .

هل جربت يومًا هذا الشعور؟ أن تكون حائرًا وغير قادرًا على اتخاذ القرار؟ تحاول أن تفهم ما حولك في حين أنك غير قادر حتى على فهم نفسك .

- "أنا تعبت يا خالد ومش عارفة أعمل إيه؟"

- "ولا أنا عارف بس اللي متأكد منه إنك اتغيرتي" .

حاولت أن تتظاهر بأنها لا تفهم قصده فسألته:

- "اتغيرت إزاي؟"

صمت خالد للحظات ثم قال بصوت هادئ:

- "عشان بتتعاملي مع (علي) على إنك بنت وانتي عمرك ما عملتي كدا" .

قالها خالد وخرج من المنزل بعد أن وضع لها دائرة الضوء على النقطة التي كانت تتجاهلها، وتخشى أن تراها قال لها ما كانت تتهرب من سماعه، وضعها في اختبار حقيقي أمام نفسها لتعلم أنها حقًا تغيرت لكن لماذا أو كيف؟ هي لا تعلم، وما الذي جعلها تظهر كفتاة أمام علي كما قال خالد؟ هي لا تعلم أيضًا ولا تريد أن تعلم، تخشى أن تعلم فتجد ما يضعها في صراع بين عقلها المشتت وقلبها الحائر .

التجاهل أمر صعب وتزداد صعوبته حين تحاول أن تتجاهل شعور يكمن في قلبك .

كان هذا ما يوجد بقلب ساكنة المنزل الجنوبي، وبين المنزل الجنوبي والشمالي كانت هناك أنغام ترتفع من السمراء ذات الكتف الموشوم والساق التي تزينها حلقات الخلخال .

- "يا جارنا في المساكن وغايب عننا،

بتزيد في التقل لكن مصيرنا لبعضنا،
يا قاسي وأنت جارنا، تعالى في يوم وزورنا،
تعالى دي الطراوة في العصر حنينة،
يا زايد في الحلاوة عن أهل حينا،
ما تبطل الشقاوة وتعالى عندنا،
ابقى تعالى تعالى عندنا» .

أما في المنزل الشمالي فكان عمار يبلغ علي بالأخبار التي وصلت من الشمال، حيث كان الشوام يخبرهم بأنه أوشك على الانتهاء من تنفيذ الخطة، كما أنذر علي بأن الإبقاء عليه كزعيم للشمال يتوقف على نجاح هذه الخطة، وفي آخر الخطاب أخبره بأنه إذا نجح الرحالة في غزو الشمال سيتم عزل علي من الزعامة، أما إذا كان مطمئن إلى أن هذه الخطة ستنجح فعليه أن يرى عدوه الآخر، ليعود للشمال منتصرًا في أسرع وقت .

- «مش فاهم» .

قالها علي لعمار حين قرأ عليه ما كتبه والدهما الشوام في آخر الجواب فقال عمار مستهزئًا:

- «إيه اللي مش مفهوم؟ قصده على حربنا مع الجنوب ولا أنت ناسي إحنا هنا ليه؟»

تلجلج علي للحظات ثم قال:

- «لأ مش ناسي لكن أنت اللي نسيت إن كان في حل تاني غير الحرب» .

- «عاوز تتصالح معاهم؟»

- «وإيه المشكلة يا عمار؟ ليه نضحي بناس من الشمال وناس من الجنوب عشان خلافات حصلت قبل ما احنا نشوف الدنيا، ليه نقسم نفسنا واحنا في النهاية أرض واحدة» .

رفع عمار كلتا يديه ولكم علي في كلا كتفيه بقوة فتراجع علي خطوتين للخلف في حين قال عمار بثورة عارمة:

- «إحنا مش أرض واحدة، أنا شاكك فيك من زمان من ساعة ما بدأت تتكلم من

البت الجنوبية دي لكن مكنتش أعرف إنك هتتأثر بيها أوي كدا .
لكن إيه الجديد طول عمرك فاشل وضايع، كان لازم تقضي عمرك كله في السجن"
كانت كلماته كالوقود أمام أعين علي التي تخرج منها شرارة الغضب لكنه تمالك نفسه وقال بهدوء اجتهد كي يظهره:
- "أنا مش هرد عليك عشان أنت أخويا الكبير" .
قالها علي وخرج من باب المنزل فقال عمار بصوت أعلى من ذي قبل:
- "كويس إنك لسه فاكر إن أنا الكبير" .
لم تمر ثوانٍ على خروج علي من المنزل حتى ظهرت سمر من خلف أحد الأبواب، لن تقلع سمر عن تلك العادة أبدًا، فهي دومًا تعشق سماع ما يقال خلف الجدران .
- "خطيبك إتجنن" .
قالها عمار بذات الغضب والعصبية السابقة فقالت سمر بهدوء وبرود:
- "متقولش خطيبك دي" .
نظر لها عمار بعدم فهم وقال:
- "يعني إيه؟"
- "يعني أنا قلت لك إني هكون مع الحصان الأسود، واعتقد إني خلاص عرفت مصلحتي مع مين" .
- "انتي ناوية تعملي إيه؟"
رسمت سمر على وجهها ملامح الحزن المصطنع وقالت:
- "أنا يا حرام خطيبي مش مهتم بيا، وتقريبًا كدا مهتم بواحدة تانية ف أنا هرجع الشمال تاني .
تحب أوصل لك حاجة للناس اللي هناك؟"
ابتسم عمار بنصف وجهه ثم قال بسخرية:
- "عمري ما شكيت في ذكائك" .
- "قلت لك مش هكون الحد الخسران" .
قالتها سمر بتحدٍ ليس غريب عليها، فهي من تقربت لعمار في البداية ظنًا منها

أنه سيكون الزعيم وما أن قال الشوام أنه سيتنازل عن الزعامة لعلي قبلت بعلي خطيبًا لها، وها هي اليوم تعد حقائبها لتعود إلى الشمال مرة أخرى حين وجدت أن بقاء علي في الزعامة على المحك وأن الدور القادم سيكون لعمار .
وهي تشربت في طفولتها مبدأ يقول بأنها لن تخسر أبدًا .
مرت الساعات الأولى من الليل الهادئ وما أن هلت نسائم الفجر على الصحراء، كانت سمر قد أتمت جمع حقائبها التي ليس لها قيمة على الإطلاق، وامتطت حصانها ورحلت دون أن تخبر أحد بأنها ذاهبة، ذهبت بحقائبها المليئة بالملابس الفارهة بالإضافة إلى ورقة مطوية، ورقة مطوية ستحدد من سيكون الحصان الأسود لأرض الشمال .
شقت سمر الصحراء وفي حقيبتها رسالة من أرض إيڤانوس إلى الشوام .

٦- حب وكره

أنت مقياس كل شيء .
أنت من يؤثر على رؤيتك للأشياء،
قبل أن تقبل على الآخرين عليك أن تقبل على نفسك أولًا، عليك أن تفهمها وتحبها، حبك لذاتك سيجعلك أكثر قدرة على منح الحب للآخرين، وكرهك لذاتك وعدم فهمك لها سيجعل منك شخصًا بعيدًا كل البعد عن الحب .
امنح الحب لنفسك فهي تستحق ذلك، امنح الحب لنفسك قبل أن يأتي عليك الدور لتمنحه للآخرين .
فالحب يا صديقي هو مرض سيصيبك رغمًا عنك لكنك لن تأخذ الدواء بإرادتك, فهو المرض الذي تتمنى لو أنه لن يزول عنك أبدًا حتى لو ستموت بمرضك .

****

حتى وإن كان اقترابك منهم سيقتلك،
هناك بشر تستحق أن نموت من أجلهم .

كانت السيدة فخر تجلس بجانب زينب في صحراء إيڤانوس تشربان الشاي على البحيرة، فاقتربت جاكلين منهما وقالت دون أي مقدمات:
- "يا ست فخر ممكن أسألك على حاجة؟"
نظرت لها فخر بابتسامة الإعجاب التي تنظر بها لجاكلين دومًا وقالت:
- "اسألي يا بنتي" .
- "يعني إيه حب؟"
ظهرت على زينب علامات التعجب في حين ابتسمت فخر وقالت:
- "الحب بيتولد جوانا من أول يوم لينا في الدنيا، لما الطفل بيتعلق بأهله وهو ميعرفش بيحبهم ليه،
الحب هو طاقة شبه الجاذبية الأرضية بتشدك غصب عنك .
الحب ملوش أسباب ولو عرفتي تقولي مبرر لحبك لحد يبقى دا مجرد إعجاب، الحب اللي ليه سبب بيزول بزوال السبب .
الحب ملوش علاقة بـالبعد والدليل إننا لسه بنحب ناس ماتوا وسابونا بس لسه موجودين جوانا،
الحب هو إنك تستوعبي الزحمة اللي جوا الحد اللي بتحبيه برغم الدوشة اللي جواكي، إنك تلاقي حد قادر يصلح الخراب اللي جواكي بالرغم من إنه محتاج اللي يقويه .
الحب هو إن الإنسان يعتبر الناس اللي بيحبها شعاع نور في سكته المضلمة، ومهما كان تايه وجودهم هيساعده، الحب الصح يقوي مبيضعفش ولازم يكون دافع ليكي إنك تكوني حد أحسن، لو حبك لحد بيضعفك يبقى لمي اللي باقي منك واهربي .
مفيش حد كامل بس احنا لما بنحب حد بنشوف فيه الكمال حتى لو كان مليان عيوب . الحب إنك تشوفي في حد حاجات محدش بيشوفها غيرك وتشوفيه

شبهك وفيه من روحك .
قبل ما تحبي لازم تكوني فاهمة انتي عايزة إيه وبتعرفي تعتمدي على نفسك، لو الإنسان مش قادر يشيل مسؤولية نفسه هيشيل مسؤولية كلمته إزاي!
اللي يقولك إن الحب هو إنك تلاقي نصك التاني دا كذاب، لازم الإنسان يكون كامل قبل ما يحب لأن اللي بيدور على نص يوم ما يلاقي نص أحسن منك هيفارق .
الحب ليه معاني كتير أوي بس الأكيد إن الحب هو إن الإنسان يكون ماشي في طريق طويل ملوش آخر وكل الناس بتقوله ارجع وهو عارف أن طريقه ضلمة وآخره حيطة بس هو عنده قدره يهد الحيطة دي عشان يوصل لـ اللي بيحبه .
لو حسيتي إنك عندك قدرة تستحملي وعندك يقين إنك هتوصلي برغم عدم وجود أي حاجة تشجعك اعرفي إنك اخترتي صح،
الحب أرقى من حاجات كتير في حياتنا .
الإنسان اللي يقرر يحب لازم يكمل للآخر ويعمل كل اللي عنده عشان ميجيش بعد كدا يقول كان في حاجة في إيدي معملتهاش، الحب محتاج بنت جدعة وأصيلة وراجل قد كلمته، غير كدا علاقات عابرة وشكليات" .
قد تكتسب خبراتك الحياتية من تجاربك الشخصية وقد تكتسبها من خلال خبرات الآخرين، وها هي فخر أعطت لجاكلين خبرة الستين عامًا في كلمات أخرجتها من حلقها، كانت جاكلين تستمع إليها باهتمام كأنها تتعلم شيئًا لم تعلم عنه شيئًا من قبل، شيء كانت تظن أنه يبعد عنها بعد القمر عن الأرض، لكنها لم تكن تعلم بأن هناك أناس من الأرض وطأت أقدامهم سطح القمر .
لا تعلم ما الذي جعلها تسأل هذا السؤال أو ربما تعلم وترفض أن تعترف بما تعلمه، أخذت تنصت لكلمات فخر وتنقشها على جدران روحها لتزيد بها من عمرها .
نعم، فإن معرفتك بخبرات الآخرين تضيف إليك أعمارهم فإذا قرأت كتابًا لكاتب له من العمر خمسون عامًا فاعلم أنك أضفت إلى عمرك خبرة الخمسين عامًا أثناء قراءتك لصفحات الكتاب .

مرت الأيام المقبلة هادئة مشابهة للأيام السابقة، جاكلين وخالد يذهبان للصيد كل يوم، وعلي وعمار يعملان بالزراعة، وسوسن وزينب وليلة يعددن الطعام، وفخر تأتي إليهم كل ليلة ليقيموا مجلسهم المعتاد، أما سمر، فلم يتنبه أحد لغيابها حتى علي لم يهتم بأن يسأل عن سبب رحيلها، لم يكن لوجودها داع منذ البداية، لكنه قبل بها كأنها أحد الكماليات بجانب زعامة الشمال وها قد رحلت مشكورة .

ظن علي أن رحيلها كان النهاية، لكن رحيلها كان ما قبل البداية أما البداية ها هي ستأتي .

أشرقت الشمس على صحراء إيڤانوس وكما يحدث كل يوم انصرف كل فرد إلى أشغاله، ثم تجمعوا مرة أخرى في مجلسهم قبل غروب الشمس دون أن يعلموا أن هذا الهدوء لن يدوم طويلًا .

تنبهت سوسن إلى صوت ما فرفعت رأسها لأعلى وقالت بفزع:

- "خفاش!"

تنبه جميع الحاضرين ونظروا في السماء حيث نظرت سوسن فوجدوا خفاشًا أسود اللون يحلق من فوقهم، منذ متى والخفافيش تظهر قبل أن تغرب الشمس؟ لم يكونوا يعلموا أن هذا الخفاش لن يظهر إلا في ضوء الشمس وسيجلب معه الليل .

اقترب الخفاش منهم قليلًا ثم أسقط من مخالبه ورقة مطوية هوت على الأرض، ثم عاد من حيث أتى، تحرك عمار ثم أخذ الورقة التي أسقطها الخفاش وفتحها فوجد بداخلها رسالة مقتضبة قرأها سرًا فسألت سوسن ابنها عن محتوى الورقة قائلة:

- "مكتوب إيه يا عمار؟"

قال عمار بلهجة متعجبة:

- "مكتوب (لم تعد النهاية ببعيدة وستتذوقون مرارة ما فعلتم بنا)، وفي إمضاء في آخر الورقة من ابن ماجن" .

عم الوجوم على وجوه الجالسين ولم يستطع أحدهم أن ينطق بكلمة كأن

الكلمات قد منعت من الوصول إلى شفاههم، شحب وجه علي وشعرت جاكلين بألم في معدتها من أثر التوتر ولم يستطع الحديث إلا فخر التي قالت بوجوم:
- "دا تهديد صريح معناه إنهم قرروا يحاربوا بس منتظرين فرصة" .
جاء صوت زينب متسائلة:
- "ليه بتقولي إنهم لسه مستنيين فرصة؟"
- "لو كانت الفرصة جتلهم كانوا حاربونا من غير تهديد، لكن هما أكيد عرفوا موضوع الخطة ولسه الفرصة مجتش" .
كان الظلام قد تسلل إلى أرجاء السماء كما تسلل الخوف إلى نفوسهم التي ملأها القلق من لحظة اللقاء التي باتت قريبة أكثر مما تصوروا .
كانوا على حق، عليك أن تحذر من عدوك الذي لم تلتق به من قبل أكثر من عدوك الذي تعرفه .
لم تمر دقائق حتى حلق فوقهم أحد طيور الحمام الزاجل الذي يستخدم لإرسال الرسائل في إيڤانوس، واقترب الطائر من علي ثم ترك أمامه رسالة مطوية ورحل .
رسالة أخرى في ذات الساعة لكنها هذه المرة من حمامة بيضاء، وأما الأولى فكانت من خفاش أسود اللون كسواد قلب من أرسله، فض علي الرسالة الثانية وبدأ يقرأ ما بها بصوت عالٍ:
(من الشوام زعيم الشمال السابق إلى علي زعيم الشمال الجديد، دعك من أنك ابني فأنا أتحدث إليك كزعيم ابيض شعر رأسه يحاور زعيم لم يمض عليه عام في منصبه، بلغني أنك تنوي على أن تعقد الصلح مع الجنوب وتضع اسم أرض الشمال أسفل أقدامهم، بلغني أنك لا تسمع رأيًا لأحد ولا تفعل إلا ما يحلو لك وأنك تتقرب من ولية عهدهم التي اكتشفت اليوم أنها فتاة .
يبدو أنك نسيت من أنت ولما أنت في صحراء إيڤانوس، ربما أيضًا نسيت أنك حصلت على فرصة يتمناها كل أبناء جيلك فأردت أن أرسل إليك كلماتي لعلها تذكرك من أنا يا ابن الشوام .
لن أقبل أن يقال أن الشمال لا تقوى على الحرب، إما أن تحارب هؤلاء الجنوبيين في خلال أسبوع من الآن وإما أن تتنازل عن زعامة الشمال لأخيك الأكبر (عمار)

وتصبح أنت نائبه، لا تنس أنكم أبناء أم واحدة والأهل لا يختلفون أبدًا .
ها قد أخبرتك بقراري الذي لن أعود عنه، إما أن تعود إلي براية النصر أو تسلم راية الزعامة لعمار و لك ما تشاء)
انتهى علي من قراءة الرسالة أمامهم جميعًا فحل الوجوم على وجهه وحل الصمت على لسانه، أدرك علي أنه كان من المفترض أن يقرأ هذه الرسالة بمفرده، لكنه الآن أمامه سؤالين يحيران باله حتى كادت أن تنفجر رأسه، الأول من الذي أخبر الشوام بكل هذا؟ وبعد لحظات من التفكير أدرك أنه من المؤكد أن تكون سمر هي من فعل ذلك، أما السؤال الثاني هو ماذا سيفعل!
لحظات من التفكير مرت عليه كأنها سنوات، كان يفكر هل حان الوقت بأن يقترح عليهم الحل الذي توصل إليه منذ أيام؟ نظر علي إلى والدته سوسن فابتسمت له بهدوء أي افعل ما تشاء فتشجع علي وقال:
- "أنا مش هحارب الجنوب وأخسر ناس من أهلي واحنا عندنا حرب تانية ضد الرحالة قريب أوي، ومش هتنازل عن الزعامة لأن مهمتي لسه مخلصتش" .
نظر له عمار وقال براحة حلت عليه حين سمع رسالة والده:
- "أومال هتعمل إيه؟"
- "هقولك يا عمار، أنا عندي حل مرضي لجميع الأطراف" .
تنبهت الأنظار ونظر له الجميع بتأهب فقال موضحًا:
- "إحنا مش هنحارب ومش هنعمل صلح وكل واحد يعيش في حاله، إحنا نرجع أرض واحدة، مفيش شمال ومفيش جنوب، نرجع زي زمان .
أهلنا معرفوش يطردوا الرحالة غير لما كانوا أرض واحدة واحنا مش هننتصر عليهم غير لما إيڤانوس ترجع زي زمان" .
كان حديثه بالنسبة لهم كأن صاعقة كهربائية ضربت رؤوسهم بالرغم من أنه ليس حلًا صعبًا على أحد أن يصل إليه كان صعبًا على أي أحد أن يقترحه .
كيف تجرأ هذا الشاب وقال هذا الاقتراح؟ كيف يريد أن يهدم ما فعله السابقون منذ عشرات السنين، الحق يقال أن ما فعله السابقون كان خطأ منذ بدايته، لكن كيف لك أن تقنع البشر بأن ما يفعلونه يقتلهم ولا ينجيهم، كيف تقنعهم

بأنهم يسيرون في طريق نهايته خراب وليس نعيم .
دهشت فخر بما سمعت فقالت بقلق:
- "هتعمل كدا إزاي؟"
- "الشوام قال في رسالته إن الأهل مينفعش يختلفوا، وأنا بقول إن الأهل مينفعش يحاربوا بعض عشان كدا احنا لازم نكون أهل" .
قالها علي ثم تحرك من جلسته واقترب من جاكلين وقال:
- "تتجوزيني؟"
اصفر وجه جاكلين وفرت الدماء من عروقها كأن الدماء لم تعرف الطريق إليها يومًا، شعرت بألم في رأسها من كثرة ما جال بها وما تريد أن تقوله، تريد أن يكرر عليها ما قاله لتتأكد أنها سمعت هذه الكلمة في مكان كهذا من شخص كهذا، تريد أن تتأكد أنها تسمع هذه الكلمة من شخص أبيض شمالي!
- "أنت بتقول إيه!"
قالها عمار بصوت كادت أن تتصدع له الجبال، قالها وهب من مكانه كأن عقرب قام بلدغه .
- "أنت مجنون؟ أنت بتطلب تتجوز جنوبية؟ دا ضد عاداتنا وضد القانون" .
هنا صمت علي وتذكر جاكلين حين قالت له (مفيش قانون يقدر يمنع العشق) أدرك علي أنه إذا كان مخطئًا في ماضيه ومجبورًا في حاضره فإنه حر في مستقبله له الحق في أن يحياه كيفما شاء له الحق في أن يفعل شيء صائب لأول مرة في حياته .
- "متنساش نفسك يا عمار، أنا الزعيم" .
- "علي معاه حق" .
قالتها فخر بصوت هادئ واثق من ما يقول فنظر لها الجميع فأخذت شهيقًا واستكملت:
- "أقوى عصر مر على إيڤانوس هو عصر الوحدة، أما بالنسبة لعادات الشمال أو الجنوب اللي تمنع الجواز من برا الأرض فالعادات دي هتتغير لأن مش هيكون في شمال وجنوب أصلاً، هيكون في إيڤانوس بس" .

كانت زينب تشعر بأن اقتراح علي بمثابة طوق النجاة الذي يمكنه أن يبعد عنهم ويلات الحرب فقالت بحماس:

- "متأكدة من الكلام دا يا ست فخر؟"

- "طبعًا، اسمهم هيتكتب بالذهب في التاريخ لو رجعوا وحدة إيڤانوس، لكن دا كله متوقف على موافقة جاكلين" .

نظر الجميع إلى جاكلين منتظرين ما ستقوله أما هي فكانت في وادٍ آخر، لم تسمع أي شيء مما قالوه بل كانت لا تستمع إلا لصوتها هي فقط، كانت تقف كالمتفرجة على الشجار القائم بين قلبها الحائر وعقلها المشتت حتى حسمت هذا الشجار قائلة:

- "موافقة لكن الجواز ليه مهر، وأنا مهري رقبة زعيم الرحالة" .

لم يصدق أي من الحاضرين ما قالته جاكلين، حتى هي، حتى لسانها لم يصدق الكلمات التي قالها .

لو أن شعوب الأرض جميعًا كانت أقسمت لعلي وجاكلين أنهما سيمران بهذا الموقف لما صدقاهم، حين قالت (موافقة) شعرت بأن هناك حاجز جليدي قد ذاب من فوق قلبها وشعر هو بأن هذه الكلمة سقت قلبه بماء الورد، صمت عمار على الرغم من الشرر الذي يخرج من عينه وابتسم خالد وليلة لأن توقعاتهم التي رأوها مستحيلة قد صدقت .

أما زينب وسوسن وفخر نظرن لبعضهن البعض وهن تعلمن أن رائحة الماضي تفوح في الأرجاء، وأن شبح السنين الماضية قد عاد وقد يظهر لهم في أي لحظة .

من قال أن الماضي قد ذهب بلا عودة؟

فالماضي لا يعود والأيام لا تتكرر لكن الأحداث قد تتشابه لتحيي ذكريات قد تراكم من فوقها الغبار .

على ناحية أخرى من الأرض يوجد لك نصف آخر قدر الزمان أن يفرقكما فيحيا كل منكما بنصف غائب .

دائمًا كنت أعتقد أن المشاعر التي بداخلنا تقل كلما استهلكناها مع الشخص الخطأ وهي أيضًا كانت تعتقد ذلك .
كانت تخفي كل ما بدخلها، عاشت حياتها كلها تخفي مشاعرها خلف جدران قلبها، تخفي الفتاة التي بداخلها خلف وشاح وكأنها تحمي كل الجمال الذي في قلبها حتى لا تخرجه إلا لمن يستحق، فقد أخذت عهدًا على نفسها بأنها لن تصبح فتاة إلا في عين شخص واحد لذا يجب أن يكون هو الشخص الصواب .
كل من حولها يرون أن علي قد طلب منها الزواج حفاظًا على زعامته وليستعيد وحدة إيقانوس، وهي أيضًا تتعامل على هذا الأساس لكن قلبها يخبرها بالعكس، قلبها يخبرها بأن علي هو الشخص الصواب، هو من رأى الفتاة الرقيقة خلف وشاح ولي العهد .
فاعلمي أيتها الفتاة أن من يحبك حقًا هو من سيرى الفتاة الرقيقة التي بداخلك من خلف قناعات القوة التي ترتدينها أمام الجميع، هو من سيرى بداخلك شيئًا جميلًا لن يراه غيره .
وكان قلبها يخبرها بأنه هو من سيرى الزهور التي بداخلها، لكنها خائفة، خائفة من أن تفتح له قلبها فيرى الزهور ويتجاهلها فتذبل وتتساقط أوراقها .
لم تكن تخشى الموت بقدر خوفها من أن تذبل روحها وهي على قيد الحياة .
اتفقت العائلتان على أن يخفيا الأمر عن أيوب والشوام لحين الانتهاء من تنفيذ خطة الدفاع التي ستحميهم من هجمات الرحالة، ولحين اتفاق علي وجاكلين على ملامح الدولة الجديدة التي سيقيمونها .
بدأت جاكلين وبدون قصد أن تتأقلم وتتحمس إلى شكل الحياة الجديدة التي ستقبل عليها، بدأت تتعامل على أنها فتاة مقبلة على الزواج، حتى وإن كان زواج الغرض منه إنقاذ الأرض لكنه أمر جديد عليها، بدأت تترك الحرية لخصلات شعرها السوداء وتخلت قليلًا عن تجميعهم فوق رأسها، حاولت يومًا أن ترتدي

إحدى ملابس ليلة لكنها لم تستطع أن تخرج بها من المنزل لقصر طولها، حتى وإن كانت تفعل أشياء بسيطة لكن بالنسبة لولي العهد كان هذا تغييرًا جذريًا لاحظه الجميع .

أما علي فقد كان في قمة ابتهاجه لما هو مقبل عليه، أو بمعنى أصح مبتهج لاختياراته، فهو من سيختار شكل دولته الجديدة وأسلوب حكمه، وهو من اختار زوجته التي ستشاركه حياته وحكمه ودولته، لكنه كان يحاول أن يخفي ابتهاجه بجاكلين حتى لا تلتف الأنظار إليه فآثر أن يخفي مشاعره بداخل قلبه على الأقل الآن .

فهو الآن يفكر في أمرٍ ما، أمر يشغل تفكيره منذ فترة ولم يجد فرصة لتنفيذه لكنه يعتقد أن الوقت قد حان وأن الأمور تسير على ما يرام وعليه أن ينفذ ما نوى، سيثبت للجميع أنه يستحق لقب حاكم الشمال، بل حاكم إيڤانوس بأكملها .

ها قد نضجت فكرته وحان الوقت لتنفيذها .

مرت بضعة أيام حتى علم من يسكنون صحراء إيڤانوس أن تنفيذ خطة الدفاع قد اكتمل في الأرضين، وأنهم على قدرة للتصدي لأي هجوم من الرحالة ثم مرت بضعة أيام أخرى وجاء اليوم الذي قرر فيه علي وجاكلين أن يخبرا والداهما بما قررا فعله، لكن القدر دومًا له رأي آخر .

أشرقت شمس صباح هذا اليوم الذي لم يعلم أحد أن ما سيأتي بعد هذا اليوم سيكون مختلفًا عن كل ما مضى .

هكذا أنت أيها الإنسان، لو أنك تعلم متى ستأتي لحظة الختام لكنت غيرت الكثير من قراراتك قبل أن يسدل الستار وتكتب كلمة النهاية .

- "الأولى للنبي والثانية لأيوب يا لالالي،
والثالثة قسمتي والرابعة المكتوب يا لالالي،
والخامسة كنت غالب صبحت أنا المغلوب يا لالالي،
وطلعت فوق الجبل قصدي اودعهم يا لالالي،
لقيتهم سافروا والريح متبعهم يا لالالي،

أمانة يا ريس الغليون ترجعهم يالالالي،
آخذ حبيبي في إيدي والباقي غرقهم يا لالالي" .
فجأة صمت صوتها وتوقفت الألحان في حلقها حين رأت ليلة ظل أسود على الأرض، فنظرت للسماء فوجدت مشهد لم تعهده عيناها من قبل، فزعت ليلة وفزع كل من في الأرض امتلأت السماء بالخفافيش حتى حجبت ضوء الشمس، خفافيش تحلق من فوقهم وتقرب من رؤوسهم وما هي إلا ثوانٍ وتهاوى عليهم شيئًا مضيئًا من السماء .
كرات لهب مشتعلة تقذف فوقهم من كل اتجاه وكأن السماء تمطر النيران .
ما أن تلمس هذه الكرات الأرض حتى تنفجر وتحرق كل ما حولها، ارتفعت صرخات كل من في الصحراء ويقابلها صرخات أهل الجنوب فللأسف كان كل ما يحدث في الصحراء يحدث في الجنوب أيضًا بكل تفاصيله .
فزع أهل الجنوب من الخفايش التي حجبت ضوء الشمس ثم تهاوت عليهم كرات اللهب المشتعلة التي كانت تطلق من خارج أسوار الجنوب، وكأن من يطلقها كان يعلم تفاصيل هذه الأرض وارتفاع أسوارها .
تهاوت الكرات على المنازل فدمرتها وعلى معسكرات تدريب الجيش السرية فأحرقتها، عم الفزع والصراخ بين الناس ودب الخوف في نفوسهم كما دب الرعب في أوصال سكان صحراء إيڤانوس الذين حاولوا اللجوء للمنزل ولكنه أصابته كرة مشتعلة قبل أن يصلوا إليه .
كذلك حاول سكان الجنوب الاحتماء بالمنازل لكن بلا فائدة، الأطفال يصرخون ويركضون باحثين عن أهلهم بين الرماد الذي جعل الرؤية شبه مستحيلة .
أما عن أهل الصحراء فقد ركضوا حتى وصلوا إلى البحيرة دون أن يعلموا هل فقدوا أحدهم أم لا، دون أن يعلموا ما الذي يحدث ودون أن يعلموا أيضًا بهذا الخراب الذي حل على أرض الجنوب في ذات الوقت وبنفس الطريقة .
بعد مدة ليست طويلة وليست قصيرة توقف إطلاق كرات اللهب بعد أن كانت الصحراء عبارة عن دخان أسود اللون يحجب الرؤية، لكنهم وبصعوبة لاحظوا أن هناك جسدًا بشريًا يتحرك وسط الضباب ويقترب إليهم حتى استطاعوا تمييز

هيئته، إنه ذات الرجل الذي يرتدي ملابس ووشاح أسود الذي أحرق الأرض في المرة الأولى وحاول قتل جاكلين .

اقترب حتى صار أمامهم فقالت له سوسن بحذر:

- "أنت مين؟"

كشف الرجل وجهه خالعًا وشاحه وقال بصوت مرتفع:

- "أنا الماضي، أنا واحد انتوا نسيتوه لكن هو عمره ما نسيكوا" .

عرفت فخر من هو فملامحه نسخة من ملامح أبيه فقالت:

- "أنت ابن ماجن" .

- "أيوة أنا ابن ماجن اللي هيخليكوا تدفعوا ثمن كل اللي عملتوه في أبويا وفي الرحالة" .

أخرجت جاكلين صوتها قويًا كعادته وقالت:

- "متفرحش أوي كدا، أنت حرقت الصحرا يعني مفيش ضرر لينا ومش هتقدر تضرنا" .

ضحك ابن ماجن ضحكة عالية وقال شامتًا:

- "مش انتي بنت أيوب؟ اعتقد إنك محتاجة تطمني على أهلك في الجنوب" .

- "تقصد إيه؟"

- "أقصد أن اللي حصل دلوقتي كان بيحصل زيه بالضبط في الجنوب ودخان الحرايق غطى على نور السماء" .

ارتفع صوت جاكلين وقالت بصوت مرتفع بانفعال:

- "أنت بتقول إيه، اللي بتقوله دا مستحيل" .

- "مستحيل ليه؟ عشان الخطة اللي عملتيها مش كدا؟"

بصراحة الفضل في دا يرجع لـ (علي) ابن الشوام، زي ما فخر قالت لكوا إن الرحالة كانوا مستنيين فرصة .

وابن الشوام بعتلنا الفرصة دي .

قالها ابن ماجن فخرجت مقلتا جاكلين من مكانهما وحدقت عيناها فاستكمل قائلًا:

- "شكرًا يا ابن الشوام، وأنا كملت اتفاقنا للآخر وأرض الشمال بخير، مع السلامة" .

استدار ابن ماجن وغطى وجهه بالوشاح الأسود وعاد إلى الضباب مرة أخرى تاركًا خلفه شرارة حريق سيشتعل الآن .

- "صدقوني دا كذاب أنا . . ." .

- "اخرس" .

قالتها جاكلين لعلي بصوت تصدعت له الجبال وأكملت وكأنها تخرج النيران من فمها:

- "أنت خاين وأنا غلطانة إني آمنت لواحد زيك" .

قال عمار رافعًا صوته هو الآخر:

- "هو عمل إيه يعني دي حرب ولازم يكون فيها كسبان وخسران" .

قالها عمار فخورًا بأخيه فقال علي بتوتر:

- "لكن أنا بجد معملتش كدا صدقوني" .

كان علي يتحدث بنبرة التوتر وكانت جاكلين تتحدث بنبرة الحسرة والألم .

الحسرة على أرضها التي احترقت وشعبها الذي بات في خطر بسببها والحسرة على ثقتها التي وضعتها في هذا الخائن وعلى أحلامها التي شيدتها بناءً على كلماته حين وعدها بالزواج والوحدة، شعرت بالحسرة لأنها ولأول مرة تختار الشخص الخطأ .

قالت بحرقة وكأنها تخرج حسرتها في كلمات:

- "أصدقك إزاي ومحدش يعرف خطة الجنوب غيرك،

أصدقك إزاي والرحالة ولعوا في الجنوب بس وأرضك محصلهاش حاجة" .

اهتز صوتها وأصيبت حنجرتها بشرخ من أثر الصراخ كالشرخ الذي أصاب قلبها بسبب خيانته .

أخذت تصرخ بحديثها فاقتربت منها ليلة وأمسكت بكتفها لعلها تهدئها قليلًا لكن جاكلين كانت تشعر بأن هناك بركانًا مشتعلًا بداخلها فأكملت:

- "أنا وثقت فيك لكن أنت كنت بتستغلني عشان تنتقم مننا، وأنا زي الهبلة

صدقتك لكن أنت خاين،
زمان أبوك قتل أمي وأمه" .
قالتها جاكلين مشيرة إلى خالد وأكملت:
- "ودلوقتي أنت بتستخدم أسلوب حقير للحرب، لكن دا الطبيعي من واحد كان مسجون، أنت متستحقش تكون زعيم ولا أنت يا عمار، انتو تستحقوا السجن زي الفران" .
أثار حديثها غضب عمار فوضع يده على حزام خصره وهو يستمع لها:
- "العيب عليا أنا صدقت ناس من أرض الخيانة، لكن وحياة دم أمي اللي سال لتدفعوا الثمن كلكو يا كلاب الشوام" .
لم يتمالك عمار غضبه فأخرج خنجره من حزامه وركض نحوها فحاولت ليلة أن تحرك جاكلين من مكانها لتتفاداه لكنه قفز في الهواء ثم هوى فوقها فاستقر الخنجر في صدرها .
أطلقت سوسن صرخة لكن الفتاة سقطت أرضًا دون حراك .
لأول مرة يخطئ خنجره، خنجره الذي استقر في صدر ليلة السمراء .
صرخت زينب وسقطت أرضًا بجانبها .
- "ليلة، لأ يا بنتي لأ" .
ابتسمت ليلة كعادتها، حتى وهي ملقاة أرضًا، حتى وهي تسيل منها الدماء، تبتسم بالرغم من الخنجر المستقر في صدرها، تبتسم وهي ترى شبح الموت مقبلًا عليها يرفرف بأجنحته البيضاء .
صرخت جاكلين وصرخت زينب وأخذت تردد بصوت يملؤه الألم:
- "لأ يا ليلة بلاش انتي، عشان خاطري يا بنتي بلاش انتي، أنا بعدت عن كل حاجة عشانك وعشان أحميكي .
معنديش حاجة غيرك أخسرها يا بنتي" .
امتزج صوتها بالدموع وتلطخت يداها بدم ابنتها فضمتها في حضنها وقالت ببكاء:
- "مليش حبايب غيرك يا ليلة اوعي تمشي وتسيبيني يا بنتي، قومي معايا نرجع

دارنا تاني نغني زي زمان .
قومي واضحكي لي تاني يا بنتي، قومي متحرقيش قلب أمك عليكي يا ليلة" .
كانت تبكي وتصرخ وتحرك ابنتها الساكنة بين يديها وتتسع من حولها بقعة الدماء لكن بلا فائدة .
سكنت ليلة، سكنت ضحكتها العالية وصوت مزاحها، سكنت ألحانها التي كانت ترن بين جبال الصحراء، سكنت رنات خلخالها الذي عشقته الرمال، سكنت ليلة التي لم تسكن ليلة واحدة .
غطت الدماء وشم كتفها وغطت دموع والدتها وجهها الذي لم يكف يومًا عن التبسم، غابت الشمس بغياب ضحكتها .
اليوم رحلت ضحكة الجنوب وبسمته، رحلت آخذة معها روح والدتها وحياتها، إن كانت زينب قد وهبت ابنتها الحياة فها هي ابنتها تأخذ حياة زينب وترحل وتترك لها الحسرة مستقرة في قلبها كالخنجر الذي استقر في قلب ابنتها .
احتضنت زينب جسد ابنتها الذي سكن بلا حراك، أما ليلة فكانت روحها تحتضن الموت، كانت روحها تقف بجانب والدتها وتبكي دون صوت .
الأم تبكي ابنتها المقتولة والابنة تبكي لحسرة والدتها، وقفت روح الفتاة تغني أغنية بالنيابة عن والدتها لآخر مرة .
- "ارحل بعيد يا موت بعيد عن الناس والبيوت،
لسه الحياة يا دوب بتدب في عروق مولودي،
ارحل بعيد يا موت وابقى لي يا ولدي،
لمين إذا ترحل تفوتني أعيش" .
رددت زينب الصراخ والبكاء فاقتربت منها سوسن باكية وربتت على كتفها وقالت بخجل:
- "إهدي يا زينب متعمليش في نفسك كدا" .
أزاحت زينب يد سوسن من فوق كتفها وقالت صارخة:
- "سيبيني يا سوسن، ابنك قتل بنتي يا سوسن،
لأ، ابني قتل بنتي يا سوسن" .

قالتها زينب وكررتها أكثر من مرة فازداد معها بكاء سوسن، وقال عمار الذي وقف خائفًا بجانب علي:

- "انتي بتقولي إيه يا ست انتي؟"

- "بقول الحقيقة اللي محدش يعرفها" .

أخذت زينب تتحدث وبكاءها لم يفارق صوتها، كانت تحكي وهي تعود بالذاكرة لثلاثين عامًا حين كان الرقص مباح في الجنوب ولم تكن المقاطعة قد عقدت بعد كانت زينب فتاة في الثامنة عشر ترقص كل ليلة أمام جمهورها، الذي يأتي إليها من كل مكان ومن بينهم الشوام، كان يذهب إليها كل ليلة ليشاهدها حتى عشقها وذاب في بشرتها السمراء وفي رنة خلخال قدمها، أما هي ولأول مرة شعرت هي الأخرى أنها متعلقة بخصلات شعره الناعمة وبشرته البيضاء .

مرت شهور عليهم بهذا الحال، كل يوم ترقص زينب وتغني أمام جمهورها وقلبها معه حتى عرض الشوام عليها بأن يتزوجا سرًا دون علم أخيها أيوب، ولأنها جنوبية وهو شمالي لم يكن هناك حل غير الزواج سرًا .

وافقته زينب وتزوجا وكانا يتقابلان في منزل خشبي صغير في الصحراء على حدود الجنوب حتى حدث ما كانا يخشيانه، لم يعد الأمر مقتصرًا على زواج ضد العادات بل أصبحت زينب تحمل في بطنها طفلًا جمع بين دماء الشمال والجنوب معًا .

حاولت زينب أن تخفي الأمر لكن إحدى الخادمات علمت بالأمر، وتتبعت زينب حتى منزل الصحراء وعلمت بأنها متزوجة من الشوام، فأرسلت رسالة إلى أيوب أوضحت له فيها كل شيء، جن جنون أيوب وشعر بالغضب يدب في أوصاله فذهب إلى زينب وسألها عما في الرسالة فلم تنكر .

كيف تنكر وهي في آخر شهور الحمل وترتدي ملابس فضفاضة ولا تخرج من غرفتها حتى لا ينكشف أمرها .

شعر أيوب بأن أخته قد جلبت العار له ولأرض الجنوب كلها بزواجها من ابن الشمال هذا، قام أيوب بحبسها وأخبرها بأنها ستظل حبيسة حتى تموت هي ومن يكبر بداخل بطنها كل يوم لكنه نسي أنها زينب التي لا تجبر على شيء .

اكتشفت زينب طريقة للهرب وأرسلت للشوام رسالة أخبرته فيها بكل ما حدث، وطلبت منه أن يلقاها في منزلهم في اليوم التالي؛ ليهربا من إيڤانوس معًا ويعيشا بأي أرض أخرى لا يعرفهما فيها أحد ولا يفرق بينهم فيها عادات أو حروب لا ناقة لهم بها ولا جمل، وحين وصلت الرسالة للشوام قلق كثيرًا عليها وأعد نفسه للهرب معها في اليوم التالي وأنه سيترك الزعامة وسيترك سوسن التي كانت خطيبته آن ذاك .

هربت زينب قبل الموعد الذي أخبرت به الشوام بليلة، وذهبت لمنزل الصحراء وهناك شعرت بآلام الولادة .

أخذت تصرخ وتتألم وتتمنى لو أن أحدًا ينقذها، لكن من أتى إليها كان آخر شخصًا تمنته، اقتحم أيوب شقيقها المنزل فوجدها تصارع الموت، أخذت تترجاه أن يتركها تلد ثم يفعل بها ما تشاء، فرق قلبه قليلًا وذهب ثم عاد ومعه الحكيمة فخر التي ساعدت زينب في ولادة طفلتها، التي أسمتها ليلة حين أخبرها أيوب أنها ستكون آخر ليلة لها بهذا المنزل لكن ما قاله الشوام وفخر لزينب كان نصف الحقيقة، فبعد أن قضت ليلتها في منزل الصحراء عادت مرة أخرى لمنزل أيوب الذي أمر بإحراق منزل الصحراء هذا، ثم أخبرها أنها لم تضع مولودة واحدة بل وضعت ولدًا وبنتًا وقد أخذ أيوب الولد واستدعى الشوام في اليوم السابق وأعطاه الرضيع، وأخبره أن هذا التوأم سيكون سببًا لوقف الحرب إذا عاشت الطفلة في الجنوب وعاش الطفل في الشمال، لأن بالطبع الشوام لن يحارب أرضًا تحيا فيها ابنته ثم أمره بالرحيل، وأن ينسى أمر زينب، وإذا حاول أن يراها مرةً أخرى أو رفض أخذ الطفل فسوف يذيع الخبر في الشمال ليعلم أهل الشمال أن زعيمهم تزوج من راقصة جنوبية .

اعترضت زينب على ما فعله أيوب، لكنه أخبرها أن هذا هو تكفيرًا لخطيئتها وثمنًا لحياة ابنتها وما هي إلا أيام ومنع الرقص في الجنوب، وعقدت المقاطعة بين الشمال والجنوب .

أما الشوام فقد أخبر سوسن بكل شيء ثم تزوجا وأصبحت هي أمًا لابن زينب وأسمته عمار .

توقفت زينب للحظات حين كانت تحكي لهم ما لا يعرفونه ثم أكملت:
- "وبقيت أنت شمالي وابن سوسن وعاشت ليلة في الجنوب لكن انتو الاتنين ولادي لحد ما جه اليوم اللي شوفتك فيه بتقتل أختك" .
تهدجت أنفاس عمار وقال بصوتٍ متقطع:
- "انتي كدابة، أنت فاكرة إني هصدق الحكاية دي" .
بكت زينب أكثر وقالت:
- "يا ريتني كنت كدابة، يا ريتني ما خلفتك ولا عرفت إنك ابني أنت فعلا خطيئة" .
جلست زينب بجانب ليلة الهامدة مرة أخرى واحتضنتها وأخذت تبكي فاقتربت سوسن من عمار وقالت له:
- "أنت ابن زينب، أنت قتلت أختك يا عمار وهتعيش طول عمرك بذنبها" .
ما هذا اليوم!
في يوم واحد احترقت الصحراء والجنوب، اكتشفت جاكلين خيانة الشخص الوحيد الذي آمنت له، قتلت ليلة وذهبت معها بهجة الجنوب وضحكته، واستقرت الحسرة في قلب زينب التي فضحت أسرار الماضي أمام الجميع، قالت كل شيء بقلب ينفطر على ابنتها التي تناثرت دماؤها فوق الرمال واستقر في صدرها خنجرًا من أخيها .
أخوها الذي اكتشف لتوه أنه كان يحيا مع أم ليست أمه، وأن من جلبته للدنيا هي راقصة جنوبية كانت ستضحي بحياتها من أجل ولادته .
ما هذا اليوم! تأكد من أن كل من في هذه الأرض مر عليه هذا اليوم وكأن شاحنة قد مرت فوق قلبه، منهم من شعر بالخذلان، ومنهم من شعر بالظلم، ومنهم من شعر بالحسرة، ومنهم من شعر بالصدمة من أثر أسرار الماضي، ومنهم من فقد الشعور بكل شيء بل فقد الحياة بأكملها .
هكذا نحن البشر، لا يمر علينا يوم كسابقه، في كل يوم يمر علينا تتغير الحياة في أنظارنا، وهناك أيام تمر علينا كالسنوات ونرى فيها ما يجعلنا نضيف أعمارًا إلى أعمارنا .

ونحن هنا في إيڤانوس،
لا تتعجب فالقادم دومًا سيكون أغرب،
فنحن هنا ما بين الحقيقة والخيال .

٧- انـهيار

الانهيار، أن يتساقط كل شيء من حولك بل يتساقط كل شيء بداخلك، أن ترى كل شيء ينهار، كل أحلامك وآمالك، كل ما أعددته ورتبت له .
تنهار عاداتك وأفكارك، تتساقط قيمك أمامك وتتساقط وجهة نظرك في كل من حولك، فتكتشف أنك في هذه الدنيا ليس إلا غريب لا يعلم ما حوله ولا يعلم ما بداخله، وإن علمت ما بداخلك فلن تعلم ما بداخل من حولك .
الانهيار هو نقطة ما أسفل الصفر، هو مرحلة حاول أن لا تصل إليها، لكن إذا وصلت لها فاعلم أنك لست وحدك .
لست أول المنهارين ولن تكون آخرهم .

****

قد تراني هادئًا وقد تراني نائمًا، لكن دومًا بداخلي معارك لا يعلمها إلا الله، ولا يحارب فيها إلا أنا .

لا أعلم السر وراء فصول السنة الأربعة وتتابعهم، كيف يأتي هدوء الشتاء بعد تساقط أوراق الخريف، وكيف يأتي الربيع ببهجته بعد كآبة الشتاء، ثم يأتي من بعدهم لهيب الصيف .

كيف يتغير الحال هكذا! كيف يتحول كل شيء في أيام معدودة، وننتقل من حالة إلى حالة أخرى مناقضة لها .

إذا كنت لا أعلم كيف يحدث هذا التغير في الجو فما بالك بأحوال البشر، فما بالك بقلوب البشر .

في ما بين غروب يوم وشروق التالي تبدل الحال في صحراء إيڤانوس للنقيض تمامًا، أو دعنا نقول إنه عاد كما كان سابقًا .

بعد اعترافات زينب كان الصمت هو سيد الموقف، وأدرك الجميع أنهم ليس بوسعهم أن يبقوا معًا في مكانٍ واحد على أرض واحدة، وبدون اتفاق جمع كل منهم أغراضه واتجهت الخيولً البيضاء شمالًا واتجهت الخيول السمراء جنوبًا بعد أن قام الجنوبيون بدفن ليلة في أرض الصحراء حتى تدفن في نفس الأرض التي سالت عليها دماؤها حتى ارتوت .

أوضحت فخر بعض الأمور لجاكلين لأنها سألتها عن العلاقة بين زواج زينب والشوام والمقاطعة فأخبرتها فخر أن بعد علم أيوب بما حدث قرر أن يتخذ أمر الزواج والأطفال حجة كي يمنع الحرب؛ لأنه لم يكن قادرًا على استكمال الحرب بسبب موت الكثير من جيشه، فطلب من الشوام المقاطعة فقبلها الآخر خشية من أن يُعرف سره في الشمال ويخسر الزعامة بعد أن خسر زينب، وقبل أن يأخذ عمار لنفس السبب أيضًا ولكن حين أصابت اللعنة الأرض وأصبح لا بد من الحرب نسي الاثنان أمر (عمار وليلة) وقبلا الحرب وحذر أيوب ليلة من أن تتدخل في قرارات جاكلين أو أن تطلب منها منع الحرب، فلن تموت شعوب من أجل حياة أخ وأخت لا يعرفان بعضهما من الأساس .

وها قد عاد كل فريق لأرضه، عاد أهل الشمال إلى أرضهم فرحب بهم الشوام الذي اعتبر تدمير الجنوب هو انتصار لهم في بداية المعركة وربما لن يقدر الجنوب على خوض المعركة من الأساس فيكون هذا هو النصر النهائي، على كل حال كان الشوام سعيدًا بعودتهم، وكان هو الوحيد الذي يشعر بالسعادة في هذا المنزل، فقد كان عمار تحت تأثير صدمة أفقدته صوابه وأثقلت نطقه .

ضع نفسك مكانه للحظات، تخيل أنك أصبحت شخصًا لا يعرف نفسه، أمه التي عاشت أمامه طوال حياته ليست أمه وأنه ابن لسيدة لا يعرفها، له أخت لا يتقبل صوت أنفاسها وها هو قد كتم صوتها أسفل التراب للأبد .

سوسن كانت تعلم أن هذه اللحظة ستأتي يومًا ما، وأن عمار سيعلم كل شيء حتى وإن طال الزمان، فمرور الأيام لا ينفي أحداث الماضي مهما حدث، اعلم يا صاحب الأسرار أن خلف كل باب مغلق حكاية مجهولة ستعلم أسرارها لكن ليس الآن، وهذا ما كانت سوسن متأكدة منه طيلة عمرها وينكره الشوام؛ لذلك رفضت أن يكون عمار هو زعيم الشمال وهو ابنًا لجنوبية، جلست سوسن مع الشوام بمجرد وصولها للمنزل لتقص عليه ما حدث حتى يكون على علم بمجريات الأمور .

أما علي فقد كان هو الحصان الأسود أمام والده لكن علي لم يبال بكل هذا، لم يبال بتدمير الجنوب ولم يبال بقصة زينب مع والده بل كان أمامه سرًا آخر عليه أن يكتشفه .

أما على الناحية الأخرى من الأرض فكانت زينب لا تحدث أحدًا وكأنها شبح بلا روح، فروحها قد غادرت منذ يوم واحد حين رأت تراب الأرض حائلًا بينها وبين وحيدتها .

كانت صامتة دون أن يعلم أحد ما الذي خلف هذا الصمت، هل حزنًا على ابنتها أم حزنًا على ابنتها المقتولة وابنها القاتل معًا أم حزنًا على أنها حين اعترفت لابنها بأنها والدته كانت ابنتها جثة هامدة بين يديها، على كل حال كان الحزن يغطي ملامح وجهها وعينيها الزائغتين وقلبها المفتور، وما أن وصلوا إلى الجنوب حتى أسرعت زينب إلى دارها الذي شهد على أنغامها وأنغام ابنتها، ودلفت

إلى غرفة ابنتها ونامت فوق سريرها لعلها تشعر بوجودها حولها، لعلها تشم رائحتها بين وسائدها، نعم فقد كانت تبحث عن ابنتها في كل مكان وتأبى أن تصدق رحيلها .

لا تتعجب، يوجد بيننا من لا يقوى على الفراق وإذا فارق رغمًا عنه قضى حياته بين الذكريات .

أما جاكلين، وقفت بحصانها على مشارف الجنوب ولملمت خصلات شعرها التي كانت اعتادت على أن تطلقها في الهواء، ثم غطت رأسها ووجهها بوشاحها البني الذي هجرته فترة طويلة .

ها هي تعود ولي العهد كسابق عهدها، ها هي تعود للوشاح الذي يحجبها عن أعين الناس بعد أن ذاقت معنى الحرية، بعد أن ذاقت شعور كونها فتاة، على كل حال التغير الذي حدث لها لم يجلب لها سوى الألم والخيانة والخراب، فعليها أن تعود مرة أخرى كما كانت سواء بإرادتها أو رغامًا عنها .

لكن العودة لم تكن تشبه الرحيل أبدًا، دلفت جاكلين إلى الجنوب فوق حصانها ومن جانبها خالد وأخذا يسيران في الأرض التي سادها الخراب، كان الرماد الأسود يغطي الطرقات وعلى الجانبين منازل مدمرة كانت تسكنها أهالي الجنوب ولم تعد، رأت جاكلين الدمار الذي ساد أرضها بسبب غبائها وثقتها في هذا الخائن وشعرت بأنها تخلت عن عقيدتها التي تربت عليها وها هي النتيجة .

عادت جاكلين إلى منزلها وكانت روحها تنهار كانهيار منازل أهل الجنوب وقلبها يحترق كاحتراق الأرض، حتى وصلت لغرفتها في منزل أيوب الذي طاله جزء من الدمار الذي طال الجنوب، دلفت إلى غرفتها وأغلقت الباب من خلفها ثم جلست فوق سريرها وحيدة كعادتها .

كانت دومًا تنفرد بنفسها حين تشعر بالعجز، لم تكن تحب أن تظهر أمام الجميع مظهر الفتاة الضعيفة فكانت تفضل الوحدة وها هي لجأت لوحدتها وأخذت تفكر .

- "يكفيني أنني لم أؤذي أحدًا" .

حين أشعر بالعجز أنفرد بنفسي حتى لا أضر أحدًا، لا يشرب أحد من كؤوس

حزني إلا أنا، لا يستمع لألحان قلبي الحزينة إلا أذناي، ولا يشتم رائحة تآكل أعصابي إلا أنا .
يكفيني أنني أتحمل نتيجة صراعاتي الداخلية بمفردي، حتى حين تشب بداخلي النيران لا تحرق أحدًا سواي .
فأنين قلبي أنا به أحق ونيراني أنا بها أولى .
اقتحم سكوتها التفاف مقبض الباب ودخول أيوب وخالد معًا إلى غرفتها فتابعتهم جاكلين بنظرة مترقبة حتى جلسا أمامها وكان هذا أول لقاء بينها وبين والدها بعد عودتها، فقال أيوب بنفاد صبر:
- "أنا عايز تفسير" .
أخذت جاكلين شهيقًا لتستعد لما ستقوله على الرغم من صعوبته:
- "معنديش تفسير غير إنني للأسف ولأول مرة فشلت يا زعيم" .
تنهد أيوب وقال بهدوء لا يتلاءم مع الموقف:
- "خالد شرح لي كل حاجة وأنت مقصرتيش يا بنتي، أنا اللي غلطت" .
تعجبت جاكلين من جملة والدها وقالت:
- "إزاي؟!"
- "أنا اللي حملتك فوق طاقتك من زمان ونسيت إنك لسه صغيرة، أنا آسف يا بنتي" .
دبت في عينيها نظرة قوة وتحد وقالت بإصرار:
- "لأ يا زعيم أنا قدها وهتحمل نتيجة خطئي، التار زاد أوي، الشوام قتل أمي وقتل أم خالد وعمار قتل ليلة وعلي استغفلني، ودلوقتي جه وقت الحساب" .
ضيق أيوب عينيه ونظر لها بشكٍ وقال:
- "انتي ناوية على إيه؟"
- "ناوية أخليهم يدفعوا التمن وأخد تار اللي ماتوا يا زعيم، الحكيمة فخر قالت إن يوم المطر هيبين مين المنتصر ولحد ما اليوم دا ييجي لازم نستعد كويس أوي، لازم الجنوب يقوم تاني وبسرعة عشان ناخد حقنا" .
- "واليوم دا هيجي إمتى!"

- "لما النصيب يأذن يا زعيم لكن وحق اللي ماتوا ما هسيب حد في أرض الشمال ينام مرتاح" .
نظر خالد للإصرار الذي اعتاده في عينيها وهو يعلم أنها حين تقول ستفعل وحين تضع أمرًا برأسها لن تخرجه حتى تخرج روحها من صدرها فقال لها:
- "وأنا معاكي يا جاكلين ومتأكد أن اليوم دا قرب أوي،
أنا مستنيه من زمان" .
أنهت جاكلين حديثها معهما لكن تفكيرها لم ينته، أخذت تفكر كيف سترد الضربة وكيف ستأخذ حقها من عرين الأسد الذي جعلها تثق به ورسم لها أحلامًا وردية عن وحدة الأرض والزواج والمستقبل ثم أفاقت على حاضر مظلم مغطى بالرماد .
قررت جاكلين أنها ستستعيد كل شيء مجددًا وأنها لن تهزم فإذا كانت قد خسرت معركة فلن تخسر باقي الحرب، حتى وإن كانت حرب ضد ابن عمتها، ضد أبناء إيڤانوس، حرب ضد قلبها .
نعم حرب ضد قلبها الذي عصاها وخرج عن طوعها وسارت خلفه لأول مرة وكانت النتيجة أنها خسرت كل شيء، لكنها لن تسمح له بأن يقودها مرة ثانية، قررت أنها ستبذل قصارى جهدها لإنقاذ واستعادة الجنوب وستترك الحزن لوقتٍ آخر .
فشعورك بالحزن وأنت قوي أفضل بكثير من شعورك بالحزن والضعف معًا، فالضعف يا صديقي يجعل كل شيء أسوأ لذلك قررت أن تؤجل حزنها لحين استعادة قوتها .

النصيب هو إجابة لكل سؤال مبدوء بـ(لماذا) ولا نعلم له إجابة .

تذكر يا هذا، إذا طالك الأذى في يوم، فاعلم أن الله يذكرك بهذا الدين الذي لم تسدده بعد .

فما طالك العقاب إلا ليعلم أحدهم أن شكواه كانت تصل إلى الله في كل ليلة، وحان وقت رد الحق فاحذر يومًا ستدفع فيه ثمن ذنب اقترفته، تلك هي عدالة السماء التي اقتنع بها الشوام حين علم أن ابنته قتلت على يد ابنه، ابنته التي لم يرها يومًا ولا يعلم ملامحها قتلت على يد ابنه بسبب مبادئه التي غرسها فيه منذ الصغر، لا يعلم لماذا شعر بالحزن لأمر ليلة، فعلى الرغم من أنه لم يفكر فيها سابقًا أو في كيف تعيش لكنه كان يعلم أنها تلتقط أنفاسها على هذه الأرض .

والآن قد علم أن شعوره بالذنب هذا هو ثمن الإثم الذي ارتكبه في شبابه، لكن هذا الشعور لن يدم طويلًا، فالشوام لا يهتم بشيء ولا يبالي حتى وإن رق قلبه للحظات، فإنه سيعود إلى جموده سريعًا فإن كل ما يشغله الآن هو انتصار ابنه على الجنوبيين، حتى وإن كان عن طريق الرحالة حتى وإن كان عن طريق ابن ماجن .

فقد كان الشوام على أتم استعداد لأن يتحالف مع الشيطان ذاته كي يهزم أيوب .

أما علي، فقد كان يجلس وحيدًا منذ أن عاد إلى الشمال، كان يفكر في كل شيء في حياته السابقة وفي الفترة الأخيرة التي ذاق فيها معنى الاعتماد على النفس والسعادة معًا، وفكر أيضًا فيما توصل إليه الآن وهل كان كل ذلك بإرادته أم رغمًا عنه، هل هو حر أم مجبر .

كانت الأفكار تتخبط في رأسه والأسئلة تدق أبواب عقله كناقوس يدق في عالم النسيان .

كان يريد أن يصرخ، أن يبكي، أن يركض حتى تحترق أنفاسه، أن تشق الأرض

وتبتلعه حتى لا يشعر بما يشعر به الآن، شعر علي أن رأسه تعتصر من الألم وأن هناك شيء يدق فوقها .

بعد لحظات أدرك أن لا شيء يدق فوق رأسه، بل أن هناك دقات متقطعة على نافذة غرفته، أنصت علي فتأكد أن هناك شيء ما خلف نافذته الخشبية، فأخذ يراقبه في حذر حتى تحركت النافذة وظهر ظل من خلفها والغريب أن علي لم يتخذ أي رد فعل، فما رآه في أيامه الماضية جعله على يقين أنه لن يحدث له شيء أسوأ مما حدث؛ لذا ترك كل شيء يسير دون أن يتدخل .

راقب علي هذا الظل وهو يحاول أن يفتح نافذته ثم أدخل إحدى قدميه إلى داخل الغرفة ثم تبعها بقية جسده الصغير، فوجد علي أن الشبح الذي اقتحم غرفته هو آخر من توقع، هو (عدنان) فتى فخر الأخرس الصغير، ظهرت علامات التعجب على وجه (علي) وشعر أن هناك خطر ما جعل عدنان يتسلل إلى غرفته ليلًا، هب علي من مكانه وسأل بقلق قائلًا:

- "في إيه وإيه اللي جابك هنا؟"

شعر علي بأنه تصرف بغباء حين وجه سؤاله إلى عدنان ونسي أنه غير قادر على النطق أو الإجابة وبالتأكيد جاء بورقة مكتوبة أو رسالة من فخر .

كان حال علي الآن مشابهًا لحال عدنان، لا يستطيع الحديث، لا يستطيع أن ينطق، يشعر باحتراق صدره ولا يستطيع أن يتألم أو يشكو، هكذا نحن لن ندرك مدى معاناة البشر إلا حين نصبح في موضعهم .

كان الألم يظهر على وجه عدنان وكأنه يقاوم شيئًا ما أو يبذل مجهودًا من أجل شيءٍ ما، رأى علي أنه يضيع لحظات من عمره دون فائدة أمام هذا الفتى فسأله بملل:

- "فين الرسالة اللي معاك؟"

أغمض عدنان عينيه في حين تصبب جبينه عرقًا ثم حرك شفتيه:

- "ر . . . ر . . . رسالتك عندي أنا" .

غطى الذهول على ملامح علي واتسعت حدقتاه وقال بدهشة:

- "أنت بتتكلم؟"

حرك عدنان شفتيه بصعوبة أيضًا وقال بتلعثم:
- "أ . . أول مرة أتكلم من سنين" .
- "أنا مش فاهم أي حاجة" .
- "مش كل . . . . . حاجة هتقدر تفهمها" .
قالها عدنان متأثرًا فشعر علي بتخبط الأفكار في رأسه مجددًا فقال بضيق صدر:
- "أرجوك فهمي أنا تعبت من الألغاز" .
أومأ عدنان برأسه ثم استجمع قواه، وقال بتلعثم مجاهدًا تعلق الحروف على لسانه:
- "أنا مليش أهل . . . أو يمكن ليا أهل ومعرفهمش،
الست فخر لقتني بموت في الصحرا وأنا عندي شهور، كنت مرمي لوحدي، يمكن كنت مخطوف أو أهلي هم اللي رموني معرفش" .
كان علي ينصت إليه ويدقق السمع فقال له كي يستكمل:
- "وبعدين؟"
- "أخدتني وربتني عندها، لحد ما بقى عندي أربع سنين وبقيت بسألها عن كل حاجة، وعايز أفهم هي بتعمل إيه، وفي يوم فخر قالت لي أني كبرت ومبقاش ينفع أعيش معاها وأعرف أسرارها إلا في حالة واحدة" .
ابتلع عدنان ريقه واستجمع قواه وذاكرته وقال:
- "عملت معايا اتفاق إني أعيش معاها، وأشوف كل اللي هي بتشوفه وأعرف أسرارها، مقابل حاجة واحدة بس وهي إني أفقد القدرة على الكلام وأكون أخرس، أشوف ومتكلمش عشان تضمن إني مخرجش سرها برا" .
- "وأنت قبلت؟"
- "كنت طفل مش فاهم حاجة، ومعرفش غير فخر ومليش أهل، دا غير إني كان عندي رغبة أشوف كل اللي بيحصل حواليا، وأعرف كل اللي فخر بتعرفه ووافقت على شرطها وعملنا اتفاق .
سحبت مني صوتي ووعدتني أكون معاها دايمًا لكن أخرس، ولو في يوم حبيت أنقض الاتفاق واسترد صوتي هقدر اعمل كدا من غير حتى ما أطلب منها لكن

بشرط، إني أسيب إيڤانوس قبل ما يطلع عليا الفجر وتكون الأرض دي محرمة عليا للأبد» .

إلى متى؟ إلى متى ستظل تشعر بأنك مجرد ورقة شجر هائمة في مهب الرياح أمام أسرار هذه الأرض التي لا تنتهي؟ إلى متى ستكتشف سرًا جديدًا كل يوم يجعلك تقف أمامه عاجزًا عن النطق .

إلى متى يا إيڤانوس!

- «لو مكنتش سامعك بتتكلم بنفسي عمري ما كنت هصدق حكاية زي دي، وإيه اللي خلاك تخلف اتفاقك النهاردة وتتكلم وإيه اللي جابك عندي؟»

نظر له عدنان بهدوء ثم فكر لحظات كي يتأكد من ما سيقوله ثم حسم قراره وقال:

- «عشان لأول مرة استخدم كرة فخر من غير علمها، وشفت فيها اللي خلاني مش قادر أسكت تاني يا علي» .

تسارعت ضربات قلب علي وسأل بلهجة مسرعة:

- «شفت إيه؟»

- «شفت الخيانة والغدر، شفت سمر وهي بتنقل الكلام للشوام عشان يبعت لك رسالة يخيرك فيها بين الزعامة أو الحرب،

شفت حبك لجاكلين اللي أنت بقيت خاين في نظرها» .

- «أنا معملتش حا . . . .» .

قاطعة عدنان مستكملًا:

- «أنا شفت عمار أخوك بيحط لك منوم في الأكل عشان يقدر يدخل أوضتك من غير ما تصحى .

أخوك سرق خطة الجنوب وأنت نايم، وبعتها للرحالة عشان يدمرهم ويوقف فكرة توحيد الأرض، أخوك اتفق مع الرحالة على حرايق الصحرا والجنوب وبعت لهم رسالة باسمك فيها كل اللي حصل وعليها الختم بتاعك .

أخوك باعك يا علي» .

شعر علي بأن الأرض تميد تحت قدميه من أثر كلمات عدنان، شعر بأن كل شيء

يتهاوى من حوله حتى ثقته في أقرب الناس إلى قلبه، حتى ثقته في من تجري في عروقهما نفس الدماء .

لم يستطع علي أن يكذب عدنان حيث كان هذا هو التفسير المنطقي الوحيد لما حدث، ولما قاله ابن ماجن يوم الحريقة عن اتفاقهم مع علي، كان هذا هو التفسير المنطقي الذي تمنى علي أن يكون كذبًا لكنه للأسف حقيقي .

كثيرًا نتمنى لو أننا نعلم الحقيقة وحين نعلمها نتمنى لو أنها كانت كذبًا، نتمنى أن نظل في جهلنا على أن نعلم حقيقة تجرحنا وتضعنا أمام الواقع الذي حاولنا الهرب منه .

- "اعرف مين معاك ومين ضدك يا علي واحذر من الخاين، احذر من خيانة القريب منك أكثر من خيانة عدوك" .

لم يستطع علي أن يخرج الكلمات من حنجرته، فقد كان الموقف أكبر من قدرته على الاحتمال فرأى عدنان أنه قد أتم مهمته ولا داع لوجوده الآن، فاستدار واتجه نحو النافذة مرةً أخرى فاستوقفه صوت علي مستفهمًا:

- "رايح فين؟"

- "أنا خلاص ريحت ضميري وقلت لك اللي عندي ودلوقتي لازم أكمل اتفاقي مع فخر، مينفعش الفجر يطلع عليا وأنا هنا" .

- "هتهرب من الأرض يا عدنان؟"

- "مفيش حد بيهرب من قدره وأنا أكيد ليا قدر في مكان تاني،
خلي بالك يا علي، إيڤانوس هتشهد فترة صعبة" .

- "أنت عارف حاجة؟"

- "عارف إن المكتوب هتشوفوه" .

قالها عدنان ثم انصرف من النافذة من حيث أتى، انصرف بعد أن دفع حياته الآمنة مع فخر ثمنًا لراحة ضميره، رحل يشق طريقه في أرضٍ أخرى ليس لها شأن بما يعلمه عن إيڤانوس .

كان عدنان قد علم أكثر من اللازم ولم يعد يتحمل .

عرفت الآن السر خلف أننا لا نرى إلا المكتوب لنا، فبعض الأمور الجهل بها

راحة، وها هو قرر أن يشتري راحته وترك خلفه زعيم صغير يشعر بالخذلان والاضطراب، زعيم يشعر أنه كان يضع أسس حكمه على أرضٍ رخوة لا تصلح للبناء .

من قال أن الجهل بالأشياء نقمة! فهناك بعض الأشياء معرفتها ستحول حياتك لجحيم فلا تستطيع أن تحيا من بعدها ولا تستطيع أن تنساها .

وما دمت في إيڤانوس فكل حبة رمال تشهد على الأسرار .

لا تتعجب، فالقادم دومًا سيكون أغرب .

كيف أحافظ على استقامتي وألف يد تجذبني للسقوط؟
وكيف أشيد مدينتي على أرضٍ غير مستوية لا تقبل بوجودي؟

أنت مجرد جزء من نظام يسير ولا يعبأ بأمرك، أنت جزء من هذه الأرض التي يشاركك فيها الملايين غيرك، لن تتوقف الأرض عن دورانها حزنًا على حالك ولن تسقط الأمطار لتشاركك البكاء بل ستقف الحياة أمامك أنت وستستمر للباقين، لن تتوقف الشمس عن شروقها ولن تكف عن الغروب بل ستستمر الحياة في سيرها ولن تتنبه لتعثرك في الطريق .

وها هي الحياة استمرت بالرغم من كل ما حدث على أرض إيڤانوس، في فترة قصيرة قرابة الشهر كانت جاكلين قد أعادت تجهيز كل ما تم فقدانه على أرض الجنوب، كانت لها قدرة فائقة على الوقوف بعد التعثر والحياة بعد الموت، استطاعت في أقل من شهر إصلاح حال الأرض التي غطاها الرماد، أعادت للشعب ثقته بنفسه وأقنعتهم أنها مجرد كبوة وستمر وستعود الأرض السمراء لعزها مرة أخرى، أعادت تأهيل الجيش وجددت خطة الدفاع التي اخترقها الرحالة واستغلت غضب أهل الجنوب وحولته إلى حماس جعلهم يعيدون بناء أرضهم مرة أخرى .

كانت لها قدرة فائقة في إيجاد الحلول البديلة، كانت تمنحهم الحياة وهي التي تتمنى لو أن يمسك أحدهم بيدها ويخبرها أن كل شيء سيكون بخير، كانت تطمئنهم وهي التي تشعر بالخوف يركض في أوصالها، هي التي انطفأ ضوء الحياة بعينيها وبالرغم من ذلك منحت الحياة لأرض الجنوب فأشرقت شمسه مجددًا بعد غروب دام قرابة الشهر .

أما على الناحية الأخرى من الأرض فكان الوضع مريبًا إلى حد ما، كان علي يتجنب التعامل مع عمار وكان عمار يتجنب التعامل مع الجميع وبدون أسباب اختفت سمر تمامًا، لم يعلم أحد شيئًا عنها منذ عودتهم للأرض والحقيقة لم يسأل أحدٌ عن وجودها، فقد كان كل منهم له ما يشغله، كان علي يفكر في خطوته التالية دون أن يواجه عمار، وكان عمار يفكر في كيف سيحصل على كل

ما فقده مرة أخرى .
لم يكن هادئًا كما يبدو بل كان عقله لا يكف عن التفكير حين علم بتحسن أحوال الجنوب وعن إعادة تأهيل الجيش فرأى أن عليه أن يتخذ أي ردة فعل قبل أن تعود للجنوب قوته الكاملة مرة أخرى، وها هو قد توصل لما سيفعله غير مهتم برأي أحد، فبعد أن أكتشف أسرار الماضي أصبح ناقمًا على الجميع وأخذ يفكر بمبدأ (أنا و من بعدي الطوفان) .
لا تستهن به، فعمار قد ورث إصرار الشوام مع دهاء زينب ومن المؤكد أن هذا هو سبب منع الزواج بين الشمال والجنوب لأن الناتج سيكون من أمثال عمار .
قرر عمار أنه سينتقم بطريقته التي لم يتوصل إليها أحد حتى الآن، لكنه سيقف بعيدًا ولن يقترب سيخوض الحرب دون أن يستخدم سيفه، سيقيم الحرائق دون أن يمسك بشعلة النيران، ستظل يده نظيفة من الدماء حتى وإن ارتكب آلاف الخطايا .
لذا اجتمع عمار ببعض رجال جيشه الذين يكنون الولاء له وعلى استعداد لفعل أي شيء مقابل المال وهذا كل ما كان يحتاجه، من ينفذ دون أن يسأل عن الأسباب .
اجتمع بهم عمار ليخبرهم بمهمتهم الجديدة .
ألم تكفي عن الاحتفاظ بالأسرار يا إيڤانوس؟
ففي كل زمان ومكان، حتى وإن كانت الأرض طاهرة لن تكف عن ولادة الشياطين الذين يسعون للخراب .

٨- الثورة

يومًا ما ستجد أن ما بداخلك هو ما يدفعك للأمام .
مشاعرك، حبك، كرهك، غضبك، خوفك، حتى جنونك هم من يحركونك، ستجد أن كل ما بداخلك غير راضٍ عن ما حولك ويدفعك للثورة .
لمرة واحدة أنصت لهذا الصوت الذي بداخلك واستجب لهذا النداء الذي في صدرك وقم بالثورة .
الثورة على كل ما حولك وترغب في تغييره، الثورة على عقلك الذي يكرر نفس أخطائه، الثورة على نفسك التي دائمًا تعصي أوامرك، الثورة على قلبك الذي يسير على هواه،
استجب مرة واحدة وقم بالثورة واصرخ لعل صراخك يهدئ هذه الضوضاء التي حولك .
فالثورة يا صديقي ستعيد الهدوء لنفسك الحائرة .

****

تململت الزوجة في نومتها حين شعرت بهذا الألم في ظهرها وأسفل بطنها؛ فاستيقظت من نومها في فزع ووضعت يدها على انتفاخ بطنها فأدركت أن صغيرها يتحرك بداخله، تأوهت الزوجة بسبب حركات صغيرها الذي لم تره بعد فاستيقظ زوجها على أثر صوتها وقال بصوت غلبه النعاس:

- "صحيتي ليه؟"

أغمضت عينيها من الألم وقالت بوهن:

- "البيبي بيتحرك جامد اوي" .

ابتسم الزوج بحنان وقال وكأنه يداعب طفله الصغير الذي ما زال بداخل والدته قائلًا:

- "اهدى يا استاذ شويه ماما مش عارفه تنام، وبعدين لسه بدري دي لسه في الشهر التامن" .

ثم أدار وجهه نحوها قائلًا:

- "معلش حاولي تنامي عشان ترتاحي شوية" .

أومأت برأسها وأغمضت عينيها على الرغم من هذا الألم الذي يعتصرها، لماذا الحركة الآن يا صغيري؟ لماذا تتعجل الخروج لهذه الدنيا؟ ليتك تعلم أنك بمأمن ما دمت بداخلي، ليتك تعلم أن هذه ليست الدنيا التي عليك أن تقوم بالثورة لتخرج إليها .

على كل حال انتظر قليلا فقد اقترب موعد خروجك .

اقترب جدًا لكنه الصبر .

والآن فلننم قليلًا أرجوك .

****

هل حاولت يومًا إخراج ذرات الملح الذائبة في المياه؟ لو قضيت عمرك كله ومن فوقه أربعة أعمار أخرى لن تستطيع التمييز بينهم، لذلك لم يستطع أحد

أن يكتشف أمر جنود عمار الذين طلوا أنفسهم باللون الأسمر، وتسللوا بين أهل الجنوب يشعلون شرارة الثورة في نفوسهم ويخبرونهم بأن ولي العهد الذي يسير أمورهم ما هو إلا فتاة وأنها هي من كشفت الخطة أمام الفريق الشمالي حتى وصلت للرحالة، ساروا بين الصفوف وجلسوا في المجالس وحدثوا الناس يخبرونهم بأن ولي عهدهم فتاة خائنة باعت أسرار الوطن وفرطت في أرضه، أنها لم تنقذهم من اللعنة بعدم وصولها لحل مع الشمال ولم تنقذهم من الرحالة بل أنها سلمت لهم رقبة شعبها على طبق من ذهب، أقنعوهم بأن قارب النجاة الذي ظن الشعب أنه سينقذهم قامت بإغراقهم في بحرٍ مالح ليس له شاطئ .
وكالعادة كان الشعب يستمع لكل من يتحدث ويأخذ كلماته على أنها منزلة من السماء يجب تصديقها، وخاصة في هذا الوقت كان الشعب على استعداد لأن يصدق كل ما يقال له فتوغلت آراء جنود عمار في عروقهم وفارت الدماء في رؤوسهم، وقد كان هذا هو المطلوب أن يشك الشعب في قائده وها قد شك، وها قد تم لعمار ما أراد، فانسحب جنوده من الجنوب تاركين الشعب الأسمر لينفذ باقي الخطة وبالفعل عم الغضب والقلق كل أركان الجنوب وأخذوا يتناقلون الكلمات بينهم حتى فاض بهم الكيل وثاروا على كل شيء .
تجمهر الشعب في الساحة الفارغة أمام منزل أيوب مكررين هتافاتٍ غاضبة جعلت جاكلين تتنهد بداخل المنزل ثم نظرت لوالدها ولخالد وقالت:
- "كفاية هروب، لازم نواجه" .
خرجت جاكلين للساحة ومن خلفها أيوب وخالد فهدأت الضوضاء إلا من بعض الهمهمات الخافتة وقبل أن تنبث جاكلين بكلمة وضعت يدها على وجهها وخلعت وشاحها وقالت:
- "آه، ولي العهد بنت، ابن الزعيم بنت" .
اتسعت أعين الواقفين وسارت بينهم علامات التعجب وارتفع صوتهم، فقالت جاكلين بصوت عالٍ وواثق:
- "فرقت في إيه أنا ولد ولا بنت؟"
- "دا خروج عن تقاليدنا وعار لينا" .

قالها أحد الواقفين فقالت جاكلين دون أن تنظر إليه:
- "التقاليد احنا اللي بنختارها مش هي اللي بتختارنا، وأنا قدامكوا ضيعت سنين عمري عشان مصلحة الأرض دي ودا بشهادتكوا كلكوا .
نسيتوا كل دا أول ما عرفتوا إني بنت؟ عمري ما ظلمت حد ولا كسفت محتاج، خلال عهدي في حد اعتدى على أرضكوا؟ في حد ظلمكوا؟ في حد نام جعان؟"
كانت ترفع صوتها بانفعال أمام الجموع الواقفة أمامها وهي تقول:
- "أمي ماتت فدا أبويا، لو قامت حرب هحارب زيي زي الولد، هنتصر أو هتقتل وفي الحالتين هكون راجل .
الرجولة صفة مش نوع وأنا أثبت للأرض دي بدل المرة ألف إني عندي رجولة وهدافع عنها سواء كنت ولد أو بنت .
حد ليه رأي تاني؟"
كانت على حق فلم يستطع أحد إنكار ما قدمته للجنوب على مدار حياتها من عطاء وتضحية فجاء صوت آخر من بين الصفوف قائلًا:
- "والخطة اللي اتكشفت؟"
- "كانت غلطة" .
- "الغلط مش مسموح للزعماء" .
جاء الرد الذي توقعته جاكلين فوضعت يديها خلف ظهرها وقالت رافعة عنقها:
- "غلطة وهدفع ثمنها، هدفع الثمن وهاخد تار كل حد مات غدر" .
رفع أحد الحاضرين صوته وقال:
- "انتي موصلتيش لحل مع الشماليين وكدا اللعنة هترجع تاني، انتي خذلتي الشعب" .
كانت الكلمة كالسهم الذي أصاب قلبها فقد كان شعورها بالذنب يفوق قدرتها على التحمل، ولن تتحمل عبارات لوم أيضًا لتذكرها بأنها فشلت في حماية أرضها، ارتفعت الأصوات بعبارة على شاكلة (انتي مش قد المسؤولية)، (احنا كنا واثقين فيكي)، (اللعنة بدأت ترجع وهنموت من الجوع) .
رفعت جاكلين عنقها ورفعت معه صوتها وقالت:

- "أنا عندي الحل" .
نظر لها الشعب بأكمله ونظر لها خالد وأيوب أيضًا اللذان لا يعلمان شيئًا عن هذا الحل فوجهت جاكلين نظرها للشعب وقالت بقوة:
- "أنا بعلن الحرب ضد الشمال" .
اتسعت أعين خالد وأيوب وارتفع صوت الشعب صائحًا مهللًا وكأنه ضمن فوزه في الحرب التي لم يخضها بعد، فهذا الشعب قد اعتاد على إراقة الدماء وحرم منها في فترة المقاطعة وها هو سيعود إليها مرة أخرى .
- "لكن أنا مش هحارب لوحدي، انتوا معايا؟"
دقت طبول الحماس في أعين الشعب الذي هتف بأعلى صوت له حتى كادت أن تتشقق أحباله الصوتية:
- "معاك يا ولي العهد" .
استدارت جاكلين وأعطت وجهها لأيوب الذي قال بشك:
- "أنت متأكدة؟"
فكرت جاكلين للحظات ثم قالت بأسى:
- "زمان أنت وقفت الحرب بحجة إن الأخوات ميقتلوش بعض وخلاص دا حصل، ليلة اتقتلت وحقها دين في رقبتي، محدش بيهرب من نصيبه يا زعيم وأنا الحرب نصيبي" .
قالتها جاكلين وسارت داخل منزلها وسار خبر إعلان الحرب إلى (علي) في الشمال أسرع من سير الرياح، لا يعلم لماذا لم يتوقع أن يستمع إلى خبر كهذا أبدًا .
لا يعلم لماذا شعر بالصدمة! هل حسمت جاكلين الأمر؟ هل أغلقت كل أبواب النقاش بينهما بإعلانها للحرب؟ هل صدقت أنه هو من خانها ولم تترك له أي فرصة ليدافع عن نفسه وقررت الانتقام؟!
هل سيرفع سيفه ليقتلها أم أنها ستصوب رمحها إلى قلبه أولًا؟
قلبه؟! أي قلب هذا الذي يمكنه أن يقتل من أحب، لكن على كل حال سيكون سعيدًا إذا كانت نهايته على يدها .
كان علي واجمًا غارقًا في أفكاره حتى انتشله من شروده صوت ضوضاء تقترب

وصوت طرقات على باب غرفته فدخل الشوام من خلف الباب قائلًا بحماس:
- "الشعب كله عرف قرار الحرب، أخرج قول كلمتك يا علي" .
أي كلمة هذه التي سيقولها بعد أن حسمت السمراء الأمر وما بوسعه التراجع!
أطل علي من شرفته فوجد الشعب بأكمله يهلل ويصيح منتظرًا الإذن من زعيمهم الصغير للاستعداد للحرب فتنهد علي وقال:
- "أنا قبلت قرار الحرب" .
قالها علي فصاح الشعب متحمسًا، أما هو فشعر بأنه قد غرس سكينًا في قلبه الأبيض كبياض وجهه .
ها هو الشعب سيستعد لخوض الحرب في حين كان زعيمهم يخوض حربًا أخرى بمفرده .
حربًا بين قلبه وعقله، حربًا بين واقعه وخياله، حربًا بين ما يحدث وما كان يتمنى أن يحدث، حربًا هو فيها المدافع والمهاجم .
إن حروب العالم أجمع لا تساوي دقيقة واحدة في حرب يخوضها الإنسان مع نفسه .

****

٩- من ينتصر؟

كل يوم تشرق فيه الشمس هو حرب جديدة .
كل شخص يمر أمامك له حرب أنت لا تعلمها .
الحرب لن تنتهي ما دام هناك بشر .
حربك أنت فيها الخاسر والمنتصر، ستفهم السر في النهاية لكنه الصبر ومن ينتظر .
فهذه هي الحرب .
الحرب ومن ينتصر؟!

****

هناك أيام تمر مرور الكرام وأيام تكتب تواريخها بالذهب، كمثل هذا اليوم الذي سيحدد من المنتصر .

جاء ميعاد اليوم المشهود الذي حدده الفريقان للقاء الحاسم، الذي سيترتب عليه كل شيء، إما قاتل أو مقتول، إما خاسر أو منتصر لا يوجد وسط، فمن قواعد اللعبة أن الحرب ستبدأ بين فريقين ولن يبقى إلا فريق واحد، فهذه الأرض أثبتت مئات المرات أنها لا تتسع للفريقين معًا، لا تتسع للأبيض والأسمر في آن واحد، وها هي اليوم ستحدد اللون الذي سيبقى عليها واللون الذي سيكتب نهايته بيده .

خرج علي من الشمال على رأس جيشه الأبيض الذي يرتدي أفراده اللون الأسود والأحزمة الخضراء حتى زعيمهم ارتدى كذلك بالإضافة إلى شارة الزعامة التي تزين كتفه الأيسر على شكل زهرة اللوتس، كان يسير في مقدمة جيشه الذي تنشق الأرض تحت أقدام أفراده متجهين إلى صحراء إيڤانوس .

وعلى الجانب الآخر كانت جاكلين تقود جيشها مرتديين اللون البني والأحزمة الصفراء، أما هي فقد كان هناك وشم على شكل قرني الغزالة يزين كتفها مثل الذي كان على كتف ليلة طوال حياتها .

خرج الجيش من الجنوب متجهًا لذات الوجهة التي سار نحوها جيش الشمال وهي صحراء إيڤانوس حيث سيلتقي الجيشان، حيث سيخرج كل جيش غضبه في وجه الجيش الآخر، كانت صدور كل من في الجيشين تثور كرهًا وحقدًا وبغضًا للفريق الآخر، كان كل منهم يستجمع قوته ليجعل الفريق الآخر أقل من حشرات الأرض .

إنه كره مكبوت لثلاثين عام سيخرج اليوم، هذان الجيشان يحلمان بيوم اللقاء منذ ثلاثين سنة ليأخذ كل منهما ثأره من الآخر ويسقي بدمائه رمال الصحراء حتى ترتوي، كل من له حق يستعد لأن يأخذه، كل من يعشق أرضه يستعد

لتكون هي المنتصرة إنها الحرب .
الحرب ومن ينتصر!
كان كل من علي وجاكلين يراجعان العلامات التي أخبرتهم فخر بها من قبل وهي أن السماء ستمطر وأن القلادتان اللتان في رقبتا جاكلين وعلي ستساعدهما على معرفة من المنتصر .
اقترب الجيشان من نقطة اللقاء حتى استطاع كل جيش أن يسمع صوت الجيش الآخر القادم نحوه، حتى استطاعا أن يريا بعضهما البعض .
اقتربا حتى التقت عيناهما، التقت عين علي الشاب الأبيض ذي الشعر البني الناعم بعين السمراء ذات الشعر الثقيل الأسود، إذا كانت لغة العيون لها صوت لكان الجيشان سمعا جاكلين وهي تقول له:
- "ما أفعله هو رد فعل لما فعلته أنت" .
ثم سيسمع الجيشان صوت علي وهو يقول:
- "لكنك لم تنتظري لتعلمي ماذا فعلت أنا" .
لكن لغة الأعين ليس لها صوت لذلك لم يسمعهما أحد .
اقترب الجيشان أكثر حتى صار الفارق بينهما هو مسافة من حبات الرمال وعلى الجانب البحيرة التي لطالما جلسا أمامها وتحدثا، البحيرة التي شهدت على كل شيء وها هي اليوم ستشهد على موت أحدهما على يد الآخر .
إذا كانت جاكلين قد قالت له يومًا (مفيش قانون يقدر يمنع العشق) فما هو اليوم وبعد أن حارب كثيرًا كي لا تقوم هذه الحرب يتأكد من أن (قوانين البشر متقدرش تمنع النصيب) .
التفت علي ونظر لجيشه وقال:
- "النهاردة هو يوم انتصار الشمال" .
في حين استدارت جاكلين ووجهت كلمة لجيشها قائلة:
- "الأرض جنوبية وهتفضل جنوبية" .
هنا صاح الجيشان بصوتٍ تصدعت له الجبال وأخذا يسيران مسرعين في اتجاه بعضهما وهنا، ظهر صوت صراخ مجهول المصدر لكن أحدًا لم يهتم .

زاد الجيشان من سرعتهما فازداد صوت الصراخ أكثر فأكثر، اقترب الجيشان من بعضها فأخرج كل منهما أسلحته، أخرج علي سيفه وأخرجت جاكلين رمحها ونظرت إليه بعين التحدي الذي يشوبه الألم ونظر هو إليها بعين الحسرة والإجبار .

كثيرًا ما تضعنا الدنيا في مواقف لم نتمنها يومًا لكن من ذا الذي يقف أمام إرادة الأيام .

اقتربا بالأسلحة وهنا انعدمت الرؤيا للحظاتٍ ثم عادت مرة أخرى، وارتفع صوت الصرخات المتقطعة لكن الجيشين لم يهتما وأخذا في التقدم للأمام نحو بعضهما البعض .

الجيشان يقتربان والرؤيا تختفي وتعود، الجيشان يقتربان وصوت الصرخات يرتفع أكثر وأكثر ثم تختفي الرؤيا ثم تعود مرة أخرى!

نظر كل من في الصحراء حوله لمعرفة ماذا يحدث، لكن دون جدوى فقد صار الجيشان أمام بعضهما فرفع كل جيش أسلحته لأعلى وصاح عاليًا وركضا صوب بعضهما وحينها أصبح الصراخ متصلًا لا ينقطع وفي اللحظة التي صارت المسافة فيها بين الجيشين ثلاثة أمتار فقط اهتزت الأرض أسفل أقدامهم فسقط الكثير منهم أرضًا، الرؤيا تنعدم وتعود مع ارتفاع صوت الصراخ واهتزاز الأرض أسفلهم فظهر الهلع على وجوه كل من في الصحراء، ازداد على صوت الصراخ صوت رعد لم يسمع في هذه الأرض بهذه القوة من قبل .

حاول الجيشان الاقتراب أكثر لكن الأرض انشقت من بينهما!

ظهر شق في الأرض بين الجيشين وازداد معه اهتزاز الأرض فأصدرت القلادتان اللتان في رقبتا علي وجاكلين ضوءً أزرقًا متوهجًا وعلى غير توقع هبطت حبات المياه كثيفة من السماء وازداد الشق في الأرض التي تهتز ثم انفصلت إلى جزئين بينهما هوة ليس لها آخر تسقط بداخلها الأمطار وفجأة، أظلم كل شيء .

فتحت أبواب غرفة العمليات فخرج منها سرير أبيض يدفعه رجال التمريض ومن فوقه امرأة نائمة في سلام .

وصل السرير إلى الغرفة لكن السيدة لم تصل لوعيها الكامل بعد من أثر جرعة البنج التي تعرضت لها في عملية الولادة، مر بعض الوقت ثم فتحت المرأة عينيها بتثاقل فرأت زوجها بجانبها .

من يصدق أن كل هذا الوقت قد مر عليهما منذ يوم زفافهما حتى الآن، من يصدق أنها الآن نائمة في المستشفى بعد أن وضعت مولودها الأول، وها هو زوجها بجانبها يبتسم لها بحنانه المعتادة .

جمعت السيدة قواها وقالت بوهن:

- "أنا خلفت إيه؟"

التفت الزوج وحمل الرضيع على ذراعيه وقال بهدوء:

- "خلفتي بنوتة زي القمر" .

نظرت السيدة التي أصبحت أمًا لتوها إلى الرضيعة فوجدتها آية في الجمال .

كانت ذات بشرة بيضاء كبياض الشماليين، لها شعر أسود ناعم وثقيل يزين رأسها كشعر الجنوبيات، كانت لها عين ثاقبة وعلى الرغم من أنها لم تفتحها بعد إلا أنها قد رأت بهما الكثير .

هل فكرت يومًا ماذا يحدث للطفل أثناء وجوده في بطن والدته؟ هل يقضي تسعة أشهر قبل ولادته عبثًا أم أنه يرى فيهم أشياء لا يراها سواه؟ رأى الكثيرون أن الطفل يرى مشاهد من حياته قبل ولادته وأنا أوافقهم الرأي .

الطفل يرى الكثير قبل أن يولد، فبداخل كل رضيع عصر آخر وأرض أخرى يراهما قبل أن يولد، أرض بها صراع بين جميع الأطراف ولكل طرف صفة تميزه عن الآخرين حتى ينتصر أحد الأطراف فيكون هو شخصية الرضيع الذي سيول .

أعلم أن حديثي قد يكون خارجًا عن المنطق لكن هل تساءلت يومًا ما الذي جعلك بهذه الشخصية؟ في رأيي أن الصفة الأساسية في شخصيتك تمثل الطرف الذي انتصر في الحرب التي كانت بداخلك قبل أن تولد وتفتح عينيك للحياة من حولك .

أما عن هذه الرضيعة فكانت ترى إيڤانوس، كانت ترى أرض إيڤانوس لمدة تسعة أشهر لتعلم من الذي سينتصر فتصبح شخصيتها هي شخصية الطرف

المنتصر في الحرب .
قضت تسعة أشهر نائمة في بطن والدتها في ثبات عميق وفي عقلها ترى أرض خيالية تدعى (إيڤانوس)، رأت مكانًا لا نعرفه عاشت في زمان لا نعلمه، من المؤكد أنها كانت تشاهد حياة لا تمت لحياتنا بصلة ورأت فيها تسعة مراحل لتعلم كيف ستصبح شخصيتها!
رأت الصراع، النضج والتفاهة، الرفض، التأقلم، الخير والشر، الحب والكره، رأت الانهيار، الثورة والمرحلة الأخيرة من ينتصر .
- "هتسميها إيه؟"
ابتسمت الأم في حنان وقالت:
- "هسميها إيفا" .
- "يعني إيه؟"
- "إيفا يعني حوا، إيفا يعني بنت" .
لكن من المنتصر؟ مَن ستكون إيفا من شخصيات إيڤانوس؟
الحقيقة أن في إيڤانوس لم ينتصر أحد لذا هذه الفتاة لن تكون أحدهم بل ستكون جميعهم .
هذه الفتاة بداخلها طيبة (علي)، شر (عمار)، وقار (سوسن)، رفاهية (سمر)، تمرد (جاكلين)، وفاء (خالد)، شقاء (زينب) وفن (ليلة) .
ستحيا هذه الفتاة وستحيا بداخلها كل هذه الشخصيات، ستحيا بكل هذه الصفات معًا دون أن ينتصر أحد .
من المؤكد أنها لن تكون فتاة عادية، فهذه الرضيعة ستجمع بين كل قوى إيڤانوس، ستحيا بقلبٍ غير قابل للهزيمة .
لا تتعجب، فقد تتجمع آلاف الشخصيات بداخل فتاة واحدة، شخصيات ستظل دومًا في حالة صراع، حرب دون منتصر .
قد لا تصدق كلماتي وقد تراها كلمات هزلية، لكن اعلم أنه إذا كان ميلاد الإنسان هو بداية حياته فمن المؤكد أنه هناك حياة أخرى قبل ميلاده تمثل ما قبل البداية،

فكل بداية هناك ما يوجد قبلها حتى وإن كانت على أرض مثل إيڤانوس .
والآن،
عليكِ أن تنسي كل ما رأيتيه في شهورك الماضية يا صغيرتي وتستعدي لما هو آتٍ،
فأنتِ اليوم بداية لحياة جديدة سيكون لها حكاية جديدة .
أنتِ اليوم حكاية جديدة رأيناها منذ ما قبل البداية .
وأنت يا من تقرأ، هل علمت أي القوى انتصرت بداخلك أم أن الحرب في عقلك ما زالت قائمة؟
انظر بداخلك لتعلم من أنت .
ولا تتعجب، فالقادم دومًا سيكون أغرب .

تمت بحمد الله

للتواصل مع الكاتبة:

Facebook:salma hytham azmy

Inastagram:salma.hytham

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub